رواية

جوزِبّه كاتوتسيلا

لا تقولي إنك خائفة

ترجمها عن الإيطالية
معاوية عبد المجيد



جوزِبِّه كاتوتسيلا

لا تقولي إنك خائفة



ترجمها عن الإيطالية
معاوية عبد المجيد

-١-

كان الجو حاراً، للغاية، في ذلك الصباح، من يوم الجمعة، يوم العطلة، حين تعاهدنا أنا وعليّ أن نكون أخوين، تحت ظلّ إحدى أشجار السنط.

كان الطريق طويلاً ومضنياً، وكنا نتصبّب عرقاً. قطعنا سبعة كيلومترات دون أن نتوقّف لحظة واحدة، من بونديريه؛ حيث نسكن حتى استاد كونز، مروراً بكل الدروب الصغيرة التي كان عليّ يعرفها، كراحة يده، غير آبهين، بحرارة الشمس المرتفعة.

لقد وُلدنا في العام نفسه، بفارق ثلاثة أيام، وكنا قد أتممنا عامنا الثامن. لقد كان عليّ محقاً؛ إذ لابد للأخوّة أن تجمع بيننا رغم كل الخلافات التي كانت سوف تُفرَض على أفراد عائلتينا الذين كانوا يعيشون في المنزل نفسه، ويتقاسمون عناء الحياة.

كنا نلتقط أنفاسنا، ونستنشق هواء نقياً عند تلك الشجرة، وقد غمرنا التراب الأبيض الناعم الذي يتطاير من الشوارع مع هبوب الرياح. وإذ بِعَليٍّ يفاجئني، بفكرته.

"هل تريدين أن تكوني أختاً لي؟" سألني، وهو يتنفس، بصعوبة، ويثني يديه على خصره النحيل. كان يرتدي سروالاً أزرق ضيقاً، تعاقب كل أخوته على ارتدائه قبل أن يصل إليه. "أتريدين أن تصبحي أختي؟" غالباً ما تحين لحظة مناسبة، ترتقي بمَن تعرفه - منذ وقت طويل - إلى مرتبة الأخوّة، إن كان أمره يهمّك. وهكذا يربط بيننا العهد مدى الحياة.

نظرتُ إليه نظرةً حائرةً دون أن أفصح عما كنت أفكر فيه.

"شرط أن تستطيع اللحاق بي"، قلت له، وانطلقت على حين غرة صوب منزلنا.

بذل عليّ قصارى جهده، وبعد خطواتٍ قليلةٍ، استطاع أن يعرقلني ممسكاً بقميصي. سقطت على الأرض، فصار فوقي، وسط التراب الذي يعلق بكل شيءٍ، بعرق الجلد، وبالثياب الخفيفة.

لم يكن هناك أحدٌ في الطريق، قبيل موعد الغداء. لم أحاول أن أحرّر نفسي من قبضته، ولم أُبْد أية مقاومة؛ لأننا كنا نلهو.

"والآن؟" سألني بنبرة جدية وأنفاسه الحارة تلفح وجهي. لم أستطع أن أنظر إليه، ورحت أطبق عينيّ، وأنا أشعر بالاشمئزاز. "عليك أن تقبّلني، إذا كنت ترغب أن تصبح أخي. هكذا تقتضي القاعدة، كما تعلم".

مدّ جسمه على جسمي، كالسحلية، وأعطاني قبلة، بلّلت وجنتي.

"*أبايو*" قال. أختي.

"*أبووي*" *أجبته*. أخي.

نهضنا، ثم انصرفنا.

كنا أحراراً، أحراراً؛ لنركض مجدداً... كي نصل إلى المنزل، على الأقل.

لم يكن بيتنا عاديّاً كتلك البيوت الجميلة التي تتوفر فيها وسائل الراحة كافة، بل كان صغيراً، للغاية. تعيش فيه أسرتي وأسرة عليّ، في مسكنين متقابلين، يفصل بينهما فناء محاط بجدارٍ منخفضٍ، من الطين.

وكان مسكننا على الجهة اليمنى، وفيه حجرتان، الأولى لأبي وأمي، والأخرى لي ولإخوتي السّتّة. وكانت الجدران مبنية من خليط الطين والأغصان الذي يستمدّ صلابته من أشعة الشمس القاسية. وبين تلك الحجرتين ثمة غرفة لأصحاب المنزل، أسرة عمر شيخ، وهو رجل بدين، لديه زوجة بدينة مثله وأكثر. لم يكن لديهما أبناء. وكانا يعيشان قرب

الساحل، ويأتيان لقضاء الليل، في تلك الغرفة، من وقتٍ، لآخر. وعندما يكونان عندنا تفقد الأيام الكثير من بهجتها. "احتفظوا بعباراتكم الساخرة، وبمزاحكم لبعد الغد"، هكذا كان سعيد، أخي الأكبر، يقول كلما رآهما قادمين، مشيراً إلى الوقت الذي كانا سيغادران فيه المنزل.

أما عليّ؛ فكان يعيش هو ووالده وأخوته الثلاثة، في غرفةٍ واحدةٍ، في الجهة اليسرى، من الجدار.

وكان الفناء أجمل ما في ذلك المنزل؛ إذ كان فناءً واسعاً جداً، ترتفع في آخره إحدى أشجار الكافور الكبيرة والمنعزلة. وكان كل أصدقائنا يأتون ليلعبوا معنا في ذلك الفناء. أما الأرضية، سواء داخل المنزل، أو خارجه؛ فكانت مكسوّة بلون الغبار الأبيض المنتشر في أنحاء مقديشو كافة. داخل حجرتنا - على سبيل المثال - قمنا ببسط حصيرٍ من القشّ تحت الفُرُش، ولم يكن الحصير مجدياً، كما كان متوقعاً؛ إذ يضطر سعيد وعبدي، أخواي الكبيران، أن يهزّا البساط، بشدة، في الخارج مرة كل أسبوعين؛ لإزالة الغبار العالق فيه.

لقد شيّد عمر شيخ، ذو البنية القوية، ذلك المنزل بساعديه منذ سنواتٍ عديدةٍ. أراد أن يبنيه بالقرب من شجرة الكافور المهيبة تلك. فكلّما مرّ أمام هذه الشجرة، في طفولته، ازداد عشقاً بها. هكذا قصّ علينا غير مرة بصوته الحاد المضحك الذي يحتبس في حلقه. في ذلك الوقت، كانت شجرة الكافور قد نمتْ، وأصبحت قويةً، ففكّر عمر بأن يبني بيته بجانبها. ولكنْ؛ في ظل هيمنة النظام الدكتاتوري، تعرّضت الأعمال للكثير من العوائق حتى بدا أن الحرب وشيكة. لذا؛ فكر في الانتقال إلى مكانٍ أكثر هدوءاً، فقام بتأجير تلك الغرف الثلاث لأسرتي وأسرة عليّ.

كان الحمّام المشترك عبارة عن كوخ، في آخر الفناء، شكله مربّع، ومساحته ضيقة، ويُغلَق، بأعواد سميكة، من قصب البامبو. وفي المنتصف، يوجد ثقبٌ مقرّزٌ، كنا نقضي فيه حاجتنا.

وقرب الحمّام من الجهة اليسرى، تقع غرفة عليّ. وتوجد غرفتنا قبالتها: أربعة أمتار في أربعة أمتار، وسبعة فُرُش ملقاة على الأرض.

في المنتصف، كان ينام الأخوة الذكور، وعلى الأطراف، كنا ننام نحن الإناث الأربعة. أوباه وحمدة عند الحائط الأيسر، وأنا وهودان - أختي المقربة - عند الحائط الأيمن. وفي وسط الغرفة، كان قنديل الغاز، *الفيروس*، يهيمن - دائماً - كالشعلة التي لا تنطفئ لحمايتنا. ولولا ذلك القنديل، لما استطاعت هودان قراءة وكتابة أغانيها، في الأوقات المتأخّرة من الليل، ولما استطاع شفيتشي - أصغر الذكور - تقديم عروض الظلال المتحركة على الجدران التي كانت تضحكنا، بشدة؛ لأنها كانت تفتقر إلى الانسجام والإتقان. "أنت تقدم عروض الظلال المتحركة في غاية الروعة والخيال"، هكذا كان سعيد يقول له.

باختصار، كنا نتسامر، نحن الأخوة السبعة، كل ليلة قبل النوم، في تلك الحجرة الصغيرة، ونستمتع كثيراً، محاولين ألا نصدر ضجيجاً، يصل إلى والدينا، وإلى ياسين، والد عليّ، الذي كان ينام هو وعليّ وإخوانه الذكور الثلاث قبالتنا... على بعد خطواتٍ قليلةٍ مني. ثلاثة أيام تفصل ولادة كل واحد منا عن الآخر، وداخل المنزل تفصل بيننا خطواتٌ قليلةٌ، قليلةٌ للغاية.

منذ أن أتينا إلى هذه الدنيا، كنت أنا وعليّ نتشارك الغذاء والحمَّام. والأحلام والآمال - أيضاً - التي تولد مع الطعام والغائط، كما يقول أبي دائماً.

لم يفرّق شيءٌ بيننا أبداً. بالنسبة لي، كان عليّ مثل أختي هودان الثانية، وهودان مثل عليّ الجميل. كنا نبقى سويّاً نحن الثلاثة دائماً، فقط نحن الثلاثة. كان عالمنا مثاليّاً، ولم يكن لأي شيء أن يفرّق بيننا، رغم كونه من عشيرة *دارود*، ونحن من عشيرة *أبجال*، وهما عشيرتان، بدأتا بالتناحر قبل ولادتنا في مارس ١٩٩١، بثمانية أسابيع.

نحن الاثنان آخر العنقود، مما جعل والدتينا حريصتين على بقائنا أحياء، بينما كانت العشيرتان تحرصان على استمرار الحرب. الحرب شقيقتنا

الكبرى، كما كان وَالِدَانا يقولان دائماً. شقيقةٌ خبيثةٌ، تعرفك جيداً، وتدرك تماماً كم من السهل إسعادك، أو إتعاسك.

كان التعايش في بيت واحد ضرباً من ضروب الخيال؛ إذ ينبغي أن يكره بعضنا بعضاً كسائر أبناء تلك العشيرتين. أما أنا وعليّ؛ فلطالما كانت تصرّفاتنا نابعةً من رأسنا، بما في ذلك تناول الطعام وقضاء الحاجة.

في ذلك الصباح الذي تعاهدنا فيه على الأخوّة، كنت أتدرّب معه استعداداً للمسابقة السنوية في الجري بين أحياء مقديشو. لم يكن يفصلنا عن موعد السباق سوى أسبوعين، ورغم هذا، كان الوقت يبدو، وكأنه لا يمرّ. وكنا في يوم الجمعة، يوم العطلة، ويُفرَض فيه حظر التجول أيضاً، لذا؛ كانت الشوارع خاوية من المارة، مما سهّل علينا الجري في شوارع المدينة، وسط كل ذلك البياض.

كل شيءٍ أبيض في مقديشو.

جدران المباني المليئة بالثقوب التي أحدثتها طلقات الرصاص، أو الجدران المتهاوية بفعل القنابل اليدوية. كلها بيضاء، أو مائلة للاصفرار، أو للّون الرمادي. يغلب اللون الفاتح عموماً. حتى البيوت الفقيرة كمنزلنا تميل إلى الأبيض، مع أنها مبنية من الطين والأغصان، كأرضية الطرقات التي تمتد على واجهات المباني.

عندما تعدو في شوارع مقديشو، تتصاعد خلفك سحابة من الغبار الناعم. كنت أنا وعليّ نُخَلِّفُ وراءنا سحابتين من الغبار الأبيض الذي يرتفع نحو السماء حتى يتلاشى. كنا نسلك الطريق نفسها دائماً حتى باتت مكاناً لتدريبنا الشخصي.

عندما كنا نمر بجوار المقاهي؛ حيث يجلس كبار السنّ، للعب الورق، أو شرب *الشعت*، كان يصل الغبار الذي كنا نخلّفه داخل أكوابهم. كنا نفعل ذلك عن قصد، فيهمّون بملاحقتنا، فنسرع حتى يفقدون أثرنا في

لحظةٍ واحدة، بفضل سحابة الغبار. أصبح هذا الأمر لعبةً، تبعث الضحك فينا وفيهم أحياناً. كان علينا أن نبقى حذرين؛ حيث نضع أقدامنا؛ لأن القمامة كانت تُحرَق في المساء؛ ليعجّ المكان بالمخلفات المحترقة في صباح اليوم التالي. صفائح البنزين، عبوات الزيت المعدنية، قِطَع الإطارات، قشر الموز، زجاجات مكسورة. كان يوجد كل شيءٍ. على مسافةٍ بعيدةٍ، بينما كنا نركض، كانت تظهر العديد من الأكوام المتبخّرة، الكثير من البراكين الصغيرة التي توشك على الثوران.

قبل أن نتغلغل داخل الشوارع الضيقة المؤدية إلى الطريق الرئيسة على طول البحر، كنا نمر - دائماً - *بجامارال داود*، وهو شارع ذو ممرين، تغطّيه نفس الأرضية البيضاء، وتصطف على جانبيه أشجار السنط.

أثناء السباق، كان يروق لنا رؤية مذبح الوطن، البرلمان، المكتبة الوطنية، المحكمة. هناك يقف الباعة المتجوّلون: الأقمشة الملوّنة ملقاة على الأرض، يضعون فوقها بضاعتهم، من الطماطم والجزر، إلى الزجاج الأمامي للسيارات. كانوا يقفون تحت الأشجار المنتشرة على جانبي الطريق، إلى أن يأتي بعض الزبائن، وعندما كنا نمر بالقرب منهم، كانوا ينظرون إلينا وكأننا كائنان من كوكب المرّيخ، ويستهزئون بنا.

"لمَ كل هذه العجلة؟ أين تمضيان، أيها الصعلوكان؟ إنه يوم عطلة. ابقيا في المنزل"، هكذا كانوا يقولون عندما نمر بقربهم.

"نحن ذاهبان إلى المنزل عند زوجتك، أيها العجوز النعسان!" يجيبهم عليّ، فيلقون عليه قشر الموز، أو ثمرة طماطم، أو تفاحة. فيتوقف عليّ؛ ليلتقط هذه الأشياء، ثم يستأنف العدْو.

كان السباق حدثاً هاماً. بالنسبة لي، كان يبدو يوماً أكثر أهمية من يوم ١ تموز/ يوليو، تاريخ التحرر من الاستعمار الإيطالي، عيدنا الوطني.

وكالعادة، كنت أرغب في الفوز، لكنني كنت أبلغ من العمر ثماني

سنوات فقط، وكان الجميع يشارك في السباق، حتى الكبار. في العام الماضي، حصلتُ على المرتبة الثامنة عشر، لكنني هذا العام أريد أن أعبر خط النهاية ضمن الخمسة الأوائل.

عندما رأى أبي وأمي حماسي الشديد، وأنا لازلت طفلةً، كانا يحاولان معرفة ما يجول في رأسي.

"هل ستتمكّنين من تحقيق الفوز هذه المرة - أيضاً - يا سامية؟"، كان أبي يوسف يسألني ساخراً. أثناء جلوسه في الفناء على كرسي من القش، كان يجذبني إليه، وبيديه الضخمتين يداعب شعري. كنت أستمتع بمداعبته أيضاً، فأمرر أصابعي الصغيرة في شعره الأسود والكثيف، أو أن أخبطه على صدره فوق قميصه المصنوع من الكتان الأبيض. حينئذٍ، كان يمسكني بقوة - نظراً لضخامته - ويرفعني في الهواء بذراعٍ واحدةٍ، ثم يضعني على حضنه.

"لم أفز - بعد - بالسباق، يا أبي، لكنني سأفعلها قريباً".

"تبدين كالغزال، أتدرين ذلك، يا سامية؟ أنت غزالتي الصغيرة المفضلة". هكذا كان يجيبني، فأصاب برعشة في ركبتيّ، ما إن يصلني صوته العميق والأجش والعميق، وهو يتحول إلى صوت عذب.

"أبي، أنا سريعة كالغزال، ولكنني لست بغزالٍ..".

"لنسمع منكِ.. كيف يمكنك أن تهزمي هؤلاء الشباب الذين يكبرونك سنّاً؟"

"بأن أعدو أسرع منهم، يا أبي! ربما ليس بعد، ولكنْ، يوماً ما، سوف أصبح أسرع عداءة في مقديشو، بأكملها".

كان أبي ينفجر في الضحك عند سماع هذه الكلمات، وتشاركه والدتي الضحك أيضاً، إذا كانت موجودة.

ثم يضمّني إليه مجدداً، وقد اعتلته علامات الحزن، قائلاً: "يوماً ما، بالطبع، يا صغيرتي سامية. يوماً ما..".

"أتدري، يا أبي، يمكن التنبّؤ ببعض الأشياء. فأنا - ومنذ نعومة أظفاري - أعرف أنني سوف أصبح بطلة ذات يوم". كنت أحاول إقناعه.

"هنيئاً لك، يا صغيرتي سامية. أما أنا؛ فأود أن أعرف شيئاً واحداً، لا غير: متى سوف تنتهي هذه الحرب اللعينة".

ثم ينزلني من حضنه، ويستسلم لنظرة بعيدة وعبوسة.

-٢-

لم نكن أنا وعليّ نُبدِ أيّ اهتمام بالحرب، رغم أنهم كانوا يتبادلون إطلاق النار في الشوارع. لم نكن لنسمح للحرب أن تسلبنا الشيء الوحيد المهم الذي نمتلكه: علاقتنا الودية.

بإمكان الحرب أن تسلب المرء بعض الأشياء، ولكن هذا الشيء بالتحديد ليس بمقدور الحرب أن تمسّه. على سبيل المثال، سلبتني الحربُ البحرَ. أول رائحة شممتها فور ولادتي كانت رائحة البحر التي كانت تتدفق على طول الطريق من الساحل حتى فناء المنزل، رائحة ملح البحر التي لاأزال أحملها فوق شعري وجلدي، والرطوبة التي تتحد بالهواء.

ورغم ذلك، قمتُ بملامسة البحر مرةً واحدةً فقط. أعلم أنه ماءٌ، وأنك إذا قفزت داخله تبتل، كما لو أنك ألقيت بنفسك داخل جُبٍّ، ولكنني لا أصدّق الأمر حتى الآن مادمتُ لم أقم به.

في بعض المرات، لمستُ الرمال، رغم خطورة هذا الشيء. كنت أنا وعليّ، أثناء مرورنا في تلك الأزقة، نقترب من البحر بعد الظهيرة. فنشاهد اتساعه الهائل، ونحن جالسان على جانب الطريق الرئيسة التي تمتد من الجنوب إلى الشمال، على طول الشاطئ. وكنا نختبئ وراء شاحنة، أو دبابة، كي نتأمل أمواج البحر طويلاً، وهي تتحرك للأمام والخلف، ونلعب مع انعكاس أشعة الشمس، في كل مكان. كانت لدينا رغبةٌ جامحةٌ في الغوص داخل البحر. ممنوع علينا أن نلمس البحر الواسع رغم كونه أمام أعيننا.

لكن علياً لم يتمالك نفسه، فاقترب من البحر مرتين، أو ثلاث. أدركت

ذلك من يديه الذي كان يفركهما دون توقف. نظر حوله، أمسك بذراعي، وطلب مني أن أركض. قال لي فقط: "اركضي". في تلك المرة، عبرنا الطريق الرئيسة، وجلسنا على الرمال. كانت خطوة مجنونة؛ إذ من الممكن أن يطلقوا النار صوبنا، فالشاطئ هو أحد الأماكن المفضلة للمليشيات المسلحة. إنه بمثابة سماء مفتوحة؛ حيث تُصَوَّب طلقات البنادق، بشكلٍ مباشرٍ.

لكننا تظاهرنا بأننا أطفال عاديون، أطفال لا يفكرون في شيء، ويرغبون في اللعب، ليس إلا.

كانت الرمال حارة ورقيقة، كصفائح الذهب. لم يكن هنالك أحد في تلك المنطقة. فرحنا نتدحرج، ونتبادل اللكمات، ونغوص في الرمل، فيملأ شعرنا وثيابنا. وبعد أن قمت ببعض الحركات الرياضية، ضحك عليّ كالمجنون حتى بدا أنه فقد عقله. لم أره من قبل في مثل هذه الحالة، فقد كان يفتح فمه مظهراً أسنانه الكبيرة شديدة البياض: "تبدين وكأنك كرة لحم مغطّاة بدقيق الذرة!" وكان يستمر في الضحك، بوجهه الهزلي، وأنفه المسطح، وفمه الضخم، وعينيه الصغيرتين المتقاربتين.

"أنت كرة لحم مغطّاة بدقيق الذرة!" كان يردد.

حاولت أن أحرّر نفسي، ولكني لم أستطع. كان أقوى مني، بكثير، رغم عضلاته الهزيلة. لكن السرّ كان في أعصابه المشدودة وقامته الطويلة. كان يشل حركتي فوق الرمال، بينما أحاول فكّ هذه الأغلال. وكان يتظاهر برغبته في تقبيل فمي، ويمدّ رأسه، التي تشبه رأس السلحفاة. فأهز رأسي يميناً ويساراً، وأنا منهكة. ثم حين يدنو كثيراً، ينفخ الرمال في عيني بدل القبلة.

كم كنت أكرهه.

مرة واحدة، مرة واحدة فقط، وتحت تأثير قوة عجيبة، اقتربنا من المياه، ببطء. خطوة صغيرة تلو الأخرى، دون أن ندرك ما كنا نفعله.

كان امتداداً بديعاً هائلاً، مثل فيلٍ، ينام، ويتنفس، بعمق. كانت الأمواج

الطويلة تصدر صوتاً رائعاً، يشبه صوتاً ما، وتبدو وكأنها قواقع صغيرة محبوسة داخل علبة زجاجية، أهداها أبي لأمي أيام الخطوبة، فاحتفظت بها داخل خزانة خشبية، في غرفتهما. كنا نلعب بها أحياناً، ونَقْلبها ببطءٍ رأساً على عقب؛ كي نستمع إلى صوت البحر.

ششششش. ششششش.

اقتربنا، وابتلت أيدينا وأقدامنا، بالماء. وضعت أصابعي على فمي. ملح.

وأثناء نومي، رأيت الأمواج في المنام. حلمت بأنني فقدت نفسي وسط تلك المساحة الشاسعة، تاركةً الأمواج تهدهدني، وتحملني للأعلى وللأسفل، وفقاً لمزاج المياه.

سلبتني الحرب البحر، إذن. وفي المقابل، وَلَّدت في داخلي الرغبة في العدْو، فباتت قويةً مثل البحر. الجري هو بحري.

كنت أنا وعليّ نتظاهر بأن الحرب لم تكن موجودة، والفضل في هذا يرجع إلى أننا أبناء يوسف عمر، والدي، وياسين أحمد، والده. فهما - أيضاً - صديقان منذ ولادتهما، وترعرعا معاً في قرية "الجزيرة"، جنوب المدينة، والتحقا بالمدرسة نفسها. حتى أبويهما عَمِلا سوياً في فترة الاستعمار الإيطالي. وتعلما من أبويهما بعض التعبيرات الإيطالية: "*لا تفعل اليوم ما يمكنك فعله في الغد*". "*العالم قرية صغيرة*". "ساعد نفسك؛ كي يساعدك الله". والعبارة الأهم: "*لا تعبأ حتى وإن سقط فوق رأسك ألف كيلو من البراز*" وهي عبارة كان القائد الإيطالي يرددها - دائماً - عندما كان والدانا يعملان في الميناء، في إفراغ الحاويات. ذات يوم، انفتح - فجأةً - باب إحدى الحاويات الممتلئة عن آخرها بالسماد؛ ليهطل منها ما غمره تماماً. ومنذ ذلك الحين، سار عمله بشكل جيد للغاية، لكنه لم يقلع عن استخدام تلك العبارة كنوع من أنواع السباب.

عبارة أخرى مأثورة كانت تقول: "نحن جميعاً *أبناء وطنٍ واحدٍ*". هذه كانت

عبارتهما المفضّلة، صديقان مخلصان، لا يفترقان، مهما كانت الأسباب.

"هل يمكن أن يفرّق بيننا شيء؟" كنا نتساءل أنا وعليّ في الأمسيات الحارة، عندما كان يساعدني في تسلق شجرة الكافور؛ كي نبقى منغمسين وسط أوراقها المنعشة طويلاً، ونحن نتحدث عن المستقبل. كان من الرائع الجلوس على شجرة الكافور. كنا نبني عالماً آخر، أجمل من العالم الحقيقي، لا يعيش فيه سوى نحن الاثنين وأحلامنا فقط.

"لا!" كان يَرُدُّ كل منا على مسامع الآخر. ثم كنا نقوم بأداء قَسَم الأخوة الأوفياء، ونُقَبِّل أصابعنا المتشابكة مرتين. لا شيء يجرؤ أن يقحم نفسه بيننا، ولا أحد. كنا على استعدادٍ بأن نراهن على أي شيء، بما في ذلك حياتينا.

لكن شجرة الكافور تلك كانت مكان عليّ المفضل، ينفرد مع نفسه فوقها، ويختبئ من دروس القراءة المسائية.

على الرغم من أنّ هودان كانت تكبرني بخمس سنوات، فكنا نذهب كل صباحٍ إلى المدرسة نفسها. وكانت المدرسة عبارة عن مجمع، يضم صفوفاً ابتدائية وإعدادية وثانوية. لم يكن عليّ يأتي معنا، نظراً لسوء أحوال والده المادية. فالتحق بالصف الأول الابتدائي في المعهد العام، ثم انهار المعهد، بسبب القنابل، ومنذ ذلك الحين، لم يعاود الذهاب إلى المدرسة مرة ثانية. منذ ذلك اليوم التعيس، باتت الدروس تُلقى في العراء، ولم يكن من السهل العثور على معلّمين مستعدّين للمخاطرة بحياتهم، والتعرض لسقوط قنبلة فوق رؤوسهم.

كانت الطريقة الوحيدة للتعلم هي التسجيل في المدرسة الخاصة. بعد بذل العديد من التضحيات، استطاع والدنا أن يرسلنا إلى تلك المدرسة الخاصة لبضع سنوات، بينما واجه ياسين - منذ بداية الحرب - صعوباتٍ في بيع فاكهته وخضرواته. فلم يكن الكثير من الزبائن راغبين في الشراء من *دارودي قذر*، هكذا كان يُطلق عليه في مقديشو.

عانى عليّ كثيراً من إجادتنا للقراءة والكتابة. فكان الأمر يُشعره بالدونية، تماماً مثل سمعة عشيرته في المنطقة. وكانت هذه واحدة من ضمن أشياء أخرى كثيرة، تسعى عشيرته لتأكيدها.

وكنا - من حين لآخر - نحاول أن نعلّمه حروف الهجاء، وسرعان ما نكفّ عن ذلك.

"حاول أن تركّز، يا عليّ"، كانت تقول له هودان، كأم صغيرة، وهي التي لطالما تصرّفت كمعلمة.

وحاول عليّ مراراً، لكن الأمر بالغ الصعوبة. فعملية تعلُّم القراءة تتطلب الكثير من الوقت، ولم يكن من الممكن القيام بذلك، في ما بعد الظهر، ونحن جالسان في الفناء على المائدة الصغيرة التي كان يستخدمها أبي وياسين للعب الورق، تحت شمسٍ حارةٍ، تثير الرغبة في اللهو والاستمتاع. أما هودان؛ فكانت ترى في لعب ور المعلمة متعة كبرى، فتجبرني وعلياً على القيام بدور التلاميذ. كنت - دائماً - أؤدي دور التلميذة النجيبة، وعليّ الطالب الذي لا يلتفت، لدروسه.

"لا أستطيع"، كان يقول لها. "الأمر صعب للغاية. ثم إنني لست مهتماً بالدراسة! لا طائل من إجادة القراءة!"

فأقوم أنا بأداء دور التلميذة الراغبة في مساعدة زميلها؛ كي لا تفقد هودان صوابها. "تشجّع، يا عليّ، الأمر ليس صعباً لهذه الدرجة، أنا - أيضاً - تعلّمت. انظر، هذه هي أحرف العلة *أ*، و، ي.."

كنت أحاول تشجيعه، لكنه لا يقاوم لأكثر من عشر دقائق. وعندما يحين دوره في القراءة، كان يختلق الأعذار؛ كي يذهب. وإذا ألحّت عليه هودان، تراه يغضب، ويتسلق شجرة الكافور، ويبقى هناك. شجرة الكافور مكانه المفضل.

ذات مرة من مساء أحد الأيام، وبعد مشادةٍ، حدثت بينه وبين أخيه

ناصر، صعد عليّ إلى قمة الشجرة، وظل هناك يومين تقريباً. لم يتمكن أحدٌ من إنزاله، وليس بإمكان أحد تسلّق الشجرة، والوصول إلى أعلاها. حاول ناصر إقناعه، بشتّى الطرق، ولكنْ؛ دون جدوى. نزل عليّ من على الشجرة في الليلة الثانية، وهو يتضوّر جوعاً.

منذ ذلك الحين، بات الناس ينادونه - من وقتٍ لآخرٍ - بـ "القرد"؛ لقدرته على تسلّق الشجرة. وكان يرضيه هذا اللقب، على أن يتعلّم القراءة.

على أيّ حال، كان عليّ دائماً ما يتظاهر بالقوة في أشياء أخرى، ما عدا الجري. ولأنه كان ذكراً، ويفوقني قوة، كان يهزمني في المصارعة. ولكنه لم يكن أسرع مني في الجري.

عندما كان يرغب في إثارة غضبي، كان ينعتني بالمسترجلة، وأنني بفضل هذا - فقط - كنت أسرع منه. كان يقول إنني صبيٌّ، وُلِدَ داخل جسد أنثى، وإن المخاط يسيل من أنفي تماماً كالذكور، وإنني عندما أكبر، سيكون لي شارب كبير مثل والده ياسين. كنت أدرك هذا جيداً، ولم أكن أحتاج أن يذكّرني بأنني أبدو أنثى مسترجلة، وأن الناس عندما كانوا يرونني أعدو دون حجاب، بسترة أكبر من حجمي الهزيل كغصن الزيتون وسراويل قصيرة، يعتقدون أنني لا أمثّل صفات فتاة القرآن النموذجية.

ولكنْ؛ في المساء بعد العشاء، عندما يسمح لنا الكبار باللعب في الفناء طمعاً بالفوز بكرةٍ صغيرةٍ من السمسم الحلو، أو الأنجيرو بالشوكولاتة، كنت أريهم قوتي. كان الفناء بمثابة مركز الحياة للعوائل كافة؛ إذ كان من الأفضل عدم البقاء طويلاً خارج المنزل أثناء الحرب.

كان والدانا يجهّزان لنا الفناء للسباق، بعد انتهاء أمي داهابو من إعداد طعام العشاء للجميع على *البورجيكو*، مِرْجَل كبير، بحجم بقرة، وانتهائنا من تناول الوجبة: خبز وخضروات، أو أرز وبطاطس، وقليل من اللحم أحياناً.

كان إخوتنا الكبار يقومون بدور المشجّعين، بينما نتخذ أنا وعليّ وضعية

الانطلاق عند نقطة البداية تماماً مثلما يفعل الأبطال؛ حيث ننحني في وضعية القرفصاء، وأيدينا مثبتةً على الأرض. كان لدينا - أيضاً - مساند الأقدام التي صنعها لنا أبي؛ إذ فكّها من الصناديق الخشبية التي كان يحفظ البطيخ داخلها. ثم يقوم سعيد وناصر برسم المسارات من بداية الفناء حتى جدار الطين، حوالي الثلاثين متراً، ورسم المنحنيات، وتحديد مسار العودة إلى نقطة الانطلاق.

وكنت أظفر، بالنصر. فيُكرهني عليّ حتى أقاسمه حلوى السمسم التي لا أحبّ مثلها شيئاً آخر في الحياة. لكنني أستحلفه بألا يناديني، بالمسترجلة. فإذا وافق، أعطيته نصفها.

في تلك الأمسيات الصيفية المنعشة، كنت ألعب *الشنترال* مع أختي هودان. كانت تلك الأيام تتسم بالراحة وهدوء الأعصاب حتى ننسى الحرب. تكمن لعبة *شنترال*، في أن نرسم جرساً على الأرض، ثم نكتب داخله الأرقام من واحد إلى تسعة. فنلقي فيه حصىً صغيرة، وكان الهدف بلوغ قمّة الجرس. وعلى الجانب الآخر، يلعب الأخوة كرير؛ حيث يقومون بإلقاء الحصى بين الأيدي، وهم جالسون على الأرض.

وبين الحين والآخر من هذه الأمسيات، كان ينضم إلينا أحمد، أحد أصدقاء ناصر أخي عليّ الأكبر. وكان أحمد يبلغ من العمر سبع عشرة سنة، في سنّ ناصر وسعيد. كان يبدو لي كبيراً جداً، وبالنسبة لهودان، كان يبدو وسيماً، وصعب المنال. بشرته زيتونية اللون، وعيناه خضراوان. وهو أمرٌ نادرٌ للغاية، في الصومال؛ حيث كانتا يتلألأن أمام ضوء القمر، مما يجعل نظراته أكثر فخراً واعتزازاً.

عندما سألناه ذات مرةٍ عن سبب اختلاف لون عينيه عن الآخرين، أجابنا - وهو يشير إلى ممارسة الجنس مدخلاً إصبعه الوسطى في جمع يده الثانية - بأن جده كان أحد الإيطاليين الذين قضوا أوقاتٍ ممتعةً مع الفتيات السمراوات. انفجر كلّ من ناصر وعليّ ضحكاً. أما أخي سعيد؛

لم يفعل، واكتفى، كالمعتاد، بالنظر إليه، بحدة، وهو يهز برأسه.

لم يكن سعيد يتّفق معه كثيراً، على عكس ناصر الذي كان يعدّه صديقاً حميماً. ربما كان يراه كمنافس على صداقته مع ناصر، أو ربما - ببساطةٍ - لأنه لم يكن يجده ظريفاً. لذا؛ كان ينظر إليه - دائماً - بعين الريبة، وكان يقول إن هنالك شيء ما يثير الشك في هاتين العينين ذاتي اللون الأخضر الفاتح. عليّ - أيضاً - لم يكن يتقرب منه كثيراً. وفي كثيرٍ من الأحيان، كان يحدّق في وجهه؛ ليتفحصه، ولكنْ؛ دون الاقتراب منه. وعندما كنت ألعب أنا وهودان *الشنترال*، كان عليّ يبقى - عادةً - بالقرب من والدينا اللذين يلعبان الورق كل مساءٍ، ويحدّق في وجه أحمد، بحذر شديد.

أحياناً، بعد انتهاء مباريات كرير، أو الكرة مساءً، كان الأمر ينتهي بأحمد وسعيد بالشجار، أحياناً على سبيل المزاح، وأحياناً أخرى يتخذّ الأمر منحى جادّاً. فيضطر أبي وياسين أن يباعدا بينهما. وذات مرةٍ، قام سعيد بتوجيه لكمةٍ قويةٍ، إلى وجهه، أدت إلى نزيف في أنفه، ترك آثاره على سترته البيضاء حتى بدا الضرر بالغاً. وبعد قليلٍ، أجبرهما والدي على أن يتصافحا، وفي مساء اليوم التالي، عادا صديقين، وكأنّ شيئاً لم يكن.

ومن أجمل الأمور التي كانت تميّز ليالي الصيف كانت أغاني هودان. ففي كثيرٍ من الأحيان، كنا نجلس على شكل دائرة، بعد أن تنتهي أمي والأخوات من غسل الأواني، ونظل ساعاتٍ، نستمع إلى صوت هودان المخملي، وهي تؤدي أغانٍ مألوفةً.

كان أبي وياسين يدخّنان بعينين واهنتين موجّهتين صوب السماء، فكنت أتساءل ماذا عسى رجل كبير ووسيم مثل أبي أن يطلب من النجوم. ومن حينٍ لآخر، كانت أمي وإخوتي يتأثرن بكلمات هودان، فكنّ يمسكن بمناديل؛ ليمسحن أعينهنّ وأنوفهنّ؛ أما الإخوة الكبار وأحمد؛ فكانوا يجلسون فوق الرمال، وأرجلهم مضمومة بين أذرعهم، يحدّقون في الأرض.

كان أحمد ينظر إلى الأعلى، فتتلألأ عيناه أمام ضوء القمر، وكأنه يرغب

في تحدّي القمر. عندما كان يقوم بهذا الأمر، كنت أدير رأسي، وأعيد تركيزي في وجه هودان التي كانت تظل جالسةً في المنتصف، مغمضة الجفنين، تنشد أغانٍ، تتحدث عن الحرية والسلام.

-٣-

عشية السباق السنوي، وقبل عودة أبوينا من العمل، قمت أنا وعليّ، بشيءٍ محظورٍ: غامرنا، بنفسينا، وخرجنا، نعدو في الهواء الطلق.

كانت الساعة السادسة مساءً، والشمس تسدل ستارها على الأفق، ورائحة البحر تصل إلى داخل الفناء. حملتها إلينا رياحٌ منعشةٌ، تحمل نكهات المطابخ المجاورة. لم تكن تفصلنا عن السباق سوى ساعات قليلة، وكنا نريد أن نمرّن عضلاتنا. كنا نشعر بالحاجة إلى ذلك، كأننا رياضيون محترفون.

غالباً ما كانت الميليشيات تفرض حظر التجول بدءاً من الساعات التي تسبق يوم الجمعة. لم نسمع في ذلك المساء صوت طلقاتٍ ناريةٍ. ثم إنّ القمر كان بدراً، وهنالك ضوءٌ كافٍ، يقلل من خطورة المجازفة.

لم نكن ننوي الابتعاد كثيراً. خرجنا بِنيّة الجري حول المباني المحيطة بشوارع المدينة كافة؛ لنصل إلى حدود طريق جامارال داوود، وحول مذبح الوطن، والعودة إلى الخلف.

عشرون أو خمس وعشرون دقيقة، في المجمل.

كان عليّ قد طلب مني أن أرتدي الحجاب، لكنني لم أرغب في ذلك. ولم تدرك أمي بأننا نهمّ بالخروج، فكانت منشغلة بطهي الطعام جاثيةً أمام قدر، تفوح منه الأبخرة، ورأسها ملفوف بحجابٍ شفّافٍ، تلبسه في المنزل. وهودان - أيضاً - لم تدرك ذلك؛ إذ كانت في الغرفة مع بقية الأخوات.

حاولنا إصدار أقل قدر ممكن من الضوضاء، وتسلّلنا تحت الستار

الأحمر الذي يغطي فتحةً في الجدار المحيط بالمنزل، ونحن على يقينٍ من أن أحداً لن يلحظ أي شيء.

لم تكن الحرب تخيفنا، بل كانت بمثابة شقيقتنا الكبرى.

في كثيرٍ من الأحيان، كان عليّ - عندما يسمع صوت مدافع الهاون والمدافع الرشاشة يذهب مع صديقيه أمير ونورود، بالقرب من رجال الميليشيات؛ ليشاهد كيف يطلقون النيران. كانوا يختبئون خلف السيارات، أو في إحدى باحات المنازل. كان ضجيج البنادق والمدافع يثيرهم. وعند عودتهم إلى الفناء، كانوا يتحدثون، بسرعةٍ فائقة، وأنا واقفة، في ذهول، أستمع إليهم. فتتداخل أصواتهم؛ إذ أنّ كل واحدٍ منهم يريد أن يروي عليّ تفصيلةً محددةً، يعتقد أنّ الآخر لم ينتبه إليها. كانت عيونهم تلمع، وتبدو شرسة، كفوهات البنادق.

على أي حال، في ذلك المساء، ركضنا لمدة عشرين دقيقة. كان الهواء منعشاً، فلم نعرق، كما في النهار. كان هذا التوقيت المفضّل لدي، فالهدوء يعمّ المكان، واليوم يوشك على نهايته، وفي البعيد أضواء خافتة، ليست كضوء النهار الشديد. فأشعة الشمس تنعكس فوق كل جسيمة من جسيمات الغبار، وهي آخذة في الانخفاض؛ لتبعث على الراحة.

كنا في طريق العودة، الذي لا يبعد كثيراً عن البيت؛ حيث اضطررنا إلى التوقف. ظهرت فجأةً - في نهاية إحدى الأزقة المهجورة - عربة دفع رباعي، وعليها بعض رجال الميليشيات الأصولية.

لم يكونوا من أفراد قبيلة هاويِّة، ولا *أبجال*، ولا *دارود*، كانوا مجاهدين في "جماعة الشباب".

لم يكن للعِرْق أهمية في هذه الحالة. فالرجال مسلّحون، ومدعومون من متطرّفي تنظيم القاعدة الذي يبذل كل ما في وسعه؛ كي يستولي على السلطة، مستغلاً الانقسامات بين القبائل.

ثمة ما يميّز أفراد هذه الجماعة: لحاهم الطويلة، وستراتهم السوداء، على عكس رجال ميليشيا القبائل الذين يرتدون ستراتٍ مموّهةً، لا أحد يدري من أين يحصلون عليها، من سوقٍ معينة، أم أنها من مخلّفات الجيوش الإثيوبية. أما جنود "جماعة الشباب"؛ فكانوا يرتدون بزاتٍ عسكريةً حقيقيةً، جديدةً، تجعلهم يبدون سادة الحرب الأثرياء.

كان هنالك ثمانية رجال على متن السيارة، وفوهات المدافع الرشاشة تبرز من خلف ظهورهم، وكأنها سواري معدنية. وبينما تتقدّم السيارة، ببطءٍ شديدٍ، أدار أحد الأفراد الملتحين رأسه تجاهنا، ورآنا نتجه نحوهم.

نحن بالنسبة لهم لسنا أكثر من صغيرين بريئين ومتعبين. طفلة نصف عارية، تنتمي لقبيلة *أبجال*، وطفل من أبناء قبيلة *دارود*: أنف مسطّح، وبشرة شديدة السواد.

قام الرجل بضرب قبضته على سقف مقصورة الركاب، فتوقفت السيارة. حدث كل شيءٍ، في غضون ثوانٍ قليلة. قفز من السيارة اثنان من رجال الميليشيا، وتوجّها نحونا.

كانا قصيري القامة، وبلا لحية. وعندما اقتربا منا، أدركنا السبب: كانا فتيين، يبلغان من العمر اثني عشرة سنة، وربما إحدى عشر. يحملان بندقيتين أكبر من حجمهما معلقتين فوق أكتافهما. في تلك الأشهر، ترددت الشائعات بأن "جماعة الشباب" قد تبدأ في تجنيد الأطفال، لتدريبهم على الجهاد. وفي المقابل، كانوا سوف يضمنون للآباء حصول أبنائهم على تعلّم اللغة العربية وعلوم القرآن، وتناول ثلاث وجبات يوميّاً، والنوم في سكنٍ لائقٍ، يحتوي على فراش حقيقي، وتتوفر فيه وسائل الراحة كافة التي لم تكن موجودة عند أحد. أغلب الظن - إذن - أنّ هذين الفتيين كانا من المجنّدين الجدد.

كانت نظراتهما توحي بخيبة الأمل، فأدركت أن ملابسي وراء ذلك: سروال قصير وسترة خفيفة. تباً، لم أرتد الحجاب. ثم إن عَلِيّاً كان من أبناء عشيرة

دارود، إحدى أكثر القبائل التي يكرهها الأصوليون؛ حيث كانوا يعدّونها أقل شأناً، فهي قبيلة من *الزنوج* - كما كانوا يطلقون عليها - بينما - نحن *الأبجال* - كنا نتمتّع بلون بشرةٍ فاتحة، يشبه لون العنبر، وملامحنا تقترب من ملامح العرب، و"جماعة الشباب" تتوهّم أنها تتحدّر من أصول عربية.

توقّف الفتيان على بعد عشرين خطوةٍ منا تقريباً.

"ماذا يفعل اثنان مثلكما، في هذا المكان، وفي مثل هذه الساعة؟" سأل أقصرهما قامةً، وأكثرهما بدانةً، يرتدي قميصاً أسود مخطّطاً، وسروالاً ذي لونٍ قاتمٍ به كسرة. هذه الثياب كانت تمثل في مخيلتنا الثياب الأوروبية والأمريكية. كنا قد اعتدنا على أن نرتدي ما نجده من ملابس قديمة. وكان بعض المراهقين يفضّلون لفت الأنظار في ساحة البرلمان، أو في المنتزه، فيرتدون تلك السراويل وتلك السترة التي كانوا يرتدونها خلال سنوات السلام.

"نتدرّب استعداداً لسباق الغد"، أجاب عليّ، وهو ينظر إليه وعلامات الفخر تملأ وجهه، دون خوف. كانت تلك الأسئلة المعتادة. وبالرغم من أنّ هذا الأمر لم يحدث لنا من قبل، فكنا نسمع الكثير من القصص التي تروي مواقف مشابهة، لذا؛ لم تكن تلك الأسئلة مَدعاة للقلق.

انفجر الفتيان في الضحك، وأخذ الفتى الأكثر بدانةً يحكّ مؤخّرته بيده. ثم تقدما إلى الأمام بضعة خطوات، فأضاء المصباح الوحيد الموجود في الشارع وجهيهما. كانت عيونهما دامعةً بها القليل من الحمرة.

"أنتما رياضيان، إذاً..؟"، قال الفتى البدين ساخراً بعد قليل، ومنفجراً في الضحك مجدداً.

"نعم"، أجابه عليّ. "نتدرّب استعداداً للمسابقة السنوية في الجري..".

في هذه اللحظة، صاح الفتى الآخر النحيف ذو ندبة طويلة على جبينه، وعينين شريرتين: "اخرس، يا ابن قبيلة *دارود*! لا ينبغي لواحدٍ مثلك أن يفتح

فمه. أتدري أنه بوسعنا القبض عليك، ولن يستطع أحد أن يقول شيئاً؟ بل - ربما - سيسعد أبوك، إذا أخذناك معنا، على الأقل، سيكون لديك ثياب لائقة، ترتديها". انفجر الفتيان مجدداً في الضحك، كالأطفال، وظل الأكثر بدانةً مستمرّاً في حك مؤخرته.

أخفض عليّ رأسه نحو الأرض، وأخذ ينظر إلى نفسه. كان يرتدي سترةً مليئةً بالثقوب وبقع الطعام، سترة أخيه ناصر، وسروالاً قصيراً فضفاضاً ومثبتاً عند خصره بنطاق رث، وينتعل خُفّاً قديماً مثقوباً، كان والده ياسين قد عثر عليه، في مكانٍ ما منذ سنوات.

راح عليّ يرتجف مثل رِق الطبلة، وكان يشهقفي صمت، بسبب الغضب والخجل. استدرتُ، ورأيتُ دمعةً، دمعةً واحدةً، كانت تسقط من عينه، على خده.

اقترب الفتى النحيف بضع خطوات، كحيوانٍ مفترسٍ، يَشْتَمُّ رائحة فريسته الجريحة. كان يضع عطراً رجاليّاً نفّاذاً، يشبه الكولونيا، ولكنه نفّاذ للغاية حتى انتشر في الهواء.

"أنت مجرد *داروط* صغير قذر"، قال له. "تذكّر ذلك! لستَ سوى *داروط* قذر".

عليّ لم يرد. تملّكني الخوف.

ثم اقترب ذلك الفتى مني، وأمسك بذراعي بقوة. "وربما نأخذ صديقتك معنا. هكذا تتعلم كيف ترتدي مثل الرجال. مَن تظنين نفسك، هه؟ ذكراً؟".

حاولت التملص منه، إلا أنه كان ممسكاً بي، بشدة، كالكماشة. حاول أن يجذبني، لكنني قاومته، وقمتُ بغرس أقدامي في الأرض.

فاندفع عليّ فجأة، وانقض على يده، وعضّها كالقطط السِّنَّوْرِيَّة. ترك الفتى ذراعي، فدفعني عليّ إلى الوراء، وصرخ طالباً مني أن أهرب نحو المنزل.

نظرتُ إليه دون أن أدري ما يجب أن أفعله. لم أرغب في تركه هناك وحده، ولكنني كنت أعرف أننا بحاجة إلى المساعدة.

كان الفتى يلوّح بيده في الهواء، كما لو كان يحاول التخلص من آثار الأسنان فوق يده، بدل أن ينتقم لنفسه. وابتسم الفتى الأطول قامةً ابتسامةً شريرةً. ثم قال: "مهلاً، هذا الولد ماهر".

توقّف الآخر عن حكّ مؤخرته، وهزّ رأسه، ثم أخذ يعبث بإحدى خصلات شعره باليد نفسها. وقال: "تمتلك قدراً من الشجاعة، لا بأس به، يا فتى *دارود*. مَن هو والدك؟".

"ليس من شأنك مَن هو أبي، أيها البدين"، أجابه عليّ.

"حسناً، إذا لم نتمكن من التحدث إلى مَن كان يجب عليه أن يعلّمك حسن الأدب، فنحن مضطرون لأن نأخذك معنا إلى سيارة الجيب..".

اقتربا منه، وحملاه من تحت إبطيه. حاول عليّ التخلص من قبضتهما، ولكنْ؛ هيهات، فكانا أكبر منه سناً.

"يرغب بعض الكبار بأن يعلّموك الآداب الحسنة، يا فتى *دارود*، وسوف تصبح أكثر ذكاء. فليس من الحكمة أن تعضّ مَن يحمل بندقية..".

وبينما كان عليّ يتذمّر، وأنا متسمّرة في مكاني، نزل رجلٌ ثالثٌ من السيارة.

كان يبدو من ظلّه أنه أطول قامةً من الفتيين الآخرين، وربما كان يكبرهما سناً، لكنه كان بلا لحية هو أيضاً. ربما لأنه مازال شاباً، أو لأنه كان متعقّلاً.

دنا، وطلب من الفتيين أن يطلقا سراحه. "اتركاه هناك؛ حيث يقف، واصعدا إلى السيارة. سأتولّى أمره بنفسي".

استدرت أنا وعليّ تجاه ذاك الظل. بدا صوته مألوفاً، بالنسبة لنا.

نظرنا معاً إلى وجهه. كان على بعد خمسة أمتار منا تقريباً. ورغم ضوء

مصباح الشارع الخافت، فإن تلك العينين اللامعتين كانتا عينيه، لا محالة.

إنه أحمد. صديق ناصر، التي كانت هودان تحبّه سرّاً.

تمتم الفَتيان، ثم تركا عليّاً على مضض.

وعندما وصلا إلى السيارة، قال أحمد بصوتٍ خفيضٍ، يبعث على الطمأنينة، محاولاً ألا يسمعه رفاقه: "كونا حذرَيْن، أنتما الاثنان. القيام بمغامرة بمفردكما أمرٌ خطيرٌ".

ثم استدار على عقبيه مشيراً إلى السائق أن يدير محرك السيارة.

وقبل أن يصعد إلى السيارة في قفزةٍ واحدةٍ، حدّق في وجه عليّ، بعينين يملؤهما الشر للحظة بدت أبدية.

تلألأت العينان الخضراوان أمام ضوء القمر. جمّدت تلك النظرة الدماء في عروقي. كانت مزيجاً من التلذّذ والوعيد. لم تحمل أيّ تحدّ، لكنها إشارة ماكرة على أننا فهمنا كل شيء.

رحلو ببطء، كما وصلوا.

كنت أرتجف كأوراق الشجر، أما عليّ؛ فقد انتفض على الفور، وانفجر قائلاً: "اللعنة عليكم، أيها الأصوليون! لم يكن ينقصنا سوى هؤلاء في هذه المدينة، ألم تكن تكفي باقي الجماعات المسلحة الأخرى؟!".

بطبيعة الحال، كانت عمليات التفتيش تحدث في أي وقت، ولكنْ؛ من الأفضل أن تستمع إلى قصص مَن تتعرض لها. اقتربتُ؛ كي أعانقه، وأحاول تهدئته، لكنه دفعني بعيداً عنه.

"أنا بخير، اتركيني، وشأني، هؤلاء المتطرفون الأقذار لم يفعلوا بنا شيئاً"، تمتم عليّ دون أن ينظر إلى وجهي، بل إلى الأرض.

قلتُ: "ثمة شيء غريب يشع من أعينهم..".

أجاب عليّ: "بالطبع، كانوا جميعاً تحت تأثير *القات*".

"ما هو *القات*؟" سألته بعد وهلة.

"إنه ذلك المخدّر المقزّز الذي يعطيه أفرادُ "جماعة الشباب" لرجال الميليشيا".

"يتناولونه، ثم يذهبون لإطلاق النيران؟"

"كلا. يعطونهم القات؛ كي يتوجب عليهم الذهاب لإطلاق النيران. يهدونه لأصغرهم سناً؛ كي يعتاد عليه".

"كانوا يبدون كأنهم تائهون، وكأنهم في قبضة قوة شريرة، تسيطر عليهم"، هكذا حدّثتُ نفسي، متمنيةً أن يزول هذا الشعور، بسرعة.

واصل عليّ حديثه، كما لو أنه كان غارقاً في التفكير: "ذاك الفتى البدين كان لا ينفكّ يحك مؤخرته".

قلتُ متبسمةً: "ربما كان يرتدي ملابس داخلية جديدة، علاوة على ثيابه الجديدة".

"نعم، ربما كان لديه مؤخّرة مقززة، تغطّيها ملابس داخلية جديدة"، أجاب عليّ ضاحكاً، بينما كان يلتفت ناظراً إلى الفراغ، إلى النقطة التي توقفت عندها سيارة الجيب منذ قليل، كأنه أراد التأكد من أنها قد رحلت، بالفعل.

أمسكتُ بيده، ولم يبدِ مقاومة هذه المرة.

عدنا إلى المنزل، على مهل، ونحن نتحدث في أمورٍ تافهةٍ، دون أن نتطرق إلى أحمد مطلقاً.

في الفناء، كانت والدتي لا تزال جالسة على كرسي، وهي منحنية أمام القِدر الذي تنبعث منه الأبخرة الساخنة من *البورجيكو*. ولا تزال تقلّب

الطعام الذي تقوم بطهيه. كانت قد ارتدت الحجاب الأبيض؛ لتغطي شعرها، ذاك الحجاب الذي كانت لا تلبسه إلا إذا عزمت على الطهي. لمع وجهها بفعل البخار المنبعث من القدر الكبير، وأضاءه القمر والنار. كم كانت تبدو ناعمةً للغاية. وبرّاقة كقشرة البطيخ وقت الظهيرة.

ذلك المساء، كنا سنتناول الأرز والخضروات.

- ٤ -

بدأ السباق في صباح اليوم التالي.

كانت نقطة الالتقاء عند مذبح الوطن، في تمام الحادية عشر صباحاً، وأشعة الشمس فوق رأسنا، والجو حار، بشكل لا يوصف.

كان مسار السباق يقع في شوارع المدينة وصولاً إلى استاد كونز حيث علينا أن نعدو حول الملعب حتى نصل إلى شريط خط النهاية.

كنا ثلاثمائة عداء. منذ اثني عشر شهراً، وأنا لا أنتظر أي شيء آخر، أسبوعاً بعد أسبوع، ويوماً بعد يوم، كنتُ قد استرجعتُ في مخيلتي كل متر، وكل منحنى. تخيلت نفسي في كل لحظة من لحظات السباق، عند مدخل الاستاد، وعند خط النهاية.

ومع ذلك، تأثرتُ بلقاء أحمد في مساء اليوم السابق، وحالة عليّ النفسية.

لذا؛ لم أتمكن من تقديم أفضل ما عندي. حاولتُ أن أبقي على حافة المجموعة، وفعلتُ كل شيءٍ كنت قد خططتُ له، ولكن شيئاً ما في داخلي لم يستجب لتوقعاتي. ظلّ ذهني يفكر في بصيص تلك العينين اللامعتين اللتين نظرتا إلى عليّ.

كان قد مرّ عامٌ كاملٌ من التدريب، ولم أتمكن من تقديم أفضل ما لدي. ولم أكن لأسامح نفسي - أبداً - على ذلك. فمسار السباق كان نفسه، وكنا قد عدوْنا فيه ألف مرةٍ. وقد أخليت الشوارع من السيارات القليلة التي كانت تجول فيها كالعادة. وكان هنالك حشد من الناس، على طول طريق جامارال داوود، يبيعون الماء والعصائر المنعشة، أو الموز

والشوكولاتة مقابل بضع شلنات. كان من الصعب التعرف على الطريق بعد أن تم تنظيفه من النفايات.

لو أقيم السباق في أي يومٍ آخرٍ، لتمكنتُ من تحقيق الفوز. أما وقد كان ما كان؛ فقد أحرزتُ المرتبة الثامنة. وجاء عليّ في المرتبة التاسعة والأربعين بعد المائة.

"أنت بارعٌ في العضّ أكثر من الجري"، مازحته بعد انتهاء السباق. كان عليّ قد تعثَّر في بركةٍ من البراز، العائمة من المجاري المفتوحة. حين أدرك أنه متأخر عن البقية، سلك طريقاً جانبيّاً، كانت تتدفق فيه النفايات والبراز ليلاً منذ أن سقطت إحدى القنابل على شبكة المجاري التي بناها الإيطاليون. في ذلك اليوم، كانت البركة تحتل عرض الطريق بالكامل، وبينما كان عليّ يظنّ أن البركة ليست بالعميقة، وجد نفسه يغوص فيها حتى ركبتيه. لكنه أحرز تقدماً كبيراً رغم ذلك.

ذاك المساء احتفلنا في المنزل.

قامت أمي بإعداد أسياخ الكِرشو وأمعاء الخروف المفضلة عندي. كيريشو ميريش، إضافة إلى حلوى السمسم، حلوتي المفضلة، بلا منازع. كنا سعداء، وكان أبي يحكي النكات التي تضحكنا جميعاً.

أما عليّ؛ فلم يرغب في الخروج من غرفته؛ إذ كان يشعر بالخجل، بسبب الرائحة الكريهة التي جلبها معه. أجبره شقيقه ناصر على الاغتسال قبل أن يدخل الغرفة، ثم لم يخرج منها بعدئذ.

وبين الحين والآخر، عندما كان سعيد وناصر يسخران منه، بصوتٍ عالٍ، بسبب تلك الرائحة، كان عليّ يصيح بشيءٍ ما من الداخل غرفته، كأنه ينتحب. فيضاعف الجميع الضحك والسخرية.

"اتركوني، وشأني!"، كان يصيح.

"هيا، اخرج لتناول الطعام، أيها النتن!" استفزّه ناصر مدركاً أنّ هذا يزيد من غضبه.

"كلا، لن أتناول الطعام معك بعد اليوم"، صاح عليّ.

فردّ سعيدٌ عليه، بحدة: "فليهبط على رأسكِ ألف كيلو من قاذورات المجاري"، فانفجر الجميع في الضحك، ولم يرد عليّ بعد ذلك.

كان ثمة ما يزعجه. لقد صدمه وجود أحمد بين صفوف الميليشيات الأصولية.

وكنتُ قد قلتُ له إنّ أخي سعيداً محقّ في ريبته من أحمد، وكان عليّ يردّ بأن أخاه ناصراً صديق أحمد المقرّب، ومن غير الوارد أن يكون شخصاً سيئاً.

ومنذ ذلك اليوم، اكتست عيناه بالحزن على غير العادة. وكم حاولت أن أضحكه، وأُنسيه، ولكنْ؛ عبثاً حتى احترت بما عليّ القيام به تجاهه.

ومنذ ذلك المساء، بدأ يقضي مزيداً من الوقت فوق شجرة الكافور، لعدة أسابيع. وإذا لعبنا كرير، كان يرتبك في حساب الحصى، ويخسر، بعد أن كان يهزم الجميع في الماضي. وعندما كنا نلعب الغميضة كان يختبئ - دائماً - في الأماكن ذاتها، وإذا نبّهه أحد لذلك، لم يكن يكترث. لم يكن الفوز مهماً، بالنسبة له.

كان يبقى فوق شجرة الكافور المعتادة يفكّر في ما يجهله الجميع. لم أعُد قادرة على التعرف إليه.

ذات مساء، قال لي - فجأةً - إنه سيتوقّف عن الجري؛ ليصبح مدرّبي.

"ولماذا عليك أن تصبح مدرّباً لي؟"، سألته، بينما كنت أربط حذائي.

"أنتِ أفضل مني، لا جدوى من استمراري في الجري. أعترف أنّ الموهبة

تنقصني. أما أنتِ؛ موهوبة حقاً"، قالها، وهو يقضم قطعة خبز الذرة الذي أعدّته أمي مساء اليوم السابق.

"ألهذا السبب قرّرتَ أن تصبح مدرّباً لي؟"

"كل رياضي لديه مدرّب، وإذا كنتُ لا أستطيع أن أصبح رياضيّاً، فالأوْلى أن أكون مدرّباً".

"وإن فزتُ، سأكون مَدينةً لك بهذا..؟"، مازحتُه.

"لا"، أجابني عليّ، وقد بدت علامات الصرامة على وجهه "كل ما في الأمر أنكِ تحتاجين لشخصٍ، يقوم بتدريبك. لن تستطيعي تحقيق الفوز، بمفردك".

رفعتُ رأسي، ونظرتُ إليه.

"لا أستطيع تحقيق *ماذا*؟"، سألتُه.

"لا يمكنك أن تصبحي بطلةً".

كنا نبلغ من العمر ثماني سنواتٍ.

لم أجبه كالعادة. ولكنْ؛ منذ ذلك اليوم، وجدت نفسي تحت إشراف مدرّب. لعلّني فقدتُ رفيقاً ألهو معه، بسبب أحمد، لكنني كسبت مدرّباً، أعدّني لاكتشاف نفسي، ولأصير ما كنتُ أحلم به: رياضيةً.

كل هذا بفضل عليّ، دون أن يدرك ذلك.

عانقتُه بقوة، وخرجنا سويّاً؛ لنركض وسط رياح المساء، كأننا في احتفال، لا ينتهي.

-٥-

ذات صباحٍ طبيعي، لا يوحي بما كان سيحدث، وبينما كنتُ نائمة أنا وهودان، خرج أبي كعادته بصحبة ياسين إلى العمل، في حي كسمار وين.

كانت منطقةً نائيةً، إلا أنّ الكثير من الناس يقصدونها؛ لأنها مكان مثالي، للعمل. مئات ومئات من الباعة المتجوّلين، تفوق أعدادهم الزبائن، بطاولات من مختلف المقاييس والألوان، يدعون المارة؛ ليجربوا منتجاتهم. قطن، كتان، سترات، فحم، جينز أمريكي، أحذية، فاكهة، صنادل، خضروات، بخور، توابل، شوكولاتة.. كل بائع يعرض بضاعته التي تخصّص في إنتاجها.

كان ياسين أصغر من أبي بعامين، لكنه كان أطول قامةً منه؛ إذ يبلغ طوله حوالي متراً وتسعين سنتيمتراً. ورغم ذلك، كان يبدو أكثر شيخوخةً؛ حيث كانت لديه تجاعيد كثيرة حول عينيه، وعلى جبينه، كما أن نظراته كانت تشي بالحزن دوماً. وكانت أمي تردّ السبب، إلى أنه عانى كثيراً، من أجل زوجته، الجميلة ياسمين، والدة عليّ، التي وافتها المنية إثر إصابتها بورم سرطاني عندما كنا نبلغ من العمر عامين. كانت صورتها معلقة داخل إطار فوق مجموعة من الأدراج، في غرفتهم، وكلما دخلت إلى تلك الغرفة أدهشني جمال ياسمين. جبين عريض، وعينان واسعتان، وشفتان ممتلئتان، أورثتهما لعلي.

كان أبي وياسين يخرجان، في تمام الخامسة من كل صباح، ويعودان في المساء عند غروب الشمس حوالي الساعة السادسة. كان لديهما طاولتان كبيرتان، يبيع أبي عليها الملابس، وياسين يبيع الخضروات.

"آمل ألا تضطري أبداً للعمل مثلي كثيراً، يا صغيرتي سامية"، هكذا كان يقول لي أبي، قبل النوم، حين كنتُ صغيرة، وقد أنهكه التعب. كنتُ أحب كثيراً أن يكون قريباً مني هناك، فتلك اللحظات أعيشها، بسحر خاص. أهيم في رائحة عطر الحلاقة، وأشعر بالنشوة والأمان. كان لملابسه رائحة مميزة أيضاً، إنها رائحة أبي بعد انتهاء يومٍ من العمل. وكنتُ أستطيع تمييزه وسط ألف رجل من خلال هذه الرائحة.

"قد أستطيع القيام بهذا العمل، مادمت تستطيع أنت أيضاً"، كنت أجيبه.

"إني أعمل لراحتك، يا سامية".

"أبي"، أجيبه بعد أن أفكر قليلاً في رده "لماذا لا تشكو - أبداً - مما تفعل؟ عمر شيخ، صاحب المنزل، يشكو - دائماً - من كل شيءٍ. عندما يأتي إلينا، يظل يندب حظه حتى يغادر".

"الشكوى تزيدنا تعاسة في القيام بما لا نحبّ"، يجيبني، بصوته الأجش، بينما يمرّر يده في كثافة شعره الأسود. لم يكن يقصّه إلا قليلاً، فتمازحه والدتي بأنه يتشبّه بالنساء، وللسبب نفسه، يحلق لحيته. "اللحية هي إحدى سمات الأصوليين"، كان يجيبها. "إذا تعرّضت لأمر، لا يروق لك، فغيّريه حالاً، يا سامية. أنا أحب عملي، أحبه؛ لأنني أقوم به من أجلكم. وهذا يجعلني سعيداً".

توقفت للحظة، أتأمل في كلمات، ثم سألته: "ألا تخشى الحرب، يا أبتي؟".

بدت ملامح وجهه جادة. "لا تقولي إنك خائفة، أبداً، يا صغيرتي سامية، أبداً. وإلا فإنّ ما تخافينه، سيتعاظم حتى يهزمك".

في صباح ذلك اليوم، كان قد خرج بصحبة ياسين كالعادة. وبمجرد أن عبرا طريق جامارال داوود الكبير، الذي يقع بعد البرلمان مباشرةً، توقّفا؛

كي يشربا *الشعت* في مقهى صديقهم تاجيري؛ كي يدردشا لبعض الوقت قبيل العمل، كما يفعلان دوماً. وكان المقهى عبارة عن كوخٍ خشبيٍّ، يقع في إحدى الأزقة الضيقة.

وفجأةً سمعا دوي أعيرة نارية.

ظهر أربعة أو خمسة مسلحين، من قبيلة هاويِّة، الموالية لقبيلتنا *أبجال* على بعد مائة متر، خلف مبنى، يتألف من ستة طوابق. كانوا يبحثون عن أحد أفراد قبيلة *دارود*، ويعتقدون أنه قد سرق شيئاً ما، فكانوا يصيحون بأنه - ربما - فر من هذا الاتجاه.

رأى أحدهم ياسين واقفاً مع أبي أمام الدِّكَّة، فأشار للآخرين، فانطلقوا تجاههما.

لم يعطوا لأنفسهم وقتاً للتفكير.

عندما اقترب المسلحون منهما، أدرك والد عليّ ما كان على وشك الحدوث، فدفعه حدسه، للفرار.

لقد كانت لحظة واحدة. ما إن استدار ياسين حتى فتح أحد المسلّحين النار، وسرعان ما تبعه الآخرون.

وثب أبي وثبةً طويلةً؛ كي يجعله ينبطح أرضاً، ويُبعده عن مرمى النيران التي أحدثت ثقوباً في الجدار، على بعد سنتيمتراتٍ قليلةٍ، وجعلت تاجيري يتسمّر في مكانه حاملين كوبين من شراب الشعث.

توقّف - حينها - وابل الرصاص سريعاً، كما بدأ.

صاح المسلّحون، بشيء ما، ثم اختفوا وراء الركن، بسرعة، كما ظهروا، راضين عما قاموا به.

التفت أبي وياسين، وشعرا بالارتياح، كأنهما قد نجوا من الموت. ولكنْ؛

عندما حاولا النهوض، أدركا الأمر. كان لون تاجيري أبيض كالخِرْقة. وقد أصيب أبي في ساقه اليمنى، وشكّلت الدماء بِركةً صغيرةً. أصابت النيران الصديقة أحد أفراد قبيلة *أبجال* بدل أن تصيب أحد أفراد قبيلة *دارود*.

كانت هودان تؤلّف أغانيها، ثم تقوم بإنشادها. إنها تتمتّع، بصوتٍ رائع كالمخمل. كان من النوع الأجش والخفيض، وفي الوقت نفسه، حادٌّ يصل إلى درجات عالية. عندما كانت تنشد، كان الذهول يعتلي وجهها المستدير والأملس كوجه الدمية الخزفية، كأنها تود الكشف عن شيءٍ ما. كنت أعشقها. كنت أتمنى أن أكون مثلها، وأن أتمتع بجمالها نفسه، وأن يكون لدي صوتها نفسه. كان حجابها يمنحها مظهراً جذاباً، قلّ مثيله. ألوانه زاهية بين الأصفر والأحمر والبرتقالي، يضيء وجهها مثل النار التي تندلع فجأةً وسط غابةٍ كثيفةٍ.

كي تحافظ على إيقاع الغناء، كانت تضمّ كفيها إلى بعضهما، وتصدر صوتاً محدداً بأصابعها، كإحدى قواقع المحيط الهندي التي تفتح، وتغلق، باستمرار، وباتباع مسار ثابت.

كانت تنشد وفقاً للقالب الشعري *بورانبور*، الذي يمتزج مع الموسيقى الحديثة، بأسلوب فرقتها الموسيقية "شمس الدين باند".

كانت تقوم بتأليف أغانيها داخل غرفتها، إما منفردةً، أو عندما نكون نحن أشقاؤها نائمين، بينما يظل *الفيروس* موقداً، في انتظار أن نغفو بعد يوم حافل، بالمرح.

وفي أوقاتٍ معينة، من كل مساء، كانت هودان تجلس، بمفردها، وتُخرِج كرّاستها الصغيرة، ثم تشرع في الكتابة. كانت تكتب في الموضوعات كافة، في الحزينة، كما في السعيدة.

كنت أنظر إليها، عن كثب، وأتفحّص أدقّ إشاراتها. وكنت أنام بجانبها منذ ولادتي، عندما بلغت من العمر خمسة أعوام. كانت أَسِرّتنا مصطفّةً

في الزاوية القائمة بمحاذاة الجانب الأقرب إلى الباب، عند مدخل المنزل. ومنذ أن وُلدتُ، اعتدتُ أن أغفو وصوتها يتردّد في أذني، فيستحيل أكثر رقةً شيئاً فشيئاً، إلى أن يصبح مجرد همسات.

وربما لهذا السبب، كنت أنام جيداً، وكما يقول الجميع لا أخشى مما سيقع في الغد، بل، وأعتقد أنه سيكون أفضل مما سبقه. وهذا بفضل صوت هودان الذي لم يفارقني أثناء نومي منذ أن وُلدتُ.

"أهديتكِ كل ما أملك من تفاؤل"، هكذا كانت تقول لي.

خلافاً لي، كانت هودان مهمومةً دائماً، ثمة شيء ما يجول في بالها. كانت روحها تهدأ عند المساء فقط، حين ينطفئ *الفيروس*. ثم تواصل همسها إليَّ بالأغاني التي تتحدث عن الحرب وأسرتنا والمستقبل وسباقات الجري وعليّ وجرح أبينا وأبنائنا الذين سيولدون يوماً ما.

كنا ننام - دائماً - وأيدينا متشابكة، ورأسها يحنو على رأسي. كنت أشعر أن قبضتها تَضعُف شيئاً فشيئاً؛ لتصبح أكثر طواعيةً. فأدركت أنها كانت ترتخي حين تغني.

كنت أعرف أنني جمهورها الأول، وهذا ما كان يشعرني بالفخر. بل وأحس بأنها تضع أغانيها وفقاً لابتساماتي. فبالرغم من تنوّع موضوعاتها، كانت تتحدث جميعها عن شيءٍ واحدٍ: أهمية الحرية وقوة الأحلام.

مساء اليوم الذي جُرِح فيه أبي، بينما كان في المستشفى يستريح بعد إجراء العملية، كانت هودان قد ألفت أغنيةً، تقارن فيها بينه وبين الجواد المجنح العظيم.

أنشدَتْها في منتصف الغرفة، وهي تجلس على فراش عبدي مربّعة الساقين.

وكانت أمي معنا - أيضاً - جالسة فوق فراش شقيقتنا أوبا، أمامي

بالضبط، وقدماها على الأرض، تضع رأسها بين يديها، وهي تحدّق في هودان. كانت مهمومةً بأفكارها، وعيناها تهيمان هنا وهناك.

أشعلت أوبا البخور، فامتلأت زوايا الغرفة الصغيرة، برائحته القوية والعطرة.

تقول الأغنية إن أبانا سيواصل تحليقه، كما كان يفعل حتى ذلك اليوم، وإنه كان سينقلنا إلى سنّ الرشد أثناء تحليقه. كما تصف الأغنية ذراعيه، بأنهما كبيران مثل جناحي طائرٍ عظيم، وساقيه تشبهان جذوع الأشجار التي تعمر لآلاف السنين.

بخصوص مساء ذلك اليوم، لست أدري لماذا علقت في ذهني ذكرى الدموع التي انتفخت بها عينا سعيدٍ - شقيقنا الأكبر - في صمت، بينما كان ينظر أمامه، بلا اكتراث.

نهضتُ، وذهبتُ على أطراف أصابعي؛ كي أمسح دموعه.

-٦-

كان من الواضح أنّ أبي لن يتمكن من مباشرة العمل بعد أن جُرِحَ. لقد فقد القدرة على استخدام ساقه. منذ ذلك الحين، كان لابدّ أن يتّكئ على عصا؛ كي يتمكّن من المشي.

لن يصبح قادراً - بعد - على جر عربة الملابس. أضحى مستقبله هو المنزل والفناء.

بعد أن أمضيا حياتهما معاً، يوماً بعد يوم، بات ياسين مضطراً؛ لأن ينهض من فراشه بمفرده، ويسير وحيداً لمدة ساعة؛ كي يصل إلى حي كسمار وين.

كانت الأيام الأولى قاسية.

انغلق أبي على نفسه، في صمتٍ كاملٍ وغضب مكبوت. ومن حينٍ لآخر، خلال الساعات المتلاحقة التي كان يقضيها جالساً على كرسي من القشّ في الفناء، كان ينفعل، فيرمي العصا، كالرمح، بكل ما أوتي من قوة؛ لتصطدم بالحائط، ثم تقع على الأرض، بعيداً، إلى أن تأتي أمي، وتعيدها له.

في تلك الأيام العصيبة، كان يظل طول الوقت صامتاً، متأسفاً، دون أن يحرك ساكناً. ومن الصعب التحدث إليه؛ إذ كان ينهرنا جميعاً، حتى أنا طفلته المدلّلة.

بكت أمي عندما فتح فمه، لمرة واحدة: "أصبحتُ كائناً عديم الفائدة، لا يتحرك مثل سيارة دون عجلات".

أصيب ياسين، بالإحباط. حاول - في البداية جاهداً - أن يساعده، حتى إنه عرض عليه أن يصطحبه إلى السوق، بعربته، أو بعربة ياسين. لكنه أدرك أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الوقت، لا نهاية له.

استغرق الأمر ثلاثة أشهر.

مساء يومٍ ما، بعد تناول وجبة العشاء، وبينما كنا نحن الفتيات نلعب *شنترال*، طلب أبي من ياسين الذهاب لإحضار ورق اللعب، كانت لديه رغبة في اللعب.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتحدث فيها إلى أحدٍ منذ أن حدث له ما حدث.

كان ياسين واقفاً كالمعتاد، بالقرب من *البورجيكو*، يثبت الومضات والخشخشة. وعندما سمع كلمات أبي نهض، وذهب لإحضار الورق والمنضدة الصغيرة دون أن ينبس ببنت شفة.

لعبا "ثلاثة أيدي، ومقشّة"، وهي لعبة، كان الإيطاليون قد علّموها لآبائهما، وكان لا يزال هنالك البعض ممّن يعرفونها. وظلا يلعبان دون أن يتفوّها، بكلمةٍ واحدةٍ.

ثم فاز أبي، أو ربما تركه ياسين يتغلب عليه، لا أحد يستطيع أن يجزم في حقيقة ما حدث. قال أبي بصوته الأجش، وهو يقرع المنضدة بقبضة يده: "لنشرب نخب الانتصار! سوء حظك المعتاد. خسرتُ قدمي، لكنني فزت في مباراة مقشّة. فليسقط فوق رأسك ألف لتر من *الشعت* المغلي".

ومنذ ذلك اليوم، بدأت الأمور تعود إلى ما كانت عليه شيئاً فشيئاً.

عاد أبي وياسين صديقين وفيين، وبفضل صداقتهما، عادت الأمور إلى طبيعتها.

مساء يومٍ ما، بعد أن كان أبي قد اعتاد - بالفعل - على الخروج

والظهور في الحي متكّئاً على العصا التي لطالما مقتها، كان ياسين قد دخل غرفة والدينا.

بعد وقتٍ قصير، نادوا علينا جميعاً، كان ياسين يرغب في أن نستمع إليه.

قال بصوتٍ متقطعٍ إنه كان مديناً لأسرتنا بكل حياته، وإنه كان يرغب في الاعتناء بنا، لكنه لم يكن يعرف كيف يفعل ذلك؛ حيث كانت موارده تكفي - بالكاد - احتياجات أبنائه.

ثم أخرج كيساً من إحدى الحقائب، ومرّره إلى أمي.

نظرتُ إلى أبي، فأشار لها، برأسه. فأخذته، وفتحته. كان يحتوي على مبلغ من المال.

قال ياسين: "هذا كل ما لدي من المال، لكنني أرجوك أن تقبله أمام أسرتك عرفاناً مني بصنيعك وإنقاذك لحياتي، يا أخي يوسف".

نظر إليه أبي، في صمت، وبابتسامةٍ خفيفةٍ على شفتيه. "أحضِر أبناءك، لكنْ؛ امسح دموعك أولاً"، أجابه بينما كان يعدل جلسته على الكرسي المصنوع من القشّ.

عندما وصل عليّ وإخوته، قال أبي، بصوتٍ رقيقٍ: "بفضلك، يا صديقي، أعيش - الآن - مدركاً أن هذه الحرب غير عادلة".

أخذ الأبناء الذين وصلوا لتوّهم ينظرون إليّ بعضهم البعض.

كان ناصر جالساً على الأرض، بينما ذهب عليّ؛ ليجلس بين ساقيه، ينظر إلى أبي من أسفل إلى أعلى دون أن يعي جيداً ما كان يجري.

"كيف يمكن لأخوتي أن يقتلوا أحد أفراد قبيلة *أبجال* مثلهم؟"، واصل أبي حديثه، لافتاً انتباه عليّ. "هذا التلف الذي لحق بقدمي هو شهادة على أن هذه الحرب ليست عادلة".

ثم استدعاني وعليّاً إلى منتصف الغرفة.

أمرنا أن نتصافح، ونتعانق.

أصابتنا الدهشة. عليّ، كما هو الحال دائماً، بالنسبة له، لم يكن يرفع نظره بعيداً عن قدميه العاريتين. ثم رضخ لأمر أبي، فرفع ذراعه دون أن ينظر إليّ.

صافحتُه.

ثم واصل أبي حديثه قائلاً: "تعاهدا، أنتِ يا ابنة قبيلة *أبجال*، وأنتَ يا ابن قبيلة *دارود*، على أن تعيشا - دائماً - في سلام، وأنْ لن يكره أيٌّ منكما الآخر أبداً، وأنكما لن تكرها سائر القبائل الأخرى مطلقاً".

تعاهدنا على ذلك، ونحن لا نزال نصافح بعضنا البعض.

ثم سألنا أبي عما إذا كنا نعلم أن الحرب ثمرة الكراهية، وأنها تضع غشاوة أمام أعين الناس، وتجعلهم متعطّشين للدماء فقط.

أجبناه في صوتٍ واحدٍ، بنعم.

وفي نهاية حديثه، سأل: "أتدرون أننا جميعاً أخوة صوماليون، بغضّ النظر عن العِرْق والعشيرة؟ أتسمعينني، يا سامية؟ وأنت، يا عليّ؟" قال بصوتٍ أشبه بالرعد، كما هو الحال عندما كان يغضب. "أتدرون ذلك؟"

"نعم"، أجابه عليّ، بصوتٍ خافتٍ، وهو لا يزال ينظر إلى الأرض.

"نعم"، رددتُ عليه.

ثم طلب أبي من هودان أن تنشد لنا إحدى أغانيها، هناك في غرفة النوم.

كنا كثيرين وقريبين من بعضنا البعض. أربعة عشر شخصاً داخل غرفة صغيرة، فيها فراشان على الأرض، وجدرانها من طين، يتحدثون عن الأمل والسلام، بينما تدور رحى الحرب في الخارج.

هكذا كان أبي.

على أي حال، كانت والدتي قد اتخذت قرارها، ولم يكن هناك الكثير من الحلول البديلة أساساً.

لم تكن ترغب في بيع ملابس الرجال، فكانت تقول إنه عمل لا يناسب المرأة. وهكذا - وبعد إلحاح ياسين - قرّرت أن تتاجر في الفواكه والخضروات.

في البداية، قام ياسين بإعطائها البضاعة التي كانت لديه، وكان يبيعها لها.

ثم بدأت تدريجيّاً، بالاعتماد على نفسها، وأن تشتريها مساءً من عمال الحي، بالثمن نفسه الذي كان يشتريها به ياسين منهم بعد عشرين عاماً من العمل.

وبعد مرور بضعة أسابيع، تتبعت إحدى صديقاتها التي كانت لديها طاولة، تبيع عليها بضاعةً في أحد الأحياء الأخرى التي لا تسمح لأبناء قبيلة دارود البيع فيه، لكنه أكثر ازدحاماً من كسمار وين: عبدة عزيز. وأصبحت بائعة فواكه وخضروات.

عشنا على هذه الحال لأكثر من سنة، نعاني من فقرٍ، لم نعشه من قبل، إلى أن تغيّر كل شيءٍ في حياتي وحياة هودان.

فزتُ بأول سباقٍ لي، أما هودان؛ فقد خُطِبَت إلى حسين، أحد فتيان قبيلة دارود حسَن النسب، وكان أحد العازفين ضمن فرقتها الموسيقية.

-٧-

صادف اليوم الذي أتممتُ فيه ربيعي العاشر اليوم نفسه الذي أقيم فيه السباق الكبير بين أحياء المدينة. كانت الحرب تزداد عنفاً يوماً بعد يوم، والأمور تتعقّد أكثر فأكثر، بما في ذلك تنظيم السباق السنوي، والذي كان أهم شيء عندي. كانت قد مرّ ستة عشر شهراً، على انقضاء السباق الماضي، وليس اثني عشر. في ظل الحرب، كانت السنوات - هي أيضاً - تختلف في طولها، فالعنف يزيد الوقت طولاً.

وأثبت عليّ مهارته في التدريب طوال الفترة السابقة.

كان يعلم متى يجبرني على مواصلة التمارين حتى وإن كنت غير قادرة على ذلك، وفي الوقت نفسه، عرف كيف يسعدني، بما أقوم به.

كنت قد تدرّبت كثيراً خلال تلك الأشهر، وكنت أرغب في الفوز، بأي ثمن.

أفوز من أجل نفسي، أفوز؛ كي أثبت لنفسي، وللجميع أن الحرب بإمكانها أن توقف بعض الأشياء، وليس كلها، أفوز؛ كي أُسعِد أبي وأمي.

من المرجّح أنّ أبي كان قد شعر بأنني متوترة؛ لأنه ناداني في ذاك الصباح، وقربني إليه، وأخبرني أنني سأصبح بطلةً يوماً ما. لم يكن قد قال لي شيئاً مثل هذا من قبل. كان لطيفاً، في بعض الأحيان، إلا أنه لم يكن قد شجّعني إلى هذه الدرجة.

أخرج من جيب سرواله القطني ذي اللون البنيّ عُصابة رأس بيضاء، علامتها نايك، تلك التي توضع فوق الجبهة لمسح العرق. ربما كانت

ضمن إحدى قطع الملابس التي لم يكن قد تمكّن من بيعها، والمُكَدَّسَة ضمن آلاف قطع الملابس الأخرى المتهالكة المتراكمة في الغرفة الكبيرة، بجوار غرفة عليّ وأشقائه.

عانقته بقوة حتى كادت العصا المسنودة إلى ظهر الكرسي المصنوع من القشّ، أن تسقط.

"سامية، إذا فزتِ في سباق اليوم، أعدك أنك ستشاركين في السباق القادم مرتديةً زوجاً من الأحذية الرياضية الجديدة"، هكذا قال لي، واضعاً عصابة الرأس فوق جبهتي، كما لو كانت تاجاً.

لم أكن أصدّق أذنيَّ.

زوج جديد من الأحذية كان شيئاً لم يسبق لي أن تخيلت أنني قد أحصل عليه. كنتُ أعدو بحذاء خاص برياضة التنس، لم يعد يناسب سعيداً، والذي كان ينتعله عبدي فتاح وشفيتشي. كان هذا يعني أنّ الحذاء الأيمن مثقوب في المقدمة، وباطن الحذاء الأيسر مستهلك، لدرجة تجعلك تشعر بأنك تعدو حافي القدمين. كنت أشعر بكل شيءٍ تلمسه قدماي، حصى، بذور، فروع، أغصان، كل شيءٍ. وكان هذا يُفقدني تركيزي، فعليّ أن أتوخّى الحذر لتجنّب عظام الحيوانات، أو علب زيت المحركات الملقاة في الطريق، أو الزحلقة في شقوق الأرض والفتحات التي يبلغ عمقها ثلاثين سنتيمتراً.

"أعدُكَ - يا أبي - أن أبذل قصارى جهدي؛ كي أستحق هذه الهدية"، أجبته، بينما كنت أتحقّق بأصابعي من أن عصابة الرأس الأسفنجية حقيقية.

"إلى أين يصل طموحك، يا سامية؟"، سألني، وهو يشد وجنتَيَّ بإحدى يديه الكبيرتين، محرّكاً وجهي هنا وهناك. كان يمازحني، لكنني أخذت الأمر على محمل الجد، كما كنتُ أفعل - دائماً - عندما يتعلق الأمر، بالجري.

"اليوم أتممت العاشرة من عمري، يا أبي".

"تماماً. إذا تمكّنتِ من تحقيق الفوز.."،

لم أدَعْه يكمل. "عمري عشر سنوات، وسوف ترى أنني سأعدو في دورة الألعاب الأولمبية عندما أبلغ السابعة عشر. هذا ما أصبو إليه".

أخذ يضحك.

"أبي، سأشارك في أولمبياد ٢٠٠٨ عندما أبلغ من العمر سبعة عشر سنة. هذا ما أصبو إليه"، كرّرتُ على مسامعه ذلك الصباح. "سوف ترى". ثم أردفت. "وسوف أفوز أيضاً".

"ولكنْ؛ أخبريني.. أين ستقام أولمبياد ٢٠٠٨، هنا في الصومال؟" تساءل ساخراً.

"كلا. في الصين"، قلتُ له، بينما كنت لا أزال أتحقّق من عصابة الرأس.

"آه، في الصين. وستذهبين إلى الصين، إذاً؟"

"بالطبع، لا أستطيع المشاركة في أولمبياد الصين من مكاني هذا، يا أبي".

عندئذٍ، رمقني بنظرة جادة حين أدرك أنني لم أكن أمزح.

"حسناً، يا سامية، أصدّق ما تقولين"، قال، وهو يداعب شعري. "إذا كنتِ مقتنعةً بهذا الأمر إلى هذا الحد، فسوف تحققينه حتماً".

ثم أخذ يعدّل جلسته على الكرسي، كأنه يريد النظر إليّ، بشكلٍ أفضل. "أنتِ محاربة صغيرة، تركضين من أجل الحرية"، قال لي. "نعم، أنت - بالفعل - محاربة صغيرة". وبينما كان يتحدث، كان يحاول تثبيت عصابة الرأس في الوضعية الصحيحة. تلامست أصابعنا. "إذا كنتِ حقاً تؤمنين بهذا الأمر، فإنك ذات يوم سوف تقودين تحرير النساء الصوماليات من العبودية التي قدرّها عليهنّ الرجال. ستكونين قائدتهن، يا محاربتي الصغيرة".

كانت هذه المرة الأولى التي تخطر في بالي فكرة الأولمبياد، وأتحدث فيها. وأحسست أنّ الأمر بات قابلاً للتحقيق، ما إن تفوّهت به.

يبدو أنني كنت أحتاج إلى وعد أبي بالهدية؛ كي أُفْصِحَ عن شيءٍ كان قابعاً في مكانٍ ما من سريرتي دون أن أعلم بوجوده. لقد تركَتْ كلماته أثراً كبيراً في قلبي.

في ذلك اليوم، قادني عليّ إلى نقطة الانطلاق، في عربة يد صغيرة ذات عجلةٍ واحدةٍ؛ كي لا أستنفد طاقتي. حاولت - بشتّى الطرق - أن أتجنّب ذلك، لكنه أصرّ قائلاً إنه مدرّبي، ولابدّ أن أفعل ما يأمرني به. وهكذا وصلتُ إلى نقطة الانطلاق، على ذلك العرش المتحرّك.

كان عليّ قد أعدّ كل شيءٍ: تركني هناك، وركب دراجة أحد فتيان الحي؛ كي يصل إلى الاستاد مبكراً، وينتظرني عند نقطة الوصول.

كان نفس المضمار المعتاد البالغ طوله سبعة كيلومتراتٍ، والذي كنتُ قد عدوتُ فيه آلاف المرات، وليس مجرد منافسة سرعة لمسافة قصيرة، والتي كنتُ بارعةً فيها. لكنني كنتُ نحيلةً مثل الدبّوس، وأزن أكثر من الريشة، بقليل، على حدّ وصف عليّ. وكنتُ أتمتّع ببعض المزايا التي لم تكن لدى الآخرين.

"سامية، عليكِ أن تتعلّمي الطيران"، كان عليّ يكرّر. "إذا استطعتِ الطيران، هزمتِ الجميع".

كنتُ خفيفة الوزن، وإذا عدوتُ في نفس اتجاه الريح، بلغت سرعتي سرعة الصاروخ دون أدنى معاناة: كانت هذه نظريته.

في البداية، بدت لي مجرد حماقة، ولكنني تأملتُ في الأمر جيداً بعد ذلك. ربما كان محقّاً. يجب أن أصبح أخفّ وزناً، بقدر الإمكان، وأن أركّز الوزن إلى الأعلى، أحاول أن أركض على الجوانب؛ كي لا يضايقني أحد، ثم أفسح المجال للرياح؛ كي تدفعني من الخلف. وبمجرد تجاوزي للمتسابقين كافة، يصبح كل شيءٍ أبسط. فلا أحد بمقدوره أن يسلبني الهواء.

كل المطلوب مني هو أن أقلّل احتكاك قدميَّ بالأرض قدر المستطاع.

باختصار، كان عليّ أن أطير.

في ذلك اليوم، عند إطلاق إشارة البدء، نسيتُ كل شيءٍ. لم يحدث لي هذا الأمر من قبل، ولكنني اعتدتُ عليه منذ ذلك الحين، في كل مرة، أحقّق فيها انتصاراً. استطاع ذهني أن يتخلّص من كل شيءٍ، وأن يركّز في الأمور الإيجابية فقط.

في يوم عيد ميلادي العاشر، أحسستُ أن السباق كان يحرّرني من الأفكار التي تجول برأسي. وهكذا، متراً تلو الآخر، كيلومتراً تلو الآخر، تمكّنت الفتاة النحيلة من تخطّي الجزء الأول من المتسابقين، والجري خلف أسرع أربعة عدائين.

كانت كلمات أبي تلازمني، وكذلك عصابة الرأس الإسفنجية التي لفّها على جبهتي. "يوماً ما، سوف تقودين تحرير النساء الصوماليات من العبودية التي ساقها لهنّ الرجال. ستكونين قائدتهنّ، يا محاربتي الصغيرة".

منذ ذلك اليوم، فصاعداً، وفي كل مرة أعدو فيها، كنتُ أبتلع متراً تلو الآخر، وأنا أتذكّر كلمات أبي المخلِّصَة، كلمات يوسف عمر نور، ابن عمر نور محمد.

تحرير شعبي والنساء المسلمات.

في ذلك اليوم، تمكّنتُ من تحقيق الفوز. وكان أول انتصار لي.

كانت فعاليات السباق تنتهي بقيام العدائين، بجولةٍ أمام مجموعةٍ كبيرةٍ من المتفرّجين.

كان يتمّ استخدام استاد كونز لإقامة جميع الفعاليات الرياضية، وكان الاستاد قديماً، مَزَّقَتْهُ الأعيرة النارية، ومدرجاته منخفضة، ومزوّدة بمجموعةٍ من الدعائم، للحدّ من خطر السقوط، كما كان مضمار السباق الموجود فيه مليئاً، بشظايا القنابل.

منذ اندلاع الحرب، كان يتم استخدام الاستاد الجديد كمستودع للجيش. كان الملعب يضمّ الدبابات ورجال الجيش بدلاً عن الرياضيين، وفي المدرجات ضباط بدلاً عن الجمهور.

عندما أوشكتُ على الوصول إلى الاستاد، من مسافةٍ بعيدةٍ، وقد خارت قواي، أدركتُ إلى أي مدى قد تدهورت حالته، وتداعى، بفعل القنابل.

على بعد خمسمائة متر من هذا المبنى المدمّر، كنت أحتل المرتبة الرابعة. سمعتُ في رأسي صوت عليّ، وهو يحثّني على استغلال الرياح من خلفي، والمضي قدماً نحو تحقيق الفوز.

لستُ أدري من أين تزوّدتُ، بالقوة، لكنني بدأتُ في الطيران. تخطّيتُ المنافسَيْن اللذين كانا يسبقانني، واحداً تلو الآخر.

وعند مدخل الاستاد، كانت قدماي ترتجفان لكثرة الجمهور على المدرجات. كنتُ أشعر بتوتّرهم وتطلّعاتهم، فقد كانوا هناك لرؤية شخص ما يفوز.

كنت أودّ أن أصبح ذاك الشخص.

دخلتُ الاستاد، وأنا في المرتبة الثانية. متراً تلو المتر، فوق المضمار المفروش بقماش صوفي متقاطع الخطوط مليء بالثقوب الصغيرة، أدركتُ أن الأول كان قد أساء توظيف طاقته. كنت أشعر أنه لا يزال لدي قدر احتياطيّ، من الطاقة، بينما كان يعرج، وقد استُنْفِدَتْ قواه، كان يخسر متراً، في كل خطوةٍ.

ثم حدثت المعجزة: بدأ جمهور المدرجات في الصراخ والهتاف لي.

أدركوا أنني كنتُ أسرع، وأرادوا لي الفوز.

كانوا يشجّعونني: *أبايو، أبايو*. أختي أختي.

وكانت كل كلمة تعطيني دفعةً إضافيةً.

بعد المنعطف الأول، بلغتُ المنافسَ، واستطعتُ أن أتخطّاه، في أربع خطوات.

عندئذٍ، وقف الجمهور على أقدامه، مذهولين، ومتحمّسين. كان الجميع يصفّق للصغيرة *أبايو*.

كان تصفيقهم على إيقاع منتظم، حفزني، بدرجة أكبر.

كانت ساقيَّ تتقدمان كأمواجٍ، تدفعها طاقة عجيبة، تدفعني كما يفعل الجرّار مع المقطورة.

كنتُ أول مَن عبرَ خطّ النهاية.

بدا لي الأمر غير معقولٍ.

ركضتُ الأمتار الأخيرة بعد الوصول، وذراعاي مرفوعَتان، يدفعني جري كل تلك الكيلومترات.

ثم جثوتُ على ساقيَّ، وشعرتُ، بدفءٍ غريبٍ، على وجنتيَّ: دمعتان، دون إرادتي، تسريان على وجه المحاربة الصغيرة.

مسحتهما على الفور قبل أن أنهض، وأنا منهكة، للغاية، ولكنني مفعمةً، بالطاقة. كان باستطاعتي أن أستدير، وأعدو المضمار، من الاتجاه المعاكس.

أثنى الحشود على أدائي، وكانوا يصيحون، ببهجة وسعادة.

وبينما كانوا هكذا، أدركتُ ما كان يجول في خاطرهم: من المستحيل أن تكون قد فازت بالسباق، إنها ما تزال طفلة.

كان الأمر مستحيلاً، بالنسبة لي أيضاً. لكنهم قلّدوني الميدالية على عنقي بعد دقائق. كأنّ القلادة كانت تخبرني بأنني أعيش الواقع.

انتظرتُ مع عليّ في غرفة تبديل الملابس، إلى أن غادرت الحشود الاستاد. كان يريد التحدث إلى الكثير من الناس الذين ظلّوا يسألونه عني.

كان يقدّم نفسه على أنه مدرّبي، فيضحك الجميع؛ لأنه كان يبلغ من العمر عشرة أعوام. كانت قامته طويلة، بالنسبة لعمره. ورغم أنه هزيل كأي طفل، فإن تصرّفاته توحي بأنه رجل،، من زمان فائت.

سلكنا المضمار مجدداً؛ كي نعود إلى المنزل.

وصف عليّ شعوره عندما رآني أدخل باب الاستاد، وفي أثناء الحشود عندما أتممتُ السباق. كان يرتجف.

وبين الحين والآخر، كنا نقابل شخصاً ما، يتفحّصني، كالعادة، من قمة رأسي إلى أخمص قدميَّ، ويهز رأسه عندما يراني أرتدي ملابس الذكور، أو يتمتم ببعض الكلمات قبل أن ينصرف.

وفي منتصف الطريق، أوقفنا رجل عجوز، ذو لحيةٍ طويلةٍ، وعظام وجهه ناتئة.

بعد أن نظر إليَّ بخيبة الأمل، أخذ يردّد العبارات نفسها. "أين الحجاب و*الديريك*، ها أيتها الطفلة؟ هل نسيت أن ترتدي ثيابك اليوم؟".

"إنها رياضية، يا سيدي"، أجاب عليّ نيابة عني. "وقد فازت لتوّها بالسباق. تستحقّ الاحترام الذي يناله كبار الرياضيين".

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها أنني رياضية.

نظر إلينا العجوز حائراً، دون أن يدري ماذا يقول. "ومَن أنت، إن كانت هي رياضية؟" سأله.

"أنا مدرّبها، والمتحدّث باسمها. يوماً ما، عندما تصبح هذه الرياضية معروفةً في العالم، بأسره، سوف تتذكّر حديثنا هذا، يا سيدي".

عندئذٍ نظرنا إلى بعضنا البعض، ثم انفجرنا في الضحك.

تمتم الرجل، بشيء، ثم ابتعد، وهو يهزّ رأسه.

كنتُ قد أصبحتُ رياضيةً للمرة الثانية، منذ أن كان عليّ قد قرّر أن يصبح مدرّباً لي.

اقترب المساء، وهبّت ريح مفاجئة. وعندما تهب الرياح في مقديشو، فكل ما عليك فعله هو أمران: إبقاء فمك مغلقاً، لمنع الغبار من أن يجفّف حلقك لبقية حياتك، والعثور - في أسرع وقتٍ ممكنٍ - على ملاذٍ؛ كي لا يغطّيك الغبار، من قمّة رأسك لأخمص قدميك.

قمنا بملء رئاتنا، بالهواء، ثم أخذنا نركض متجهين إلى المنزل.

لم أكن متعبة، كنت قادرة على العدو، لعشر ساعات أخرى متتالية.

وفجأةً، عند التقاطع مع الطريق الرئيسة، سقطت فوق رأسي نسخة من جريدة "بانادير" كنيزك غاضب. صدمتني - بقوةٍ - على كتفي، ثم سقطتْ على الأرض، وهي مفتوحة على صورةٍ كبيرةٍ، لوجه رجل مألوف.

أثارني الفضول، فجثوتُ على قدمي؛؛ كي أمسك بالجريدة قبل أن تستأنف رحلتها.

لقد كان وجه محمد فرح، العدَّاء الذي كان قد غادر مقديشو عندما كان في سني تقريباً بحثاً عن ملاذٍ في إنجلترا؛؛ حيث قاده مدرّبٌ متميزٌ إلى الفوز بالعديد من السباقات الهامة.

لطالما كان أحد أبطالي المفضّلين، ومرجعاً، أسترشد به. بعد أن ولد مثلي في الصومال، استطاع أن يعدو، ويحقّق انتصاراتٍ، في جميع أنحاء العالم.

غالباً ما كانت تصل إلينا أنباء انتصاراته وموهبته. كل مرة، كنت أستمع فيها إلى الراديو في مقهى تاجيري، أو إلى شخصٍ ما يتحدث عن محمد فرح، كان ينتابني شعورٌ غريبٌ في معدتي. مزيج من الغضب؛ لأنه كان قد فر من الصومال، والإعجاب الذي ليس له حدود، يجعلني أحلم أن أصبح مثله.

كان العنوان على الجريدة يؤكد أنه أصبح بطلاً، وأن الصومال قد دفعته للفرار منها.

كان عليّ قد سبقني بكثير. اقتلعت الصفحة من الجريدة، وطويتها، ثم لحقتُ به في طريق عودتنا إلى المنزل.

وبينما كنت أركض، فكرت أنها إشارة ما أن ينظر إليّ وجه محمد وسط الرياح.

تركت نفسي، خفيفةً، تحملني الرياح، وأنا أمسك في إحدى يديَّ الميدالية، وفي اليد الأخرى الورقة المطوية.

عندما وصلنا إلى المنزل، أخبر عليّ الجميع بانتصاري، قبل أن يقوم بجولة لإظهار الكأس.

تأثرت أمي، فاستهزأت بها هودان وحمدي، وراحا يقلّدانها، كيف تمسح دموعها بالمنديل، ثم تمخَّطا، بقوة.

كان هنالك ناصر وأحمد - أيضاً - قرب الجدار، يلعبان الكرير على الأرض. أحمد، لم أره منذ وقتٍ طويلٍ، لم يعد يأتي كثيراً إلى الفناء.

لم يرفع أحمد نظره عن الحصى عندما دخل عليّ ممسكاً في يده الميدالية. نظر ناصر إلى أخيه، ثم عاد إلى التحدث مع صديقه.

بقي متحجّراً في مكانه. كانت نظرات أحمد وناصر قاسيةً وعدائيةً، على حدّ سواء.

راقب ياسين المشهد برمته من على المنضدة الصغيرة التي كان يلعب عليها الورق مع أبي. "استمع إلى ما يقوله لك أخوك، يا ناصر"، صاح فيه أبوه.

لم يُبْد ناصر وأحمد أية إشارة تدلّ على وجودهما. بل استمرَّا في

إشاراتهما البطيئة الميكانيكية، كما لو أن العالم من حولهما، لم يكن موجوداً، كما لو كنا جميعاً مجرد ظلال، بالنسبة إليهما.

"ناصر! قلت لك أن تستمع إلى ما يقوله لك عليّ!" صرخ ياسين بصوتٍ أعلى، بينما كان ينهض من على الكرسي، وقد بدت عليه علامات التهديد.

رفع ناصر رأسه، ببطء، ثم قال وكأنه يتغنّى بأنشودةٍ هادئةٍ: "رأيتُ، يا أبي، رأيتُ. اطمئن. إنها ميدالية سامية التي فازت بها اليوم. رأيتُ. أنا آسف، لكن الأمر لا يهمّني كثيراً.. لا تغضب لمثل هذه الأشياء التافهة، عُد إلى اللعب".

حدّق ياسين فيه، بغضب، ثم بيأس. تمتم بشيءٍ عن أحمد، بصوتٍ خفيضٍ، ثم حرّك يده بإشارةٍ لإرساله إلى الجحيم، وعاد إلى مقعده.

سمعتُ من مكاني أنه كان يُسِرُّ إلى أبي حديثاً: "لم أعُد قادراً على فعل شيء، بدون ياسمين".

"لا تكن سخيفاً"، أجابه أبي، "عليك أن تمنع ناصراً من رؤية صديقه ذاك".

ثم نادى أبي عليّاً الذي كان واقفاً وسط الفناء.

ودون أن يتفوّه بكلمة، اقترب عليّ خافضاً رأسه، وهو لا يزال يمسك بالميدالية، في يده. كان يبدو صغيراً، للغاية. كأي طفل صغير حقاً.

حاول أبي ووالده أن يخبراه بشيءٍ، يرسم على وجهه البسمة، ولكنْ؛ عبثاً. فَقَدَ عليّ في لحظةٍ روح الدعابة التي كانت لديه. كان يكفي أن يرى أحمداً؛ كي يكتئب.

ثم صفّق أبي بيديه، فقام الجميع بإلقاء نشيد وطني، بمناسبة الفوز الذي حققْتُه.

ومنذ ذلك اليوم، لم يأت أحمد إلى منزلنا قطّ.

بعد العشاء، أَعَدُّوا لي احتفالاً كبيراً.

حسين، خطيب هودان، كان يجلس طوال الوقت، بالقرب منها، ومن أمي، جلب معه حلوى السمسم التي أعدّتها أمه، لهذه المناسبة، احتفالاً بفوزي، أو مواساة لي، في حال خسرت.

كان حسين وهودان يتحدثان عن الزواج، وكانت العائلتان قد تقابلتا، بالفعل، وصرّحت عائلته بأنهم سوف يتقدمون لطلب يد هودان.

لم يفكر أبي في الأمر كثيراً. إذنْ: إن حسيناً، البالغ من العمر عشرين عاماً، كان يعشق هودان، التي تصغره، بخمسة أعوام. كما أَحَبَّ والدها، حماه في المستقبل. وأسرته أغنى من أسرتنا. بل كان مسروراً لذلك.

كان القران سيُعقَد قريباً.

عندما علمتُ ذلك، شعرتُ بالغيرة. لم أرغب أن يسلبني أحدٌ أختي المدلّلة. لكنني حاولتُ تفهّم الأمر، وكنتُ أرى هودان مسرورةً، فسُررت لأجلها.

كان حسين شخصاً لطيفاً مهذباً وأنيقاً. أحبّني منذ اللحظة الأولى، وكان يناديني - دائماً - "البطلة".

ذلك المساء، كان الجميع مسرورين لأجلي، ولكن أبي كان الأكثر سعادةً. أخذني جانباً، وقبّل رأسي، وهمس في أذني: "أحسنتِ صنعاً، يا طفلتي الصغيرة. كنتُ قد قلتُ لك هذا".

ثم نهض، متّكئاً على العصا التي تلازمه أينما ذهب، وذهب إلى غرفته، وهو يعرج. عندما عاد، كان يمسك في يده علبة بلاستيكيّة سوداء كبيرة، تحتوي على زوج من الأحذية الرياضية البيضاء. لم أكن قد رأيتُ أحذيةً جديدةً مثلها قط.

كان سيُغشَى عليّ من الفرح.

ارتديتُها، ثم أخذتُ أقفز في كل مكانٍ، كالحمقاء. ورحتُ أبحث عن عليّ، ولم أجده.

هزّ ياسين رأسه، وأشار إلى غرفتهم.

عاد يُغلق على نفسه، بسبب وجود أحمد. لكنه لم يختر شجرة الكافور هذه المرة على الأقل.

اقتربتُ بهدوءٍ، ودخلت إلى حجرته؛ كي أريه الحذاء.

كان عليّ ممدداً على بطنه فوق الفراش، يخبئ وجهه بين ذراعيه. حاولت الحديث معه، لكنه لم يجبني. سألته إن كان يودّ ارتدائه، فلم يردّ أيضاً، كما لو لم يكن يسمعني على الإطلاق.

لم يعر أي اهتمام لحذاء رياضي جديد، من شأنه أن يغيّر حياتي. كان كل ذلك، بسبب أحمد.

أردت أن يدفع ثمن تجاهله. ولكنني كنت رياضية، وقد حقّقتُ انتصاراً وعليّ أن أحتفل، وحسب.

وبعد ساعتين من القفز والغناء، رغبت في الذهاب إلى الفراش، والتحدث إلى هودان عن صفحة الجريدة التي كنت قد خبّأتُها تحت الوسادة.

فأنا قد عدت إلى المنزل أحمل ميداليةً ورهاناً: يوماً ما سأتمكّن من الفوز بالأولمبياد، وستصبح هودان مغنيةً مشهورةً، وستكتب أنشودة؛ لتحرّر شعبنا، شرط أن نقوم بذلك، في الصومال، على عكس محمد فرح. كنتُ سأتمكّن من تحقيق الفوز مرتديةً سترةً زرقاء، وعليها نجمة بيضاء. والأمر

ذاته، بالنسبة لهودان. كنا سنقود تحرير النساء، ثم تحرير بلدنا من الحرب.

كنت على يقينٍ من ذلك منذ أن شعرت بتلك الطاقة تفيض مني لتغيّر العالم.

ذلك المساء، في الفراش، تحدثتُ عن هذه الأمور.

شدّت هودان على يدي مؤيدةً كلامي.

لم نكن ننوي أن نترك مقديشو أبداً. لم نكن لنهرب. وددنا لو أصبحنا رمزاً للتحرير.

قبل أن أخلد إلى النوم، وضعتُ الميدالية تحت الفراش، وأمسكت بصفحة الجريدة التي كان عليها وجه محمد فرح. بلّلتُ أركان الصفحة الأربعة بقليل من اللعاب، ثم ألصقتها على الجدار الطيني، على بعد بضعة سنتيمتراتٍ، من رأسي.

وبينما كنتُ أنظر إلى عينيه، في صمتٍ، عاهدتُه أن أصبح بطلةً مثله، شرط أن يذكّرني بذلك كل مساءٍ.

-٨-

تزوجت هودان بعد بضعة أشهرٍ، وبعد أسابيع قليلةٍ من عيد ميلادها السادس عشر.

كان احتفال العرس لا يُنسى. أقيم في صالةٍ رائعةٍ مزينةٍ بأناقةٍ، حجزتها عائلة حسين، كما كانت تقتضي التقاليد. ساعات وساعات من الأكل والحديث والرقص مع نصف سكان حَيِّنَا الذي كان يعيش فيه حسين أيضاً.

كانت هودان ترتدي فستان أمي الأبيض الخاص، وكانت تبدو جميلة رائعةً. لم أكن قد رأيتها أكثر صفاء كهذا من قبل.

في تلك الليلة، لم أستطع النوم، ولو للحظةٍ واحدةٍ. كنت أمسك بيدها طوال الوقت، وعندما خلدَتْ أخيراً إلى النوم، ظللتُ أفكر أنها الليلة الأخيرة التي ننام فيها جنباً إلى جنب. في الصباح، استيقظتُ بعينين منتفختين من البكاء، وسوداوين من قلة النوم.

ومع ذلك، سررت كثيراً في الاحتفالات التي دامت سبعة أيامٍ رائعةً.

كنا نحن الفتيات، وأمي، بألوان متنوعة بفضل الحجاب *والديريك والجرباسار* كألوان قوس قزح. ألوان تلك الأحجبة المتعددة ساحرة. لم أكن أفضل - أبداً - تغطية الشعر والجسد. لكنْ؛ في ذلك اليوم، وللمرة الأولى، شعرتُ بالفخر لارتداء الملابس التقليدية. في صباح ذلك اليوم، كنتُ لا أرغب في الخروج من شدة الخجل؛ حيث كان الجميع ينتظر أن يراني، كما لم يسبق من قبل.

لم أكن أرغب في الخروج. لم يكن لدينا مرايا في الغرفة، ولكنْ؛ دون حتى أن أنظر إلى نفسي، كنتُ أشعر بعدم الارتياح.

كنت أجلس على حافة الفراش، مزينةً بالكامل، إلى أن دخلت أمي.

وما إن رأتني حتى اتسعت شفتاها في ابتسامةٍ عريضةٍ. "تبدين جميلةً، يا ابنتي. هيا، انهضي".

"أشعر أنني مضحكةً، يا أمي. لا أريد أن يراني أحدٌ هكذا"، قلت في هدوءٍ، بينما كنت أنهض.

خرجت دون أن تتلفّظ بكلمةٍ واحدةٍ، ثم عادت تحمل حجاباً أبيض، ومرآة كبيرة، استعارتها من إحدى جاراتنا. غطّت كتفيَّ بهذا الحجاب الأبيض، ثم ضمّت شعري بضفيرة، وثبتتها أسفل رقبتي، على شكل كعكة. وأمسكت بقلم الرصاص، وكحّلت حواف عينيّ، ووضعت أحمر الشفاه على فمي. ظللتُ طوال الوقت، لا أتحرك، متحجّرةً في مكاني.

ابتعدت أمي بضع خطواتٍ، ثم أخذت تكرّر: "تبدين جميلةً، يا ابنتي. لو لم يكن عرس أختك، لقلت إنك أكثر جمالاً من العروس".

ثم أمسكتْ بالمرآة التي كانت قد أسندتها إلى الحائط، وطلبت مني أن أنظر إلى نفسي.

فوجئتُ بما رأيتُ. لم أجد الطفلة داخل تلك المرآة، بل فتاة، بملامح رقيقةٍ ومتناسقةٍ وجميلة.

كنت أنا، وكنتُ أبدو جميلةً. لم أكن أعتقد - أبداً - أنني من الممكن أن أكون بهذا الجمال.

وبمجرد أن خرجت على استحياءٍ من الباب، وجهتْ إليَّ هودان نظرةً مليئةً بالإعجاب. "تبدين رائعةً، يا أختي الصغيرة"، قالت، وهي متأثرةً، بينما أسرعتْ أمي لتجفيف دموعها التي كانت ستفسِد الماكياج.

"أنتِ مَن تبدو في غاية الجمال، يا عزيزتي هودان، أيتها العروس الشابة"، أجبتها، مستخدمةً الكلمات التي عادةً ما تُقال يوم الزفاف. "لا تنسينا".

أطلقنا العنان لأنفسنا لساعات، رقص أبي مع بناته، متّكئاً على رفيقته العصا. ثم رقص مع أمي، وهما متعانقَان، بطريقةٍ، لم يرها أحدٌ، من قبل، فقد كانا يبدوان، وكأنهما خطيبان. كانت أمي تبدو مشرقةً، في حجابها الأبيض، وكأنها عادت في يومٍ واحدٍ فقط إلى شبابها منذ عشرين سنةٍ، كما لو أنها كانت إحدى شقيقاتنا.

ظللنا على هذا المنوال بين الغناء والرقص حتى ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، على إيقاع موسيقى نيكو في عزفٍ حيٍّ من قبل فرقة شمس الدين الموسيقية. لكن أكثر أجزاء العُرس تأثيراً كان عندما قامت هودان بالغناء. فاجأتنا بتأليف أغنيةٍ لكل الأشخاص القريبين إلى قلبها. واحدة من أجل أمي، مفعمةً بالعذوبة والامتنان؛ وأخرى من أجل أبي، مليئةً بالوعود والآمال؛ وأخرى من أجل حسين، تتحدث عن الحب؛ وأخرى من أجلي، أختها المحاربة الصغيرة. وبينما كنا جالسين حول المنضدة، أخرجنا المناديل، وأخذنا نبكي كالأطفال، إلى أن توقفت عن الغناء. كانت هذه الأغاني بمثابة ضربة قاضية لنا، فوددنا أن نجعلها تدفع ثمن ذلك غالياً.

كان الجميع في انتظار أطرف لحظة في حفل الزفاف: لحظة المزاح مع حسين. كانت هذه اللحظة بمثابة تقليد، من شأنه أن يظهر إلى عائلة العروس أن الزوج سيكون قادراً على مواجهة أي ظروف طارئة.

كان الأعنف على الإطلاق أحد أعمامه، رجلٌ طريف للغاية، قصير القامة، وأصلع الرأس، ذو شاربٍ رقيقٍ وطويلٍ.

كان يجب على حسين المسكين أن يحضر للعروس سلةً مليئةً بالفواكه الطازجة، في أقل من خمس دقائقٍ.

خارج الصالة، كان يوجد حقل مزروع، بالبطيخ. عاد ببطيخةٍ واحدةٍ

كبيرةٍ، وزنها ثقيلاً، لدرجة أنه لم يستطع أن يحمله بذراعيه، مما أزال الابتسامة من على شفتيه، ولم يعد قادراً على الصمود واقفاً على قدميه.

ثم طُلِبَ منه أن يقطع رأس إحدى الدجاجات. فخرجنا إلى الحديقة الصغيرة، لنرى كيف سيتمكن حسين من التحلي بالشجاعة، وفعل شيء، لم يجرؤ على القيام به قط. أوضح له أقاربه أن الدجاجة يجب أن تكون عجوزاً، للغاية؛ كي يكون موتها راحة لها. خلع حسين سترته، وقام بتشمير أكمام قميصه المُنَشَّى، بينما كانت الدجاجة المسكينة تحرك جناحيها في اضطرابٍ شديدٍ هنا وهناك. أبقيتُ عينيَّ مغمضتَيْنْ طوال الوقت، وصرخات الرعب التي كانت تصدرها الدجاجة تحبس أنفاسي. فتحت عينيّ عندما سمعتُ التصفيق النهائي.

وفي الاختبار النهائي، توجّب على حسين إثبات قوته بأن يحمل هودان على ذراعيه إلى المنضدة التي كان أبي وأمي يجلسان حولها، وأبناء عمومته يعرقلونه. كانت هودان تضحك، وتضحك، كانت في قمة الاستمتاع، دون أن تأخذها شفقة، بعريسها.

تم كل شيءٍ، بشكلٍ مثالي، وكنا في غاية السعادة.

كلما اقتربت نهاية احتفالات العرس، شعرت بحزنٍ، يخيم على الأجواء.

بدءاً من اليوم التالي، لن تكون معي أختي الحبيبة؛ إذ ستذهب للعيش، في بيت عائلة حسين. لن تُنَوِّمَنِي بعد، بل ستُنَوِّم حسيناً. لن تضمّ يديَّ إليها بعد، لن تصطحبني إلى أحلامٍ سعيدةٍ مليئةٍ بالأمل والحرية.

كانت ستفعل كل هذا معه.

ظللتُ أنا وهودان نلتقي للذهاب إلى المدرسة كل يوم. كنا نلتقي في منتصف الطريق بين منزلها ومنزلنا، اللذين لم يبعدا أكثر من نصف كيلومتر عن بعضهما البعض، فكنا نسير باقي الطريق سويّاً.

كانت تحكي لي ما ترغب الزوجة في قوله وفعله، وكيف أنها - وهي تبلغ من العمر ست عشرة سنة - كانت تعيش في منزل أناسٍ، يحبونها، إلا أنها تشعر بالغربة بينهم. كانت تقول لي إنها مضطرة لأن تصبح كبيرةً رغماً عنها. كنت أعتقد أنني لن أرغب في الزواج، وأقنع نفسي كل يوم أنّ الشيء الوحيد الذي أتمناه فعلاً هو أن أتزوج من مضمار خالٍ من الحفر، وحذاء رياضي مزوّد بمسامير في النعل.

كل صباح، عندما كنا نلتقي، كانت هودان تضمّني إليها، تقبّل رأسي، وتقول لي إنها تفتقدني. اعترفت لها أنها منذ أن تركتني، رأيتُ - أحياناً - أحلاماً مزعجةً. ثم كانت تسألني عن أخبار الجميع، لرغبتها في البقاء مطلعةً على كافة التفاصيل، حتى وإن كانت هي وحسين يأتيان لتناول العشاء عندنا مرةً واحدةً، في الأسبوع، على الأقل.

كانت تريد معرفة كل شيءٍ، كما لو كنا نبعد عن بعضنا البعض سنين ضوئية. كانت عيناها تضيئان، في توهّجٍ، ينمّ عن نفاد الصبر والاشتياق، إلى أن كنت أقصّ عليها كل تفصيلةٍ دقيقةٍ لحياتنا الجديدة كَرَبَّةِ منزلٍ.

لم تكن مدرستنا كبيرة، كما أنها لم تكن جميلةً. كانت جدرانها مقشّرةً، ومقاعدها باليةً، لكنها مدرسةً، وكنت أشعر فيها بالارتياح. كانت تروق لي الدروس التي نتلقّاها، خاصةً الدروس الرياضية التي كنت أبرعُ فيها أكثر من أي أحدٍ آخر، وكذلك الحال بالنسبة لدروس الحساب. لكنني كنتُ أفضّل نظريات الهندسة. وكم من الرائع التعرف إلى قوانين الأرض الخفية، وأبعاد الفناء المستطيلة. أو، على سبيل المثال، داخل الدائرة التي كان يتركها *البورجيكو* على الأرض بعد الانتهاء من إعداد الطعام. كان يبدو لي الأمر سحراً، ويثير فيّ شعوراً، باليقين. إذاً؛ كانت هناك قواعد، تفسّر هذه الأمور، فإن الكون لا ينبغي أن يكون سيئاً لهذا الحد. يوماً ما، ربما نتوصل إلى اكتشاف القوانين التي كانت تدفع البشر إلى الحروب، فنمحوها إلى لأبد. سيكون هذا أجمل يوم في تاريخ البشرية، على الإطلاق.

وفي أثناء الاستراحة، كنت أتناول أنا وهودان الأرز وبعض الخضروات التي توفرت لدينا، بشكل مستمر، في الآونة الأخيرة، بفضل عمل والدتي. ومنذ أن ذهبت هودان للعيش في بيتٍ أغنى من بيتنا، كانت تجلب لنا بعض اللحوم، من وقت لآخر. كان حسين يعمل كهربائيّاً مثل والده. وفي بلدٍ، يعيش حالة حربٍ، تتلف فيه الأشياء دوماً، ولا يتوقف الكهربائي عن العمل أبداً.

كنت أتناول الطعام، في خمس دقائق، ثم أقضي بقية الوقت في اللعب. الغميضة، على سبيل المثال. لم تكن هنالك أماكن كثيرة، لذا؛ علينا التحلي بالذكاء. في بعض الأحيان، كنت أجلس مع مجموعة من الفتيات، يتناولن الطعام، أو يتحدثن في الباحة، آملةً ألا يلحظ أحد وجودي. أو كنت أتخفّى خلف جذع إحدى أشجار السنط، أو وراء صندوق القمامة الكبير، أو وراء المعلّمات اللائي كنّ يضحكن عندما نختبئ أسفل *الجارباشار* الخاص بهنّ. وعلى أي حال، حتى عندما يكتشفن مكاني، كنت - دائماً - الأسرع في الوصول إلى الجدار، في نهاية الباحة.

في فترة ما بعد الظهر، كنت أعود أنا وهودان إلى المنزل بعد أن أمضينا يوماً مفيداً. كان أبي يقول لنا - دائماً - هذا الأمر: "تناولوا الحساء، وهو ساخن!". أحد الأمثال الشعبية الإيطالية التي كان يعرفها. "حاولوا أن تستمتعوا، بالمدرسة، وتذكروا أنها تمثل ميزةً كبيرةً لكم، وأن الهدف منها ليس مُضايقتكم. افعلوا ذلك، مادام يتوفر المال، ففي وقت الحرب، يعيش المرء يوماً، بيوم".

وعندما نفترق عند زاوية طريق جامارالد داوود، كنا نبكي كل يوم، رغم أننا نلتقي في صباح اليوم التالي. لم نكن نرغب في الافتراق، لذا؛ نحاول - دائماً - اختلاق آلاف الأعذار؛ كي نبقى سويّاً.

وكنت - من حينٍ لآخر - أذهب لرؤيتها، وهي تغنّي مع فرقة شمس الدين الموسيقية. كانت تتألف من قرابة العشرة موسيقيين، يلتقون ثلاث

مراتٍ بعد الظهر أسبوعيّاً، في صالة كبيرة للعروض الموسيقية، أو في ما بقي منها، في منطقة الميناء القديم، بالقرب من البحر. كنا نسلك طريقاً، تمتد بين البيوت؛ كي نصل إلى البحر الذي يلوح في الأفق.

وكنا نحاول - قدر المستطاع - ألا ننظر إلى ذلك الاتجاه. إلا أنه في بعض الأيام كان الأمر يبدو مؤلماً للغاية، تلك الأيام التي كانت تشتد فيها حرارة الشمس، وتكون السماء زرقاء، وتهب الرياح المنعشة، من الخارج. كان الأمر مؤلماً لهودان، بصفةٍ خاصةٍ، فمنذ صغرها كانت تسبح، وتلعب على الرمال، فكانت تتذكر كم كان جميلاً هذا الأمر.

في تلك الأيام، إذ كنا سعداء، وهانئي البال، كانت إحدانا تقول للأخرى: "فلننظر إليه؟".

دائماً ما كانت الأخرى تجيب، بنعم. عندئذٍ نختبئ داخل إحدى الحفر المنتشرة بين تلك المنازل، حتى لا يدركنا أحد رجال الميليشيات، ونبقى هناك، نتأمل البحر لمدة ساعة. لم تكن تخطر ببالنا مجرد المغامرة، بالذهاب إلى الشاطئ، كما كنت أفعل،، وأنا صغيرة مع عليّ.

كنا نبقى هناك دون أن نتفوه بكلمةٍ، مرتدين الجارباسار ونحن جالستين فوق الأرض ناصعة البياض، في مكانٍ ضيقٍ بين منزلين، نتأمل الأفق. لم نكن نطلب أكثر من ذلك، أن نبقى معاً هكذا إلى الأبد.

كان الذهاب لرؤية هودان، وهي تغنّي أمراً جميلاً. خلف المنصة؛ حيث كان يعزف أعضاء الفرقة الموسيقية، كان معلّقاً مَثَلٌ شعبيٌّ صوماليٌّ معروفٌ، تردّده هودان على مسامعي دائماً: *دورباب جارابكاجا ها كوجو جيرو أما جاكالجاجا ها* كو رومر، ويعني "افسح المجال للموسيقى؛ كي تصل، فوجود الموسيقى كافٍ". هذا شعارها، وسرّ حياتها.

كانت هودان تجلس على كرسيٍّ، في الوسط، وتحافظ على الإيقاع بيديها المنثنيتين، وكانت - بين الحين والآخر - تقوم *بالساكاب*، وهو عبارة

عن صفقة أكثر قوة، تبيّن مواضع الفواصل لباقي عناصر الفرقة. كان يجلس خلفها عازف *الشاريرو*، وهو نوعٌ من أنواع القيثارة، وعازف الكابان، وهو العود، ثم البقية، بالطبول و*الشامبال*، قطعتين خشبيتين صغيرتين، في وسطهما ثقب، وعلى الجانب، كان يجلس عازف *الجوبيز*، وهو نوع غريب من أنواع القيثارة. كان يوجد - أيضاً - عازف الكور، وهو الجرس الذي يوضع على عنق الجمال، وهذا الشيء كان يضحكني، في البداية؛ لأنه يبدو أداة سهلة، لدرجة أن الجِمال بإمكانها العزف عليها، لم تكن هناك حاجةٌ، إلى إنسانٍ، للقيام بهذا.

عندما كانت هودان تغني، كانت تستحيل شخصاً آخراً.

كان وجهها يسترخي. ومع سماع أولى الألحان، كانت تترك نفسها للموسيقى، تحملها، بصوتها، فتغمض عينيها، وتبتسم تعبيراً عن النشوة.

عندما كنت أخبرها بذلك أثناء العودة إلى المنزل، يصيبها الحياء. "يبدو أنك تشعرين بالنشوة عندما تغنّين. كأنك تمارسين العلاقة الحميمة"، هكذا كنت أقول لها عمداً؛ كي أجعلها تحمرّ خجلاً.

"أيّ علاقة حميمة، أنت لا تدرين عما تتحدثين"، كانت تجيبني، وهي تدير وجهها إلى الجانب الآخر، لأنها تعلم أنها كانت تحمرّ خجلاً.

"بالتأكيد، أعلم ذلك. عليّ يحكي لي كل شيءٍ، يتعلق بالعلاقة الحميمة! يقول صديقه نورود بأنه مارسها ذات يوم، وأن النساء عندما يدخلن في مرحلة النشوة، تظهر على وجوههنّ تعبيراتٌ غريبةٌ، كما لو أنهن يبتهلن إلى اللهَ، ثم يجيبهن اللهُ فجأةً".

"حسناً، أبلغي عليّاً أن صديقه لا يعرف شيئاً، على الإطلاق".

"هي نفس تعبيرات الوجه التي تقومين بها أثناء الغناء!".

"عندما أغنّي لا تظهر أي تعبيرات على وجهي!" تغضب هودان، وتقول

إنها ستغني وظهرها للجمهور منذئذ، أو وهي ترتدي كيساً من الورق فوق رأسها.

كانت الاستعدادات تستغرق ساعتين، أو ثلاثاً، فأُصاب، بالملل. عندئذٍ كنت أجلس في آخر الصالة، وأقوم ببعض التمرينات؛ حيث إن عليّاً - في تلك الفترة - كان يركّز على تقوية عضلات ساقيَّ التي تبدو مشدودة جداً، بسبب نحافتي.

منذ أن انتقلت هودان إلى منزل الزوجية، كان عليّ يأتي كل مساءٍ تقريباً؛ كي يلعب معي فوق الفراش الشاغر.

غالباً ما كان يغلبه النعاس، ثم يستيقظ فجأةً، ويعبر الفناء، ويذهب؛ ليستكمل نومه في الغرفة مع والده وإخوته.

في البداية، كان يواسيني لغياب هودان.

بمجرد الانتهاء من تناول الطعام، بدلاً من البقاء للعب في الفناء، كما نفعل دائماً، كنا نذهب إلى الغرفة، وعلى ضوء القمر، *والفيروس* منطفئ، كنا نتحدث، إلى أن يصل إخوتي. كنا نتحدث بصفةٍ خاصةٍ عن المستقبل، كما كنا نقضي فترات ما بعد الظهر فوق شجرة الكافور عندما كنا صغاراً. وحينها بدا لي أننا نكبر، أدركت ذلك من يَدَيّ عليّ الضخمتين. كان عليّ يراني بطلةً، يهتفون لها في جميع أنحاء العالم، ويقول إنّ يوماً ما سيكون في كل ركنٍ من أركان الأرض أناسٌ، يقطعون أميالاً لمقابلتي، والتقاط الصور التذكارية معي، ومصافحتي. كنت أضحك؛ إذ لم أستطع أن أتخيل شيئاً مما كان يقول. فأجيبه بأنني سأشعر بالذنب، إذا ما حدث ذلك، فلا معنى من أن يقطعوا مسافات لمجرد مقابلتي. ثم كان يمسك بيدي، بأصابعه الطويلة والكبيرة، ويشدّ عليها مكرّراً: "أتتخيّلين كل هؤلاء الناس الذين سيرغبون أن يمسكوا بيدك، إن استطاعوا، كما أفعل الآن؟".

لكنه كان سيغادر الصومال. كان يقول لي إنه سيفعل مثلما فعل محمد فرح، ما إن يكبر سنه، فـ "الرحلة"، كما كانوا يسمّونها، من الخطورة، بمكان،

ليس بوسع الأطفال خوضها. كان سيبلغ قمة أوروبا، ولن يكتفي بالوصول إلى إيطاليا أو اليونان.

كان سوف يتجه مباشرةً إلى إنجلترا مثل محمد فرح.

وبينما كان يتحدث، كان ينظر إلى الصورة المعلقة على الحائط مذهولاً. أحد أصدقاء أخيه الذي خاض مغامرة "الرحلة" كان قد أخبره أن في بلدان شمال أوروبا يعطونك منزلاً وراتباً، إذا كنت لاجئ حربٍ. ولكنْ: بالنسبة لعليٍّ، كانت إنجلترا تمثل أرض الفرص، وأن الجو هناك ليس شديد البرودة، كما في فنلندا والسويد؛ حيث يمكن أن تتجمّد حتى الموت، إذا أردت التسوّق.

كنا نتحدث - دائماً - في الأمور نفسها، فالحديث عن مستقبلينا كان يبعث السكينة في نفسينا، ويُشعرنا بالارتياح. ليس لأننا نسمع دوي قذائف الهاون، من حينٍ لآخر، بل إنه الحديث - بحدّ ذاته - ما يطمئن النفس.

كان عليّ يحب القصّ، وأنا أحبّ الإصغاء إليه. كنت أحبّ الطريقة التي تتطوّر فيها القصة منذ أن يلفظ أولى حروفها، كما كنت أعشق الأسلوب الذي يوائم من خلاله بين القصة والأشياء التي تروق لكلينا. من المطمئن والممتع معرفة كيف كانت الأمور ستسير. صوته ليس كصوت هودان العذب، ولكنه يبعث الراحة. خلال تلك الأسابيع، خلال تلك الشهور، كنت أنا وعليّ قد أفصح كلٌّ منا للآخر عن الأشياء المشتركة بيننا، دون خوف، أو طمع: تبادلنا الأحلام.

ثم كانت تأتي اللحظة التي نتشاجر فيها، وذلك عندما كان يقول إنني يوماً ما، عندما أصبح بطلةً، سأرغب في مغادرة بلدي. كان يمكنه أن يقول أيَّ شيءٍ سوى هذا. كنت أعلم أن يوماً ما كان سوف يتغيّر كل شيءٍ، وكنت على يقينٍ من أنني سوف أكون مهمةً في هذا التغيير. لكن عليّاً كان يقول إنني في نهاية المطاف كنت سوف أرضخ للأمر الواقع، وأرحل أنا - أيضاً - إلى إنجلترا. ومثل محمد فرح، كنت سوف أعدو مرتديةً قميص بلد الملكة، وقد أفوز في الأولمبياد، بهذا القميص.

كان يقول ذلك؛ كي يجعلني أغضب، وكان ينجح في هذا الأمر تماماً. وعندما يقول إنني كنت سوف أتزوج من محمد، وإننا سوف نصبح أشهر زوجين رياضيين في العالم، كنت أحاول أن أبقى هادئةً، لكنني لم أكن أفلح في ذلك. فأصفعه على وجهه، فيضحك، ثم يردّ لي الصفعة. ثم يدفعني بظهره فوق الفراش، ويمسك بذراعيَّ، ويجلس فوقي منفرج الساقين، مقيّداً معصميَّ تحت ركبتيَّ، ويدغدغني إلى أن أتوسل إليه الرحمة، بعد أن تتساقط دموعي، وأنا أطلب منه الكفّ عما يفعل.

"أكفُّ شرط أن تقسمي بأنك يوماً ما ستغادرين الصومال، وتتزوجين من محمد"، هكذا كان يقول لي، بينما يستمرّ في دغدغتي.

"كلا!"، كنت أصرخ.

"لن أتوقف، إذاً!".

فأستسلم، وأرضخ لما يطلبه مني. "حسناً، حسناً، سأغادر البلاد..".

"ستغادرين البلاد، و..؟".

"سأغادر البلاد و.. وسوف أتزوج من محمد فرح!".

"أرأيتِ أنني كنت محقاً!".

ثم ننفجر في الضحك، ونتصالح. وفي بعض الأحيان، كان صراخنا يجذب أحد كبار السنّ، فيقحم نفسه بيننا. يرانا نلهو، فيقول شيئاً، لا نتمكن من سماعه، ثم يعود من حيث أتى.

في بعض الأحيان، ونحن مُمَدَّدَان بجوار بعضنا البعض، كان عليّ يشرع في الغناء. كنت قد أخبرته كيف كان يطربني صوت هودان، وهي تغني، فيسخر مني متعمداً النشاز، ويصبح صوته كصوت الإناث حتى يستفزّني، ونعاود الشجار والدغدغة.

عندما كنا نجلس سوياً، كان عليّ يعود إلى ما كان عليه في السابق.

تختفي الكآبة التي كانت تحجب نظراته، باستمرار عندما يجالسني فقط.

كنتُ قلقةً بشأنه.

حاولتُ كثيراً أن أجعله يفصح لي عما كان يجيش في صدره. حاولت الحديث عن أحمد، الذي لم يأتي إلى منزلنا منذ مساء اليوم الذي فزت فيه بالسباق السنوي. أشرتُ إلى لقائنا به مساء ذلك اليوم منذ وقتٍ طويلٍ، عندما قام بحمايتنا من الفتيين الأصوليين. لكن علياً لم يكن يجيبني على الإطلاق.

كان مجرد الحديث في هذا الأمر يُغضبه أكثر من المعتاد. هكذا كان ينتصر، ولا نفتح عن الموضوع مجدداً.

ظللنا لا نتحدث عن هذا الأمر لسنتين كاملتين.

-١٠-

ظل عليّ مدرّباً لي لمدة عامين. كان قد ذهب إلى المكتبة القديمة، وأحضر كافة المراجع الرياضية التي وجدها. كان يجبرني على قراءتها عليه لشهورٍ، بعد ظهر كل يوم، في الفناء. بهذه الطريقة، كنا ننجح في القيام بما كنا قد فشلنا فيه في السابق: بفضل ولعه بالعدو والتدريب، تعلم عليّ القراءة.

كان يقول - دائماً - إن القلب هو المحرّك، والأنفاس هي الوقود، والعضلات هي المكابس، ولذا؛ ينبغي أن تكون قويةً ومرنةً ونشطةً.

في الفناء، أثناء فترة ما بعد الظهر، أو في وقتٍ متأخرٍ من الليل، عندما يذهب الجميع إلى غرفهم، كان يطلب مني القيام بالعدو المتتابع، والانطلاق للعدو لمسافة ثلاثين متراً، من جانبٍ لآخر، بكامل طاقتي. كذلك جري المائة متر المتتابع. كنت أنطلق من الجدار الخلفي، فأندفع بكامل طاقتي إلى أن ألمس الجدار الأمامي. ثم أستدير، وأقوم بالشيء نفسه، في الاتجاه المعاكس. وهكذا مراراً وتكراراً، إلى أن أنهار على الأرض، وقد خارت قواي.

"يكفي هذا، أرجوك"، كنت أتوسّل إليه، منهكةً، غارقةً في العرق.

"سامية، هل تذكرين القاعدة الأولى؟ لا تشتكِ، وافعلي كل ما أقول"، كان يجيبني، وهو جالسٌ في الظل على الكرسي المصنوع من القشّ الذي يجلس عليه أبي وقت المساء. كنت أكرهه.

"لا، قلت يكفي هذا، أنا منهكة"، أحاول أن أستعطفه، وأنا أبقي بنفسي على الأرض، وأتظاهر بالإغماء.

عندها كان يجبرني على النهوض والركض لعشرة مراتٍ أخرى. وفي النهاية، يطلب مني الهرولة حول الفناء لتهدئة الجسم.

صنع عليّ الأثقال لتقوية عضلات ذراعيَّ، باستخدام العلب المعدنية، أو الأواني البلاستيكية التي كان يجدها في الطريق، أو في سوق بكارة، ثم يملؤها بالرمال. كان يحبّ الذهاب إلى السوق كثيراً؛ لأنه يفضل البقاء في أماكن، تكتظ بآلاف الأشخاص الذين يتحدثون في وقتٍ واحدٍ، ويتحركون إلى الأمام، وإلى الخلف، فيصدم بعضهم البعض كالنمل المنهمك في عمله. بالنسبة لي، لم يكن يعجبني هذا الأمر البتة. ليس - فقط - بسبب الزحام، الذي كنت أكرهه، ورائحة الإبط الكريهة التي تزداد تركيزاً تحت المظلات البلاستيكية الزرقاء المعلّقة فوق طاولات الباعة المتجولين لحمايتهم من أشعة الشمس الحارقة، ولكنْ؛ أيضاً، لأن سوق بكارة كان يخيفني. لم يكن أكبر الأسواق، فحسب، ولكنْ؛ أكثر أماكن المدينة تعرضاً للهجمات الإرهابية. كل هذه الحشود تروق لسفّاحي القبائل ومتطرّفي "جماعة الشباب".

لم أرغب - أبداً - في الذهاب إلى هناك، بينما كان عليّ - الذي لا يخشى شيئاً - يختلق آلاف الأعذار، للعودة إلى هناك.

هكذا كان عليّ قد ابتدع طريقةً جديدة، يصنع لي بها الأثقال.

كانت هنالك علب الكوكاكولا المعدنية سعة ثلاثة وثلاثين سنتي لتراً، والزجاجات الصغيرة سعة نصف لتراً، والزجاجات سعة اللتر ونصف، والزجاجات سعة اللترين. جميعها ممتلئةً برمال الشاطئ.

أما فيما يتعلق بساقيَّ، صنع عليّ حاملاً صغيراً للأثقال، باستخدام أربع قطعٍ خشبيةٍ، كان يُعَلِّقُ عليه الأثقال المختلفة، بما يتناسب مع التدريب الذي كان يتعيّن عليّ القيام به. كان يُجلسني على كرسي، ثم يضع حامل الأثقال فوق إحدى فخذيَّ، طالباً مني أن أرفعها. أو يجعلني واقفةً على قدمي، ثم يثبته عند عقبي، طالباً مني أن أرفعه إلى فخذيَّ.

كانت الأوزان ثقيلةً، للغاية. ولا تتحمل ساقيَّ الصغيرتان الرقيقتان كل هذا الجهد. كنا نستمر في ذلك، إلى أن أطلب منه الرحمة، فيتركني أذهب بعد أن تأخذه الشفقة بي.

مجرد التفكير في أننا تمكّنّا مِن فعل كل ذلك في سن الثالثة عشرة، يبدو أمراً، لا يُصدَّق. ومع ذلك، فهذا ما قمنا به.

وبالرغم من قربنا من بعضنا البعض، فقد خنته في إحدى أسوأ أيام حياتي.

فعلتُ ذلك، بدافع الخوف، ولكنني - في نهاية المطاف - خنته.

في ذلك اليوم، لم يكن لدى عليّ وقتٌ، يمضيه معي، فقد كان مضطراً للذهاب لمساعدة والده في العمل. بعد الظهر، لم يكن أخوه ناصر موجوداً، الذي كان غالباً يذهب مع أبيه ياسين.

تسللتُ خلسةً إلى الخارج، وقمت بجولةٍ صغيرةٍ حول المدينة. وأثناء عودتي إلى المنزل، وبينما كنت في أحد الأزقة الضيقة التي تضمّ ثلاثة منازل مهجورة، إذا بي ألحظ - في منتصف الزقاق بالتحديد - فتى يسند ظهره تجاه الحائط، ونظره مصوّب إلى الأرض. كان يرتدي نظارةً غامقة، وقميصاً أسود، يلبسه المتطرّفون، لكنه لم يكن مسلحاً. لا رشاش، ولا بندقية.

حاولت أن أتظاهر بعدم رؤيتي له.

ولكنْ؛ عندما مررتُ أمامه، ناداني بصوتٍ رقيقٍ، يبعث على الطمأنينة. ربما كنت متعبةً من الركض، ولكنْ؛ هكذا بدا لي ذاك الصوت.

"سامية".

استدرتُ، ونظرتُ إليه. لم أكن أعرفه.

كيف كان يعرف اسمي؟ استدرتُ مجدداً، وهممتُ، بالانصراف.

"سامية، توقفي! لا تقلقي، أنا صديق".

لم يكن من الممكن الوثوق بأي أحد، هكذا علمنا أبي يوم ولادتنا. حاولت أن أمضي قُدُماً في طريقي، لكن الفتى استمر في الحديث.

"توقفي، أريد أن أطلب منك شيئاً فقط".

كان طويل القامة، هزيلاً، عريض المنكبين، ذي بشرةٍ داكنةٍ، كتلة من الشعر الأسود المتداخل، لحية طويلة، تغطّي وجهه، كأي أصولي.

همّ بالمشي نحوي.

"أين صديقك؟"، سألني بلهجةٍ آمرةٍ وحادةٍ.

"أي صديق؟" سألته، محاولةً أن أحافظ على صوتي ثابتاً.

"ذاك الذي يبقى معك دائماً، ليلاً ونهاراً".

شعرتُ، بالخوف. كان قد اختار ذلك المكان وتلك الساعة؛ لأنه كان يعلم أنه من الصعب أن يمر أحد. من يعمل كان في عمله، وذاك الزقاق كان كالفلاة.

"ليس لدي أصدقاء، أبقى - دائماً - مع أختي"، أجبته بعد تردّدٍ طفيفٍ.

"لا تستهزئي بي، أعلم جيداً أن عليّاً هو صديقك. أعلم كل شيءٍ. أريد فقط أن أعرف أين هو"، قال بصوتٍ أجش، بينما كان يحرك ظهره بعيداً عن الجدار، مقترباً مني.

"لا أعرف..".

"أنت رياضية، صحيحٌ، يا سامية؟ تحبين الركض، أليس كذلك؟"، باتت نبرته مهدِّدة، وقد أصبح على بعد خطواتٍ قليلةٍ مني. عن قرب، بدا لي أطول قامةً، مما قد بدا عليه في البداية، ومنكبيه أكثر عُرضةً وقوةً. وكانت أشعة الشمس تنعكس على العدسات الداكنة مُكوِّنةً نقطتين صغيرتين لامعتين.

"نعم، أنا رياضية"، أجبته، بصوت يرتجف.

أدخل الفتى يده اليمنى خلف ظهره، أسفل الحزام، فإذا به يُخرِج سكيناً، يبلغ طوله شِبْراً.

أخذتُ خطوةً إلى الوراء، إلى أن أصبح عقبيَّ في مواجهة الجدار خلف ظهري. تطلعتُ حولي، ولكنْ؛ لم يكن هناك أحد، وكانت بوابات البيوت خاويةً.

بسط الفتى ذراعه، مُسَدِّداً نصل السكين إلى أعلى ساقي اليسرى، ثم اقترب مني أكثر. كان أكبر مني، بما لا أطيق أن أقاوم.

تحجّرتُ في مكاني. حتى وإن كنتُ أرغب في ذلك، لم تكن أطرافي تستجيب لأوامري.

"والرياضي يحتاج لكلتا ساقيه؛ كي يركض، أليس كذلك؟".

كنت أرتجف، لم أكن أعرف ماذا أقول، شعرتُ بالرعب. "نعم، كلتيهما.."، أجبته.

"حسناً، إذا كنت لا ترغبين في فقد إحداهما، قولي لي أين عليّ. لا داعي للقلق، لن أؤذيه. أريد - فقط - التحدث إليه قليلاً. أن أعرف مكانه، وأتحدث إليه قليلاً".

"لكني لا أعرف أين عليّ".

"لكني أعتقد أنك تعرفين". أخذ خطوةً أخرى إلى الأمام، حتى بات في مواجهتي تماماً. "والآن؟" بات نصل السكين ملامساً لجلدي، كنت أشعر بلهيب حدّته فوق ركبتي.

"لا أعرف أين عليّ..".

ضغط النصل قليلاً، فخدش السكين جلدي، وسرعان ما نزف الدم،

وسال فوق ركبتي كخط طوله ما يقرب خمسة عشر سنتيمتراً. وبذراعه الآخر، كان يضغط على أسفل رقبتي، وكان ممسكاً بي، وهو يدفعني في مواجهة الجدار، ووجهه على بعد سنتيمتراتٍ قليلةٍ من وجهي. كنت أشم رائحة الكولونيا التي يضعها، وكنت أرى وجهي المشوَّه منعكساً في عدسات نظارته.

"لا تعرفين..". كان مستمراً في الضغط. "لكنْ؛ أتدرين ماذا يفعل السكين عندما يغرس بعمقٍ داخل الجسد؟ في البداية يقوم بتمزيق الأوتار، ثم العضلات، وأخيراً العظام".

ثم أبعد السكين عني، ودون أن يترك السكين، رفع بنفس اليد نظارته إلى رأسه.

تعرفتُ عليه. عينان متسعتان وحمراوان، قريبتان من عينيَّ بشدة. خضراوان كالزمرد. كانت قد مرت ثلاث سنوات منذ أن رأيته في المرة الأخيرة، وها هو ذا قد أصبح رجلاً، يبلغ من العمر قرابة العشرين عاماً.

أحمد. هو من جديدٍ، كان القدر يقوم بِحِيَلٍ غايةً في القبح. مثل تلك الليلة قبل سنواتٍ عديدةٍ عندما باغتني أنا وعليّاً، والآن يخرج إليَّ من العدم، مهدداً بأن يقطع إحدى ساقيَّ.

الظل الذي بقي طوال كل تلك السنوات بيني وبين عليّ، سالباً ابتسامة أفضل صديقٍ لي، يقف الآن أمامي بشحمه ولحمه.

ثم أخفض الشفرة مرةً أخرى، وأخذ يحكّها فوق ساقي. كنت أشعر بألمٍ شديدٍ، وكان يتملّكني الخوف.

حاولت بشتّى الطرق أن أتماسك، لكنني انفجرتُ في البكاء. فجأةً، كالنافورة.

لم أكن أريد أن أخسر إحدى ساقيَّ، كنتُ لا أرغب ذلك من كل قلبي.

كنتُ سأعجز عن العدو طيلة حياتي، وكانت هذه بمثابة نهاية أحلامي، نهاية تحريري، نهاية كل شيءٍ.

"كل ما عليكِ فعله هو أن تخبريني أين عليّ..".

"أحمد.."، قلت له.

"هيا، يا سامية، تشجّعي..". كان مستمراً في الضغط على الشفرة، وكتم أنفاسي بخنق رقبتي بذراعه الآخر. بدأتُ في السعال، لكن حنجرتي كانت مضغوطةً. بدأتُ أطرد البلغم من أنفي. كنت أختنق، وكانت ساقي تحرقني كالنار.

"هيا، يمكنك فعل ذلك.. إلا إذا كنتِ تريدين أن تودّعي ركبتك". غرس بقوة، فدخل النصل إلى اللحم قليلاً. كاد يغشى عليّ من الألم، كنت أشعر كما لو كان قد ألقى بجمرةٍ من نار داخل معدتي. كنت أرغب - فقط - في أن ينتهي كل شيءٍ. "هيا، سامية..".

كنت أنظر إليه بعينين جاحظتين، دون أن أتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ.

"أتدرين، يا سامية، أنك أصبحت فتاةً جميلةً حقاً؟" همس، بصوتٍ شيطانيٍّ، بينما انسلّت إحدى ركبتيه بين ساقيَّ.

في جزءٍ من الثانية، تخيّلتُ ما كان يجول برأسه. فاستسلمتُ.

"في السوق.."، خرجتْ الإجابة من فمي دون إرادتي.

أظهر أحمد أسنانه في ابتسامةٍ مخيفةٍ. "في السوق أين؟ في بكارة؟ أي سوق؟".

".. في السوق مع ياسين.. والده.. في سوق كسمار وين..".

" أحسنت، يا سامية. أحسنت. كنت أذكر أنك فتاةً نبيهةً. نبيهةً وجميلةً".

وفجأةً رفع يده عني، فسقطتُ على الأرض مثل زكيبة الفاصوليا.

وكأن شيئاً لم يحدث، ابتعد أحمد في غمضة عينٍ، دون أن يضيف كلمةً واحدةً.

نهضتُ، وأنا لا أزال في حالة ذهولٍ، وركضت إلى المنزل مباشرةً.

دون أن أخبر أحداً بشيء، قمت بشطف الجرح، وانتظرت جالسةً على الأرض أمام جدار غرفة عليّ، داعيةً أن يصل في أقرب وقتٍ ممكن إلى الفناء، برفقة أبيه ياسين. تمنيتُ أن يجري كل شيءٍ كالمعتاد، وأن ما حدث لي لم يكن سوى من نسج خيالي.

ولكنْ؛ لم يكن الأمر ذلك. كان كل شيءٍ حقيقيّاً.

هزّني ما فعلتُ بحق عليّ.

لم أستطع التركيز في كلمات والدتي، وهي تخبرني بأمر ما. كنت أرتعد من فكرة أنني خنتُ أفضل صديقٍ عندي. شَعُرْتُ كم كنتُ قبيحةً، ونكرةً. انتابني شعورٌ بأنه كان بإمكاني أن أخون - أيضاً - أمي، هودان، وأبي؛ بإمكاني أن أخون الجميع، حتى نفسي.

قرابة الساعة السادسة، ظهر عليّ ووالده أخيراً. وزال ذلك العبء الذي كاد يقتلني، وتبخر في الهواء. وعلى الفور، أخذت أبحث في عينيِّ عليّ عن أي إشارةٍ، لكني لم أجد شيئاً. علامات الحزن والبُعْدِ المعتادة فقط.

بمجرد دخوله، اتجه إلى غرفته، مخفضاً رأسه. مَرَّ بجانبي دون حتى أن يلقي عليّ التحية.

ذهبت وراءه، وأخبرته بما حدث. قلتُ له إنه كان في خطرٍ. قصصتُ عليه ما بدر من أحمد، وأريته الجرح الذي كان على فخذي.

لم يكن مندهشاً، بل أجابني، بطريقةٍ، لم أنتظرها: "لقد غادر ناصر منزلنا. رحل أخي".

صُعِقْتُ مما قاله. "كيف ترك منزلكم؟ ماذا يعني ذلك؟"

"مساء أمس، بعد العشاء، اعترف لأبي أنه كان قد انضم إلى "جماعة الشباب". منذ سنواتٍ، وهو عضوٌ فيها. كنا نعلم ذلك. بالأمس فقط قال إنه يرغب في الالتحاق بمدرسة لتعليم القرآن؛ كي يصبح جزءاً فاعلاً في التنظيم. لقد قرّر أن يلتحق بأحمد".

ظللتُ صامتةً، بينما كان عليّ يبكي. وبعد أن هدأ، طلب مني ألا أقلق، موضحاً أن أحمد لن يتمكن من القيام بشيءٍ ضده، فناصر كان سيتولى حمايته.

ولكنْ؛ كان هناك ضوءٌ غريبٌ في عينيه وهو يتحدث. ضوءٌ يَنُمُّ عن الحماس والاستلهام. ضوءٌ لم أره في عينيه من قبل، ضوءٌ أفزعني.

ظللنا صامتَيْن، ثم طلب مني أن أتركه وحده لبعض الوقت.

خرجتُ من الغرفة، وذهبتُ إلى أمي التي كانت تبدأ في تحضير *البورجيكو* لإعداد العشاء. كنت أحاول التظاهر بأنه لم يحدث شيء، طلبت منها أن أساعدها، لكن تحركاتي كانت خرقاء مثل تحركات الفيل.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتى خرج عليّ، وأخذ يتسلق رويداً رويداً شجرة الكافور. تلك الحركات الدقيقة والصامتة، المخملية، التي كانت تجعله يبدو كالقط، أو كالقرد. كان يحفظ عن ظهر قلب كلَّ جزءٍ في تلك الشجرة، ويعلم أين يضع أصابع قدميه الحافيتين دون أن ينظر إليها.

وفي لحظةٍ واحدة، وصل إلى قمتها.

المكان الذي لم يكن لأحدٍ أن يصل إليه. مكانه الخاص. ربما الأوحد. كان سيهبط عندما يجتاز الحالة التي كان يمر فيها.

كنت حزينة للغاية رغم أنه طلب مني ألا أقلق. فقد كنتُ قد خنتُ أفضل أصدقائي، وبات ذاك الشعور يجرحني أكثر من الشفرة. وبينما كان عليّ يتسلق الشجرة بسرعة، بتلك الحركات المتدفقة والمثالية في ذلك

المساء، أحسستُ بالوحدة أكثر مما أحسست بها أمام أحمد الذي كان يريد أن يبتر إحدى ساقيَّ.

ظللت هناك أنتظره، أسفل الشجرة، متكئةً على جدار غرفته، لقليلٍ من الوقت. ثم ذهبتُ إلى الفراش، ورأسي يدور في دوامة شديدة السواد.

-١١-

بعد بضعة أيام، عادت الأمور إلى طبيعتها، وكالمعتاد تجنّبت أنا وعليّ الحديث مرةً أخرى عما حدث. استقرت الأمور في صمتٍ، كان يرضي كلينا.

أثناء تلك الفترة بدأت أحقّق انتصارات حقيقية. كنت أشارك في جميع المسابقات التي كانت تُعْقَد في المدينة والأحياء المجاورة لها. كانت المشاركة في تلك المنافسات مجانية، وكنت - في معظم الأحوال - أحتل المركز الأول.

لكنْ؛ سرعان ما شعرتُ بالحاجة للبحث عن محفّزاتٍ أخرى، فرحتُ أشترك في المسابقات المخصّصة للرياضيين جنوب الصومال. وكنت أفوز هناك أيضاً.

كان الجميع يتساءلون كيف تفوز فتاة نحيفة كشجرة السنط المغروسة حديثاً، وبساقين صغيرين كأغصان شجرة الزيتون. الحقيقة أنني كنت أفوز، هذا كل شيءٍ. كنت أسرع من الآخرين. أسرع من أولئك الذين نافستهم حتى تلك اللحظة، على الأقل.

بعد مرور أشهرٍ، أدركت أن تخصّصي هو العدوّ لمسافة مائتي متر.

كنت أستطيع أن أخرج كل طاقتي في هذه النوعية من السباقات. كما كنت أشعر بالارتياح - أيضاً - في سباقات الأربعمائة متراً. لم تكن لدي العضلات المناسبة لحرق كل شيءٍ في مائة متر، كنت أحتاج إلى مسافةٍ أكبر؛ كي أتمكن من إخراج الغضب، وكي أسمح لكلمات أبي أن تترك تأثيرها في رأسي. لم أكن أنجح في ذلك على الفور، بمجرد انطلاقي. فهناك،

كان يوجد الاندفاع حصراً. لكنْ؛ بعد ثلاث، أو أربع ثوانٍ، كان الوعد الذي قطعته مع أبي يثور، فكنت أفوز.

كنت أريد أن أصبح أسرع عدائي الصومال، ما يعني الذهاب للعدْو في الشمال، في هرجيسا. لكنْ؛ لم يكن الأمر سهلاً، لأنني كنت بحاجة إلى مَن يرافقني، كما أنني لم أكن أملك المال، لا أنا، ولا عليّ. بالإضافة إلى ذلك، فإن الشمال كان قد أعلن استقلاله؛ حيث كانوا يقولون إنهم يمقتون الحرب، ولذا؛ من كان يرغب في الذهاب إلى الشمال، حتى من أجل المنافسة، فحسب، لم يكن مرحَّباً به من قبل الجماعات المسلحة.

علاوةً على ذلك، فخلال الأسابيع التي كان قد قرر فيها ناصر أن يتبع أحمد، كان كل شيءٍ يتغيّر في مقديشو.

قويت شوكة "جماعة الشباب"، وبدأ الحديث يدور عن فتح المحاكم الإسلامية. كانت نيّتهم إنهاء الحرب، ولكنْ؛ في الواقع، لم تكن تلك المحاكم سوى انتصار للأصوليين.

في غضون أسابيع قليلةٍ، باتت الحياة في المدينة مستحيلةً. خاصةً بالنسبة للنساء.

إلى أن حدث في يومٍ واحدٍ ما لم ينبغ أن يحدث في أي مكان.

تغيّر كل شيء ذات يوم، يوم مثل سائر الأيام، ودون أن يلوح أي شيء في الأفق، لا كوارث أرضية، ولا ثورات.

بين عشيةٍ وضحاها، تمّ منع الاستماع إلى الموسيقى. لم يعد مسموحاً بذلك، لا في الطرق، ولا في المنازل. كان القلائل الذين يمتلكون الراديو، يستمعون إليه، بصوتٍ خفيضٍ، للغاية، وذلك لأنه في حالة سماع أي نوتة خارج المنزل، سيتمّ إعدامهم، من غير محاكمة، على مرأى من الجميع.

بين عشيةٍ وضحاها، تمّ إغلاق جميع دور السينما. صحيح أنني لم أكن

قادرة مادياً على الذهاب إلى الصالات، ولكنني كنت أتمنى أن يحدث ذلك يوماً ما. وكانت هذه الأمنية وحدها تستحق الانتظار. ثم إن إحدى رفيقات المدرسة كانت من عائلة ثرية، وكانت تذهب كل يوم جمعة إلى السينما، بصحبة عائلتها، ثم تعود بتلك القصص الرائعة والساحرة. كانت السينما تغذّي وتخلق الأحلام، هذا هو السبب الذي كان وراء إغلاقهم لدور السينما.

بين عشيةٍ وضحاها، تمّ إجبار الرجال على ارتداء سراويل طويلة، ولم يعد بوسعهم الظهور في الطرق، وهم يرتدون سراويل قصيرة. كما أصبح يتعيّن عليهم أن يحلقوا رؤوسهم بالكامل، أو أن يُطلقوا شعرهم ولحاهم على النمط الأفريقي. لم يعد هنالك أنصاف حلول.

ثم نأتي إلى النساء. لم يعد مسموحاً لهنّ القيام بأي شيء، فكن يخاطرن، بحياتهنّ، إذا مَشَيْنَ في الطرق. وكانت محاولة فعل ذلك دون ارتداء البرقع مجازفةً، من الممكن أن تكلّفهنّ حياتهنّ.

بين عشيةٍ وضحاها، تغيّرت تقاليد بلدنا. تحوّلت أرض الشمس والألوان إلى معسكر تدريب للمتطرّفين في العراء. كافة أزيائنا سواء *جاريباسار*، *جامار*، الحجاب لم تعد مناسبة. لم تكن تصلح إلا لتنظيف الأرضيات. فُرِضَ علينا ارتداء البرقع الأسود، ذلك الذي يبقي العينين مكشوفتين فقط.

ولكن أسوأ شيء - حيث كان يبدو، وكأنه عقاب - كان قرار إطفاء أعمدة الإنارة القليلة التي كانت تضيء بعض ساحات وسط المدينة، وبعض الأزقة مساءً.

في المساء، كان يجتمع الكثيرون في الميادين، تحت أعمدة الإنارة، للقراءة. عدد قليل جداً من الأشخاص كان لديهم كهرباء في منازلهم. بدلاً عن القراءة تحت ضوء *الفيروس* الخافت، كان الكثيرون يقضون الأمسيات تحت النجوم لقراءة رواية، أو صحيفة قديمة، أو خطاب، أو حتى البطاقات الغرامية.

كانت تلك الأماكن بمثابة مكتبة لنا في الهواء الطلق. الآن، كما هو الحال،، في المكتبات الحقيقية، بات كل شيءٍ ممنوعاً، ملغيّاً، محظوراً.

نجحت "جماعة الشباب" في أن تقضي على أمل شعبٍ، بأكمله. حتى ذلك اليوم، أضحى مستحيلاً كل شيءٍ، كان تحقيقه صعباً. لقد قُضِيَ على الحلم والأمل والحرية في خطوةٍ واحدةٍ.

بين عشيةٍ وضحاها.

مساء اليوم السابق، كان بإمكان أبي ارتداء سرواله القصير الكاكي، من النوع الذي كان الإيطاليون المستعمرون قد استوردوه، وكان يرتديه جميع الرجال، وخصوصاً في الأيام شديدة الحرارة. في صباح اليوم التالي، بات محظوراً: إذا التقى أيّاً من حرّاس "جماعة الشباب" في الطريق، كان من الممكن أن يتعرّض للضرب أمام الجميع.

الشيء نفسه، بالنسبة لأمي، التي اضطُرّت أن تشتري برقعاً؛ كي تتمكّن من الذهاب للعمل، هي التي كانت تمقته، كما كنا نمقته جميعاً؛ حيث كنا نعشق ألواننا الزاهية، الحجاب، *الجارباسار* البرتقالي والأحمر والأصفر والأخضر والأزرق والأرجواني، التي كانت - دائماً - تمثل لنا جوهر الأرض والأنوثة.

بين عشيةٍ وضحاها، برقع أسود للجميع.

وبالنسبة لي وهودان، كان الأمر صعباً.

لم يعد الغناء مسموحاً، بالمطلق، كما أضحت أناشيد الحرية والسلام محظورةً.

حتى الركض منعوه علينا.

مساء واحد من تلك الأيام، كانت هودان قد توقّفت لتناول الطعام في المنزل معنا. وبعد تناول العشاء، قال والداي إنهما يرغبان في التحدث

إلينا. كان إخوتنا في الخارج يغسلون الأطباق وإناء الأرز؛ وهكذا، دخلنا إلى غرفتهما، في صمتٍ.

جلس أبي على المقعد الوحيد، وكان يحدّق فينا غاضباً، دون أن يترك العصا، التي كانت تنتقل بين يديه. كانت هذه المرة الأولى التي نراه فيها غاضباً إلى هذا الحد. أما والدتي، التي كانت مغطاةً إلى رأسها بحجابٍ رقيقٍ أبيضٍ؛ لم تكن قد ارتدته - أبداً - في المنزل إلى ذلك اليوم، أخذت مكانها فوق الفراش، وهي تمُلِّس على تنورتها - التي كانت مشدودةً بإحكامٍ حول ساقيها - بالتناوب مع المنديل الأبيض القماش الذي كانت تضعه فوق فخذيها.

أنا وهودان أمسكنا بأيدينا، بقوةٍ.

دون الحاجة لسماع ذلك من أحد، كنا خائفتين من أن يمنعونا من القيام، بما كنا نحبّ، من أن يبلغونا بأن كل شيءٍ بات خطيراً، وأنه لم يعد بإمكان أحد السماح لنفسه بأن يتصرّف، كما كان يحلو له. فالأسرة هي الخاسرة في هذه الحالة. كانت تلك أساليب "جماعة الشباب"، العقوبة الرادعة للأشقاء، أو للوالدين.

كنت أرتجف، وأشعر برعشة الحمّى. كنت أشعر بالبرد حتى وإن كانت درجة الحرارة ثلاثين درجةً. ماذا لو كان أبي قد أمرنا، بالتوقف، ماذا كنا سنفعل؟ كنا سنذهب؛ لنبكي في أحضان والدتي، نطلب الرحمة، كما كنا نفعل عندما كنا صغاراً. لكنْ؛ هذه المرة لم يكن هذا ليجدي في شيء.

كان لدينا طريقان فقط: الطاعة، أو العصيان.

والعصيان يعني أنّ نترك المنزل إلى الأبد.

لكن أبي كان مثلما عهدناه.

قرأ أفكارنا، كأنها كُتبت على جبيننا، ودون أن نتفوّه، بكلمةٍ واحدةٍ.

نهض من مقعده، واقترب منا ببطء، ويداه الضخمتان تمسكان، بالعصا، وتبرزان من كميّ قميصه المصنوع من الكتّان السكّري.

أسند راحة يده فوق جبهتي أولاً، ثم على جبهة هودان.

"يا بناتي، كل شيءٍ كان يبدو طبيعيّاً، في الأمس، بات اليوم معقّداً".

كان صوته جاداً. نظرتُ أنا وهودان إلى بعضنا البعض. كنا نعلم ماذا يريد أن يقول. كانت هذه نهاية أحلامنا. علينا التوقّف عن تخيّل مستقبلٍ لا يعلمه أحد، فالحقيقة كانت قد حَلَّت كدلوٍ من الماء المثلج.

نظرنا معاً إلى الأسفل، نحدّق في أصابع أقدامنا الحافية، التي استحال لونها إلى لون الأرض البيضاء.

بعد وقفةٍ وجيزةٍ، واصل أبي حديثه قائلاً: "ومع ذلك، أعتقد أنا ووالدتكما أنه ينبغي عليكما الاستمرار، فيما تفعلانه، إذا كان ما تفعلانه هو طريقكما نحو السعادة".

انهمرت في اللحظة نفسها - من عينيَّ وعينيٍّ هودان - دموعٌ دافئةٌ وصامتةٌ.

"أنا وأمكما سندعمكما دائماً، محاكم إسلامية، أو غيرها. "جماعة الشباب"، أو غيرهم".

كانت أمي تبكي، وهي تجلس فوق الفراش، تماماً مثلما كانت تفعل ذلك خلسةً؛ تمخّط دون توقّف، كما لو أن البرد أصابها، وكنا نعلم أنها سليمة معافاة منذ أن كنا صغاراً.

"عليكما أن تعرفا أنّ ما تفعلانه محفوفٌ، بالمخاطر، وغير مرحّبٍ به، ليس - فقط - من قِبَلِ الأصوليين، ولكنْ؛ من قِبَلِ كثيرٍ من الناس التي ستتأثر بغيرها، وسترى أنكما مختلتان عقليّاً. أتعرفان هذا؟"

"نعم"، أجبته، وعيناي لا تزال تلمعان.

"نعم، يا أبي، نعلم هذا"، قالت هودان.

"إذاً؛ أنتما حرّتان في بناء مستقبليكما. أنا ووالدتكما مقتنعان بأن الموهبة لا تنقصكما. امضيا في طريقكما، وتلقّيا ما ينتظركما، يا بناتي".

في تلك اللحظة، كنا ننتحب. ضمّنا أبي، في عناقٍ، وطلب منا الخروج من الغرفة، فقد كان يرغب أن يجالس أمي على انفراد، في الغرفة، لبعض الوقت.

قبل أن نخرج، نادى مجدّداً على هودان:

"هودان.."

التفتت إليه، وهي عند باب الغرفة."نعم، يا أبي".

"تأكدي إن كان والد حسين يوافق قولي".

"شكراً، أبي".

خرجنا إلى الفناء، إلى الهواء والضوء، تاركين أبينا وأمّنا في ظلام الغرفة يتساءلان ما إذا كانا قد اتخذا القرار الصحيح.

-١٢-

ومع ذلك، كان كل شيءٍ يتغيّر خلال تلك الأسابيع. كانت حياتنا كمواطنين صوماليين معرضةً لأن تتغيّر إلى الأبد.

صباح أحد الأيام، ودون سابق إنذار، رحل عليّ وعائلته.

استيقظتُ في الفجر، مع إخوتي، على الأصوات القادمة من الفناء. خرجنا جميعاً مرتدين ملابس النوم، حفاة الأقدام، يغلبنا النعاس. بالكاد رأيتهم يصعدون إلى شاحنةٍ صغيرةٍ خضراء ذات صندوقٍ خلفيٍّ صدئ، كان ياسين قد استعارها من شخصٍ ما قبل أن يرحلوا إلى الأبد. قرّروا الرحيل، حتى دون أن يعرفوا الوجهة.

كان ياسين وعليّ وإخوته قد أمضوا الليل في تحميل تلك الشاحنة الصغيرة المتهالكة بالصناديق الكبيرة التي كانوا قد تمكّنوا من ملئها، بكل حياتهم.

قبل ذلك، بيومٍ واحدٍ، كانت قبيلة *هاوييا*، التي كنا نمثل جزءاً منها، باعتبارنا من عشيرة *أبجال*، كانت قد أعلنت أنها شكّلت نوعاً من التحالف مع "جماعة الشباب"؛ كان يبدو أنهم لم يكونوا راغبين في الحرب لبعض الوقت. إلا أن هذا كان يعني أن أبناء قبيلة *الدارود* في حَيِّنَا كانوا في خطر؛ لأن بونديري كانت منطقةً تابعةً *للأبجال*، وأُسَرُ قبيلة *دارود* كانت مستمرّة في العيش، في تلك المنطقة، لوجود أصدقائهم *الأبجال* الذين يقومون بحمايتهم. لم يكن ليسمح أحدٌ لنفسه أن يُلْحِقَ الأذى بياسين، فالجميع كانوا يعلمون أنه كان الصديق المقرّب لأبي، وأنهما كانا مثل الأشقاء.

ولكنْ؛ في تلك الليلة، وبشكلٍ متزامنٍ، كانت عشرات العائلات قد اتخذت نفس القرار. مرةً أخرى، بين عشيةٍ وضحاها، غيرت "جماعة الشباب" حياتي.

كان صباح ذلك اليوم قد غمره ضوءٌ سرياليٌّ. عند الفجر، بدا الضباب المُشَبَّع برطوبة البحر مسكوناً من قبل العديد من الأشباح السريعة. كان الناس في حَيِّنَا يهاجرون إلى أماكن، لم يكونوا يعرفونها بعد. الشيء المهم كان أن يهربوا في أسرع وقتٍ ممكنٍ، تاركين تاريخهم وراء ظهورهم.

لم تذهب أمي لعملها، شأنها شأن جيراننا كافة، فقد كان من الممكن أن يأتي أفراد "جماعة الشباب" لتفتيش المنازل واحداً واحداً، فكان من الضروريِّ أن نكون موجودين جميعاً.

عندما اقتربتُ من العربة، وجدت أن عليّاً كان جالساً على الكرسي الخلفي، بجانب النافذة، وكان ينظر إلى الأسفل. أما ياسين؛ فكان يجلس على المقعد الأمامي، بجانب السائق الذي كان صديقاً له ولأبي. كان المحرّك قد دار، بالفعل. طرقتُ الزجاج، فالتفت إليَّ عليّ. كان الحزن قد غطّى وجهه، كما يفعل الشمع. لم يعد لديه عينان. كأنه يلبس قناعاً من الشمع، قناع الغياب.

بدا لي أنه كان يتطلّع في وجهي، لكنه كان ينظر إلى نقطةٍ في السماء، بينما كنتُ أقف خلف الزجاج، مشيرةً إليه بأن يفتح النافذة. لم يسمعني، كان يبدو مذهولاً. التفتُّ لأنظر ورائي.

كان يحدّق في الجزء العلوي من شجرة الكافور.

نظر إليّ ما إن تحرّكت الشاحن. ربما كان يبكي.

هو وأبوه ياسين وإخوته كانوا جزءاً من حياتي منذ أن وُلدت، واختفوا مثل الأشباح، في جزءٍ من الثانية.

كانت عائلة حسين قد اتخذت القرار نفسه؛ لأنهم من أبناء قبيلة دارود، ولم يعد للزواج المختلط مكان. كل ما تم بناؤه في عقودٍ، ذهب مع الريح، في يومٍ واحدٍ. كانوا قد قرّروا الرحيل، كأغلب أبناء قبيلة دارود.

وجدت هودان نفسها - في غضون ساعاتٍ قليلةٍ - مضطرةً لاتخاذ قرارٍ مؤلمٍ.

الرحيل، أو البقاء.

بعد ليلةٍ من الألم، قرّرت البقاء معنا. لم يكن هناك وقت لمناقشة مصير زواجها. في بعض الأحيان، تسافر القرارات الأكثر صعوبةً فوق خيطٍ رفيعٍ على نفخةٍ بسيطةٍ من الرياح. ونحن معها، مضطربين، غير مثقلين. على الأقل، هذا ما حدث لنا ذلك الصباح.

بعد رحيل عليّ، بساعاتٍ قليلةٍ، عادت هودان إلى المنزل، حاملةً معها بعض الأشياء الضرورية التي جلبتها معها بعد احتفال العرس.

كان كل ما قالته هودان عندما رأيناها تظهر في الفناء، وهي تحمل تلك الحقيبة الكرتونية الحمراء الصغيرة التي كانت أمي تستخدمها منذ سنواتٍ عديدةٍ: "لقد عدتُ. رحل حسين".

هُرعت أمي لاحتضانها، ثم تبعها الآخرون.

في غمضة عينٍ، كنت قد فقدت أفضل صديقٍ لي، واستردتُ أختي.

لكن القدر كان يستطيع أن يفعل معي ما يشاء. كنت أعلم جيداً إلى أين أريد أن أصل. لكن الرياح لا تجاريني، إنما أنا التي تحرّكها. أنا مَن تعلّم أن يستخدمها كقوة، تدفعني في ظهري؛ لتجعلني أطير.

احتضنتُ هودان في ذلك اليوم، وأنا أبكي من الفرح، بدموع الاستياء نفسها التي كانت لا تزال تنهمر مني، بسبب عليّ.

ثم استأنفتُ التدريب على الفور.

-١٣-

أصبحتُ دون مدرّب، وأنا أبلغ من العمر أربعة عشر عاماً، وذلك قبل ستة أشهر من أهمّ سباق في حياتي، سباق هرجيسا. ذلك السباق الذي كان يجب أن أفوز به؛ كي أنال لقب أسرع عدّاءة. وكي أنتقل بعد ذلك إلى جيبوتي، للجري للمرة الأولى، باسم بلدي. كان يصيبني الدوار، بمجرد التفكير في هذا الأمر، فكان عليّ أن أنجح فيه، مهما كلّف الثمن.

لم يعد هنالك أحد، يقيس لي الوقت، ويقوم على تدريبات الساقين والذراعين. لا أحد يتحقّق ما إذا كنت أغشّ في العدو المتتابع، أو في تمرينات البطن.

منذ رحيله، كنت أتساءل كل يوم أين يكون، وماذا كان يفعل. عندما كنت أعدو، كنت أسمع صوته يطنّ في أذني. لا تفعلي هذا، لا تفعلي ذلك. ارفعي أعقابك أكثر، حافظي على ذراعيك، بالقرب من جسدك. حاولي أن تنظّمي أنفاسك مع خطواتك. وابتسمي! عندما تصلي إلى خط النهاية، ابتسمي، يا سامية!

لم أكن أفعل ذلك قط. لم تكن الابتسامة تعنيني. في نهاية السباق، أكون متعَبةً، ويكون هناك العديد من الأشياء التي أكون قد أخطأتها. كنت أعلم أن هناك حدوداً للتحسين، فأردت - فقط - أن أركّز على ذلك. عندما كنت أقطع شريط خط النهاية، لم أكن أستطيع تذوّق النصر. كنت أبدأ في التفكير في المنافسة المقبلة، وتصحيح أخطائي داخل عقلي.

وكان لدي قليلٌ من الخوف أيضاً. خوف من أن يكون بين الجمهور مَن

لا تعجبه الفتيات الصغيرات اللائي يضعن أنفسهنّ محل الأنظار. لكن عليّاً كان يضمّني إليه كل مرة، ويصرّ على أهمية الابتسامة. "إنها نوع من التحية، للجمهور"، هكذا كان يقول.

في المساء، قبل النوم، تحت ضوء *الفيروس*، كنت أنسى نفسي، وأنا أحدّق في صورة محمد. كنت أنظر إليه، وأطرح عليه بعض الأسئلة. كان سعيد يسخر مني، ويقول إنني أتحدث مع الورقة.

"سامية، ألاتزالين تتحدثين مع تلك الصحيفة؟"

"لا أتحدث مع أي صحيفة"، كنت أجيبه، في غضب. لكني كنت - بالفعل - أتحدث مع ورقة صحيفة بالية.

"اعلمي أن الحبر يترك بقعاً، لكنه لا يتحدث"، كان يتابع سعيد حديثه.

عندما كان يضحك باقي الإخوة، كنت أستيقظ من النوم. فكانت هودان تطبع على جبيني قبلةً، وتطلب مني ألا أحزن، فسعيد إنما كان يمازحني.

نعم، كان يمزح، لكنه كان محقاً.

كنت أنظر إلى محمد، تلك الصورة التي يظهر فيها، وهو على وشك عبور خط النهاية، عيناه السعيدتان الواسعتان بسبب الإجهاد، لكنهما هادئتان وراضيتان عن فوزٍ آخر، وكنت أطلب منه بصوتٍ خفيضٍ أن يطمئنني، أن يقول لي إن يوماً ما سيحدث لي الشيء نفسه، وإنني - أيضاً - كنت سأظفر بنظرة الأمل والصفاء نفسها داخل عينيَّ.

ومع ذلك، فالفوز في السلام كان يبدو لي ضرباً من ضروب المستحيل. كان كل فوزٍ بمثابة خطيئة، كنت أعرف أنني أثير استياء الكثيرين. بطبيعة الحال، كنت أبذل ما في وسعي؛ كي لا أجعل هذا الأمر يشغل بالي، وأمضي قُدُماً في طريقي دون أن أنظر إلى وجه أحد، دون حتى أن أبتسم.

لكن الحقيقة كانت أن غياب عليّ كان قد جعل كل شيءٍ أكثر ثقلاً،

وأقل سعادةً، اكتسب الركض مذاقاً مختلفاً، حتى وإن كانت هودان قد عادت تنام بجواري بصوتها المخملي.

في تلك الأشهر، كنت أذهب إلى المدرسة، وأركض فقط. كنت أتدرّب سبع ساعات يوميّاً. كنت أركض في الفناء، وفي حظر التجول، كنت أخرج - عندما يتيسّر لي ذلك - وأركض في الشوارع.

كانت عصابة الرأس المطاطية الإسفنجية مليئةً بالعرق أسفل البرقع الذي يخنق رأسي.

كان من المستحيل الركض في تلك الظروف. وكنت أتعثر مراراً وتكراراً في التنورة، وبينما كانت الحرارة تتزايد تحت هذا الثقل الأسود، كنت أخاطر بأن أفقد وعيي.

ولكن كل ما كان يجول بخاطري هي هرجيسا، سباق حياتي، الذي كان سيغيّر حياتي. كان يجب أن أفوز، وكانت فرصتي الوحيدة لأصبح محترفةً، حتى وإن كانت هذه الكلمة لا تعني الكثير في الصومال. لم يستطع أحد أن يجني قرشاً واحداً، من الرياضة. ولكنْ؛ على الأقل، كنت آمل في أن تتاح لي الفرصة؛ كي أشارك في سباقاتٍ مهمةٍ، وتمثيل بلدي في العالم، وأن أركض من أجل تحرير الصومال، بينما كانت الصومال تعتقد أنني أركض وفقاً لقواعدها.

كنت أذهب يومين في الأسبوع، لمساعدة أمي في بيع الخضروات، في السوق، وذلك كي أتمكّن من كسب بضعة شلنات لدفع ثمن تذكرة الحافلة التي ستحملني إلى هرجيسا. كانت هودان تذهب معها ليومين آخرين، وأوبا اليومين الأخيرين، كما أنهم كانوا يعطوني شيئاً ما عندما كان يتيسّر لهم ذلك. كانت هذه مساهمتهم في الحرية.

كانت حكومة المحاكم الإسلامية قد منعت هودان وفرقتها الموسيقية من التدريب والعزف في المدينة.

لم يعد بمقدورهم الذهاب إلى صالة العروض الموسيقية، وأصبحوا مضطرين إلى أن يلتقوا في الطابق السفلي لأحد المطاعم، في الشمال، بالقرب من نهر شبيلي. كانوا سوف يطلقون عليهم النار، إذا وجدوهم مجدداً في ذلك المكان القديم.

كنت أعود من الركض حول المدينة غارقةً في عرقي، وقت حظر التجوال، قبل تناول وجبة العشاء. وكانت أمي تنظر إليَّ نظرة غريبة، وكأني حيوانٌ نادرٌ.

"مَن ذا الذي تحاكينه في تصرفاتك؟" كانت تسألني، وهي تخلع عني البرقع مُمَرِّرَةً يدها فوق شعري المبتلّ، بينما كانت تجلس في الركن الذي يوجد عنده *البورجيكو* تعدّ الطعام. كانت القصة تتكرر كل يوم. بمجرد أن كانت تراني أظهر أسفل الخيمة الحمراء، كانت تبتسم لي، بحنانها المعهود. ثم عندما أقترب منها، كانت تتصرف، بشكلٍ جاد.

"مَن ذا الذي تحاكينه في تصرفاتك، أيتها الصغيرة سامية، هاه؟" كانت تقول لي بصوتها العذب. كنتُ قد أصبحتُ طويلة القامة مثلها، وكنت أدرك أن عينيها المشرقتين والعميقتين كالبئر الذي لا قعر له، كانتا تمتلآن، بالتجاعيد، في كل مكانٍ حولها.

"أحاكي أبي في تصرفاته"، هكذا كنت أجيب.

كانت تنظر إلي واضعةً وجهي بين يديها، ثم تقول: "ما أجملك، يا سامية. ها قد أصبحت امرأةً. أنت أجمل مَن في العائلة".

ثم كانت تطوي البرقع المبلّل، وتفكّ لي أربطة حذائي، ثم تطلب مني أن أذهب؛ كي أغتسل، وأريح قدميّ.

كان مثل الحفل. قيام الابنة الجميلة والمجنونة بخلع ملابسها.

لكنْ؛ في تلك الفترة، كنت أفكر - فقط - في كيفية المحافظة على

طاقتي، وادخارها للتدريب في اليوم التالي. لم أتمكّن من التركيز في أي شيءٍ آخر.

جاء عيد ميلادي الخامس عشر قبل السباق، بأسبوعين، وكان سعيد قد أهداني ساعة مقياس.

لم أعلم من أين آتي بها، ولا كم كلّفته. الحقيقة أنه جاء لي، وقال: "هذه لك، أيتها المحاربة سامية".

كانت المرة الأولى التي يناديني فيها هكذا، عادةً ما كان سعيد ينادي عليّ، بمائة طريقة مختلفة، كلّها كي يسخر مني. لكنه ذلك اليوم ناداني "المحاربة"، كما كان أبي يناديني، من حينٍ لآخر، ربما لأنني كنت أتقدّم في العمر، فقد كنتُ قد بلغت خمس عشرة سنةً، وهذا عمر اليافعين. ثم قال إنه كان يريد أن يأتي اليوم الذي تسجّل فيه ساعة المقياس تلك الرقم القياسي في سباقات السرعة النسائية في بلدنا.

"أعدك بهذا، يا سعيد"، أجبته، وأنا أقبّل وجنته.

لم يسبق أن كان لدي ساعة مخصّصة للسباق، فعليّ كان يقوم بمراجعة الوقت من خلال حساب الثواني بساعته القديمة الرثة. كان ينقصها الحزام الصغير منذ وقتٍ طويلٍ، كل ما تبقّى منها هو مينا الساعة.

كان يقف عند ركن مذبح الوطن منتظراً أن أظهر من الزقاق المواجه عندما اقترب منه مجموعة من فتيان قبيلة *أبجال*، لم يكن قد رآهم من قبل، ليسوا من سكان حيّنا، ولا أحد يدري ماذا كانوا يفعلون هناك. كان يقف في الظل، متّكئاً على جذع إحدى أشجار السنط عندما قام هؤلاء الفتيان الثلاثة، بشتمه.

"لديه وجه الزنوج فتى *دارود* هذا"، هكذا كانوا يقولون.

كالمعتاد، لم يتفوّه عليّ بكلمة، بينما كان يحدّق في أعينهم، واحداً تلو الآخر.

"فتى *دا*رود هذا لا يتحدث، ربما ابتلع لسانه، من شدة الجوع"، ثم سقط هؤلاء الحمقى الثلاثة على الأرض من شدة الضحك.

كان عليّ يعلم أن ثلاثة ضد واحد يعني أنه لم يكن لديه الكثير؛ كي يفعله، كما أنه كان في إحدى الأحياء التابعة لقبيلة *أبجال*، لذلك لم يكن لديه فرص كبيرة. وبهدوءٍ، ترك ذاك الفتى الذي كان يبدو أنه قائدهم يقترب، وفجأةً، وبنفس السرعة التي كان قد باغت بها في ذاك المساء ذلك الفتى المتطرّف عندما عَضَّ يده، قام بتوجيه ضربة في ساقه. جثا الفتى على ركبتيه متألماً، فهرب عليّ على وجه السرعة. أخذ الفتيان الآخران يركضان خلفه لبعض الوقت، ولكنْ؛ نظراً لأنهما كانا أبطأ منه، قاما بإطلاق صفيرٍ من صفارة يحملها البلطجية على أعناقهم، من أجل مواقف مثل هذه. *فففيووو!* كان الصفير قويّاً لدرجة أن سمعه نصف سكان المدينة. وبعد أن اجتاز الركن، وجد عليّ أمامه رجلاً، استوقفه طالباً منه معرفة سبب ركضه، وما إذا كان قد سلب شيئاً من أحد، وهو ما كان يتعارض مع تعاليم القرآن الكريم. وعلى الفور، وصل الفتيان الآخران، فأخبرا الرجل أن عليّاً كان لصاً، وأنه كان قد سرق بعض المال. فقاموا، بضربه، وأخذوا منه كل ما لديه، تاركين معه - فقط - تلك الساعة المتهالكة. ومنذ ذلك الحين، استغنينا عنها.

الآن، مع وجود الساعة الرياضية التي أهداني إياها سعيد، كل شيءٍ تغيّر.

مَن يدري ماذا كان عليّ سيقول؟! كان سيجد صعوبةً في تصديق أنه يمكنه استخدام ساعة مقياس جديدة. كما كان يبدو لي من المستحيل أن أتمكن من قياس التوقيتات التي كنت أحقّقها.

بدءاً من ذلك اليوم فقط، بدأت أعرف ما إذا كنت سأبلغ المرتبة الأولى في السباق أم لا.

ربما أكون قد ورثت بذرة الجنون عن أبي، على أي حال.

كنت على حق عندما أجبتُ أمي هكذا عندما سألتني. بموافقة

أبي، كنت أذهب إلى استاد كونز ليلاً الثلاثة أيام الأخيرة قبل انطلاق سباق هرجيسا.

منذ سنواتٍ، وأنا أطلب منه هذا الأمر. كان عليّ قد حكى لي كيف كان يذهب هو وأمير ونورود - صديقاه - إلى هناك، من حينٍ لآخر؛ كي يلعبوا كرة القدم. ظلت هذه الذكرى عالقةً في ذهني. لحظة من السلام، يمكن فيها استخدام الاستاد.

لم يكن أبي قد أعطانا الإذن؛ كي أقوم بهذا الأمر قبل الأيام الثلاثة الأخيرة التي تسبق انطلاق فعاليات السباق، عندما ذهبتْ أتوسل إليه أن يسمح لي بذلك، فاستسلم، ووافق.

"شكراً، يا أبي، أنا ممتنة لك بهذا طيلة حياتي"، هكذا قلت له، ناظرةً إليه بعينين رقيقتين.

"أتمنى أن تكوني ممتنةً لي في نهاية هذه الأيام الثلاثة؛ لأن هذا سوف يعني أنه لم يصبك مكروه"، أجابني مهموماً.

الحقيقة أن ذلك الوقت كان خالياً من المخاطر، حتى وإن كان الظلام دامساً، فلا يوجد أحدٌ في الطريق، وحظر التجول المسائي جلب السلام إلى آذاننا.

كنت أخرج من البيت قرابة الساعة الحادية عشر، كنت أصل إلى الاستاد خلال نصف ساعة، أسلك الشوارع الصغيرة المنعزلة،، بسرعة مرتديةً البرقع. كنت أنسلّ من خلال إحدى فتحات السياج، وأعبر مقاصّة التذاكر، وأمتطي بوابةً حديديةً منخفضةً، تؤدي إلى الممر الرئيس، ومن هناك، كنت أدخل.

كان رائعاً.

كانت رائحة العشب التي تغمر كل شيءٍ تلهف حواسي، بعذوبتها، ورقّتها.

أن أمتلك الاستاد بأكمله، فارغاً، والشعور بأنه كله ملكاً لي، مُضاءً بنور القمر، فحسب، كان هذا شعوراً رائعاً، يضاهي الشعور بالفوز، بنسيجٍ مبطّنٍ من السماء.

كنت أتوقّف عند حافة مضمار السباق الذي حقّقتُ عليه أولى انتصاراتي، وكنت أخلع ذلك البرقع الأسود. كنت أطويه، ثم أتركه على الأرض. وبينما كنت ألتقط أنفاسي ببطء، أقوم بالإحماء، وأخطو إلى منتصف الملعب، وأعود. كان مجرد أنني هناك أثناء الليل تحفّز داخلي كمية من الأدرينالين كفيلةً بحبس أنفاسي. هناك كنت أستمتع - للحظاتٍ كانت تبدو بلا نهاية - بالنظر إلى منظر الاستاد، وهو فارغ.

لا أحد.

فقط أنا وأنفاسي والقمر. ورائحة العشب التي تهبّ - بقوة - من جميع الجهات.

كنت أتظاهر أن السلام يعمّ البلاد، وأن هذا كان تحديّاً، لم أخاطر من أجله بشيء.

اكتشفت - حينها، في تلك الليالي، قبل ثلاثة أيام من أهمّ سباق في حياتي - أنني كنت أعدو المائة متر في ستة عشر ثانية واثنين وثلاثين جزءاً من الثانية، والمائتين متر في اثنين وثلاثين ثانية وتسعين جزءاً من الثانية. كنت أعتقد أنني أسرع من ذلك. كشفَتْ لي تلك الساعة الرياضية الحقيقةً المُرَّةَ. كان بيني وبين الأرقام القياسية العالمية مسافة كبيرة، ويجب أن أحسّن حالتي.

كان أبي ينتظرني عند مخرج الاستاد طوال تلك الليالي الثلاث؛ كي يأخذني إلى المنزل آمنةً وسالمةً.

في طريق العودة، وأنا مغطّاة بالبرقع، وأقفز في سعادةٍ، كنت أعدّد له كل ما كان يجب عليّ القيام به؛ كي يتحسّن أدائي. فكان يتطلّع حوله،

ويتوقف من حينٍ لآخر مهدداً إياي بعصاه، إن لم ألتزم الهدوء، وأتوقف عن جذب الانتباه إلينا، وإلا كان سيضربني بها في رأسي. كنت أضحك، فكنت أعلم أننا لم يكن علينا أن نكون في الخارج في تلك الساعة، لكنني كنت سعيدةً.

تلك الحرية المؤقّتة، الاستاد الفارغ، القمر المنير كالبدر، رائحة العشب، كل هذه الأشياء كانت تملؤني، بنشوةٍ، لا يمكن السيطرة عليها.

كان أبي يغضب، ويطلب مني أن ألتزم الهدوء.

لكن السباق كان يشغل ذهني.

بعد ثلاثة أيام، سافرتُ إلى الشمال.

-١٤-

كانت الرحلة في الحافلة المتجهة إلى هرجيسا تشبه الرحلة التي تقوم بها إحدى النجمات. كنت وحدي، وكانت التذكرة باهظة الثمن، ما يعادل ستين دولاراً أمريكيّاً، وكان مجرد التمكن من شرائها أشبه بمعجزة.

لم أكن - أبداً - قد صعدتُ على متن حافلةٍ، من قبل. كان كل شيءٍ مريحاً، المقاعد ليِّنة، وكبيرة، مغطّاة بالمخمل الرمادي، كما كانت هناك موسيقى لتسلية الركاب. كان السائق يرتدي زيّاً موحّداً أزرق داكناً، وكان غاية في اللطف. لعلّه ظنني رياضية مشهورة عندما رآني أصعد بمفردي مرتديةً الزي الرياضي الذي أحضره لي أبي - لست أعرف من أين - كي أرتديه أثناء مشاركتي في هذا السباق. رمقني، ووجَّه إليَّ التحية تماماً مثلما تسيز الأمور مع الأشخاص ذوي الحيثية.

"صباح الخير، *أبايو*"، هكذا قال لي بينما كنت أصعد. "أتمنى لك رحلةً سعيدةً".

"شكراً"، هذا هو الشيء الوحيد الذي تمكّنتُ من قوله، فقد كنت متشوّقةً، للغاية.

استغرقت الرحلة ما يقرب من يومٍ كاملٍ.

كنت أشعر وكأنني واحدة من تلك الطيور الصغيرة التي ترفرف أجنحتها، بسرعةٍ فائقةٍ حتى يعجز البشر عن رؤيتها، وتجعلها تبدو، وكأنها معلقة في الهواء، معلقة في مكانٍ ما في السقف، بخيطٍ غير مرئيٍّ. كنت متشوّقةً، لدرجة جعلتني لا أتوقف عن الحركة. نهضتُ مائة مرة، بحجة أنني كنت

بحاجة لتحريك ساقيَّ. عندما كنا نتوقف؛ كي ننزل من الحافلة؛ لنأكل شيئاً، أو لنذهب إلى الحمَّام، كنت أتمنى أن نستأنف الرحلة سريعاً.

وصلنا إلى وجهتنا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي. كانت الشمس تشرق. لم أكن قد غفوت، لدقيقةٍ واحدةٍ.

نزلت من الحافلة، ينتابني إحساسٌ غريبٌ بأنني موجودةٌ في بلدٍ، يعيش في سلام.

لم يَبْدُ لي حقيقيّاً عدم وجود عناصر أمن في المحطة، عدم وجود آثار البنادق والثياب المموّهة، وعدم وجود ثقوب في الجدران، بفعل الطلقات النارية. كنت في حيرة. مثل الحيوان الذي قضى كل حياته داخل قفص، ثم تُرِكَ له الباب مفتوحاً فجأةً؛ ليصبح حراً. صدمني شعور بالنشوة المبالغ فيها، التي بدلاً من أن تدفعني إلى الأمام، أصابتني بالشلل على الفور. راودتني نفسي أن أعود أدراجي، وأن أصعد مجدّداً إلى الحافلة، والعودة إلى مكاني الطبيعي؛ حيث كانت تقاس الحرية عن طريق حساب عدد الألغام الأرضية وفوارغ قذائف الهاون. الحصول بشكل مفاجئ على قدر مبالغ فيه من الحرية أمرٌ ضارّ، لا يناسب البشر. هذا ما جال في خاطري صباح ذلك اليوم، وقت الفجر، بينما كانت الشمس تتخلّل على استحياءٍ من خلال الشقوق بين السقف الخشبي للمحطة والجدران.

جلست على إحدى الأرائك المعدنية، بجانب أحد أكشاك بيع الجرائد، وانتظرت قليلاً. كان بائع الجرائد قد وصل لتوّه، كي يفتح كشكه، وكان وجهه لا يزال تبدو عليه علامات النعاس.

اشتريتُ بالشلنات القليلة التي كانت لديّ مشروب *الشعت* من البار الوحيد الذي كان يعمل في ذلك التوقيت. انتقلت الحرارة من يديَّ إلى حلقي، ومن ثم؛ وصلت - أخيراً - إلى رأسي.

ذهبتُ إلى الاستاد سيراً على الأقدام.

كان لديّ كل الوقت، كما كان من الضروري أن تعود المفاصل إلى مرونتها بعد كل تلك الساعات التي انثنت ركبتاي دون القدرة على تحريكهما.

كانت تلك المدينة التي تعيش في سلامٍ تبدو لي، وكأنها معجزة. إمكانية التنقل دون ارتداء البرقع، إمكانية التحرك والصراخ في الشوارع، إمكانية إيقاف أحد المارة، والتحدث إليه. أصابني الدوار حينما فكّرتُ في كل ما يمكنني فعله.

بعد ساعة، في تمام الثامنة، وصلتُ إلى الاستاد. أثرتُ شفقة الحارس الذي كان يقف خلف البوابة. عندما سمع من أين أتيت، فتح البوابة، بمفتاحٍ كبيرٍ، وأدخلني، كما وجد لي مكاناً في الظل؛ كي أستريح.

حاولتُ أن أستلقي فوق العشب الذي يحيط بمضمار السباق، أمام المدرجات، ولكنني كنت أرغب في النوم.

كنت أرتجف مثل أوتار آلة *شاريرو*، وهي الآلة الموسيقية التي كان حسين يعزف عليها في فرقة هودان الموسيقية.

في الساعة العاشرة، فتحوا البوابات، ووصل أولى المتسابقين مع مرافقيهم. عندئذٍ، قاموا - في هدوءٍ شديدٍ - بإعداد طاولات لاستكمال إجراءات التسجيل.

كنت أول مَن قدّم نفسه.

طلبت مني السيدة المسؤولة معرفة اسمي، وتطلّعت إلى وجهي في نظرةٍ متسائلةٍ. أجبتها وأنا مرعوبة من أن يكون اسمي لسببٍ ما قد فُقد مع التسجيل، من مقديشو إلى هرجيسا، وأن أكون قد وصلت هناك، بلا فائدة.

لكن السيدة نظرت إليَّ باهتمام، وسألتني فقط: "هل نمتِ، يا صغيرتي؟".

"نعم، بالطبع، إنني نمتُ، كيف أستطيع أن أركض إن لم أكن قد أخذتُ

قسطاً من الراحة، *أبايو*؟"، أجبتها، ووجهي شاحب مثل زهرة البرتقال.

"حسناً، يمكنك أن تذهبي لشطف وجهك، توجد نافورة هناك".

"شكراً، *أبايو*".

"ما اسمك، يا صغيرتي؟"

"سامية يوسف عمر.."، قلت لها في نَفَسٍ واحدٍ.

فتحت السيدة السجلّ، وأخذت تبحث فيه. مرَت ثوانٍ، كالدهر. أضفتُ قائلةً: "جئت من مقديشو".

"سامية يوسف عمر، من مقديشو.. ها هو".

وقَّعْتُ، وأعطتني ملصق الصدر. أول ملصق صدر لي.

كنتُ مسجّلةً في سباق المائة متر والمائتين متر سيدات.

كان رقمي ٧٨.

اضطررت إلى الانتظار لساعتين إضافيتين قبل البدء في العدو. لم أكن أعرف ماذا أفعل.

لحسن الحظ، نحن النساء كنا نتسابق قبل الرجال.

تحدثت قليلاً مع فتاتين، إلا أنه لم يكن ينبغي أن أفقد كثيراً من تركيزي. كنت هناك، للفوز، وليس للدردشة. لم أتوقف عن النظر حولي، لم أستطع أن أفعل أي شيءٍ آخر. كان كل شيءٍ جديداً، وكانت هذه المرة الأولى لي في الشمال، أول سباق حقيقي.

كنت - بالتأكيد - أصغر متسابقة. لا أحد كان ليراهن على فوزي، ولو بشلنٍ واحدٍ.

بعد مرور قليل من الوقت، وبعد أن بلغ الصبر مداه، قرّرتُ أن أتبنّى

الإستراتيجية الأقل صعوبة. استلقيتُ على الأرض، فوق العشب، وانتظرت أن يمرّ الوقت، وانغمستُ في تلك الرائحة العذبة التي كانت تشملني. إلى أن حانت اللحظة.

لم تبد لي منافساتي على قدرٍ كبيرٍ من الخطورة. كنّ يكبرنني سناً، إلا أنهنّ لم تكن لديهنّ الأعين الشرسة المميِّزة للرياضيين الحقيقيين. على الفور، شعرتُ بأنني أستطيع الفوز.

في أقل من ساعتين، فزتُ بسباقات التصفيات واحدةً تلو الأخرى.

دون أن أدرك ذلك، وجدتُ نفسي في السباق النهائي، وقد بدأتُ أفقد الكثير من أنفاسي، وبدأتُ أشعر بآلام شديدةٍ في عضلات الفخذ الأمامية، وكان لا يزال عليّ إنهاء سباقين آخرين، أحدهما مائة متراً، والآخر مائتين متراً.

في السباق النهائي، كان يتم إشراك الفائزات بسباقات التصفيات.

أولى السباقات النهائية كان سباق مائتي متراً. كانت ساقاي قد أضحتا مثل الخشب لشدة الجهد، كنت متعَبَةً أكثر من المتسابقات الأخريات، لأنني المتسابقة الوحيدة المشتركة في نوعين مختلفين من السباقات. لكن هذا حفّزني، بدرجةٍ أكبر. إن كنت قد وصلت إلى هذا الحد، فبإمكاني الفوز أيضاً.

جثوتُ على ركبتي، مُثَبِّتةً قدميَّ عند مساند الأقدام عند نقطة البداية، وبانطلاق إشارة البدء، انطلقتُ كالصاروخ، ناظرةً إلى هدفي فقط.

كان يجول في خاطري أصوات أبي وعليّ، وهما يصيحان طالبين مني أن أركض.

فركضتُ.

عبرتُ خط النهاية أولاً.

كان ذلك شعوراً رائعاً، بمثابة التحرر من الطغاة.

الأولى.

كنت أسرع عداءة في بلدي، في سباق مائتي متر.

لم يكن لدي الكثير من الوقت؛ كي أفكر في الأمر. بعد عشر دقائق، كان موعد الجري في نهائي سباق المائة متراً، وهو السباق الأكثر أهمية.

لأول مرة، بدأ الجمهور في المدرجات يعلو صوته. كان أحدهم يصيح، ويشجعنا.

أشارت إلي الفتاة التي كانت في الحارة المجاورة لي، بينما كنا في طريقنا نحو نقطة البداية، إلى مجموعة صغيرة من المشجّعين، يجلسون في المدرجات، ويحاولون جذب انتباهي. عندما نظرتُ إليهم، أخذوا يصفّقون، ويشجّعونني. كان لدي مشجّعون.

رفعتُ ذراعي، وقمت بتحيتهم.

فور إطلاق إشارة البدء، كان جل ما يجول في رأسي مجدداً هو صوت أبي وعليّ. "انطلقي، أيتها المحاربة الصغيرة. انطلقي نحو هدفك مبتسمةً!"

ركضتُ تلك المائة متراً، كما لم أفعل من قبل.

كانت الفتيات على يميني ويساري أبطأ مني، وسرعان ما تقدّمتُ عليهن، بمقدار خطوتين. كانت هناك فتاة واحدة - فقط - في الحارة الأولى التي استطعتُ أن أرمقها بطرف عيني، فأدركتُ أنها كانت تنافسني، بقوة. في العشرة أمتار الأخيرة، بذلتُ كل ما كان قد دفعني للمجيء والمنافسة فوق ذلك المضمار.

بذلتُ الجهد والتدريب والتفاني والخوف والإحباط الذي كان يحاصرني منذ سبع سنواتٍ، على الأقل. رأيت مقديشو من جديد كالقفص الذي تمكنتُ - أخيراً - من الفرار منه؛ كي أركض بحرية.

وفزتُ مجدَّداً.

لدى وصولي، كنت أشعر، وكأنني مثل الصرصور الذي مُنِعَ لأسابيعٍ من القفز، كما يفعل بعض الأطفال في مقديشو. يقومون بصيد بعض الصراصير، يحتفظون بها داخل علبٍ صغيرةٍ، ويضعونها في جيوبهم. وبعد مرور أيام، يقومون بتحريرها، ومن ثم؛ تقوم الصراصير بالقفز بعيداً. يقومون بعقد منافساتٍ لقفز الصراصير المحتجَزة، ويتراهنون على ذلك. كنتُ أشعر، وكأنني صرصورٌ محتجَزٌ، لم أتوقف عن القفز يميناً ويساراً. كدتُ أبلغ عنان السماء. أجمل شيء أننا كنا في هرجيسا؛ حيث لا تجد الحرب مكاناً لها، كما لم يكن لـ "جماعة الشباب" وجود.

هنا، كنت أستطيع القفز والفرح، في سلامٍ.

كما كان يمكنني أن أبتسم، أيضاً.

كنت أبتسم للجميع، مصافِحةً كلَّ مَن كان يقترب مني؛ ليتعرف عليّ. لو رآني عليّ، لغمرَته السعادة لدرجة البكاء كالأطفال. لم أكن قد رأيته منذ ستة أشهرٍ، وفي قلبي أهديتُ الانتصار إليه، إلى مدرّبي، إلى مَن جعلني أصبح رياضيةً، إلى أفضل صديق لي.

في ذلك اليوم، رأيت لأول مرةٍ، بأحرفٍ كبيرةٍ فوق لوحةٍ إلكترونيةٍ كبيرةٍ، التوقيتات التي حقّقتها: ١٥,٨٣ ثانيةً في سباق المائة متراً، و٣٢,٧٧ في سباق المائتين متراً.

كان يجدر بي تحسين أمور كثيرة، لكنني كنت قد حقّقتُ الفوز. كنت أسرع امرأةً في بلدي.

وكنت قد حصلت على حقّ المشاركة في المسابقة التي كانت ستُعقد في جيبوتي، بعد ثلاثة أشهرٍ. أول مسابقة دولية أشارك فيها.

في رحلة العودة، نمتُ إحدى وعشرين ساعةً متتاليةً. غادرنا في المساء، ولم نكن لنصل قبل مساء اليوم التالي. لم أفتح عينيَّ قط، ولو لمرةٍ واحدةٍ، لم أنزل حتى من الحافلة، للذهاب إلى الحمَّام.

كنت أمسك بالميداليتين المعلّقتين على رقبتي، بشكلٍ آمنٍ أسفل سترتي التي تركتُ عليها ملصق الصدر الذي يحمل رقم ٧٨، رقم الحظّ الخاص بي.

خلال الساعة الأولى - فقط - شعرتُ، وكأنني قنبلة على وشك الانفجار. كنتُ أجلس بجانب سيدةٍ عجوزٍ، كانت تحاول أن تقرأ كتاباً تحت الضوء الخافت الذي يتسلل من النافذة، بينما كنتُ أشعر بحاجةٍ ملحةٍ؛ كي أحكي لها كل ما حدث لي، لحظةً بلحظةٍ. كنت أحاول - من حينٍ لآخر - أن أبدأ محادثة معها. لم تكن هناك أدنى وسيلة لذلك، فالسيدة العجوز لم ترفع عينيها عن تلك الصفحات.

بعد ذلك، استسلمتُ، وانخرطت في نومٍ عميقٍ، فلم أكن قد نمتُ منذ مدة يومين. نمتُ ويداي ممسكتان بالميداليتين المعلّقتين فوق سترة البزّة الرياضية.

في محطة الحافلات في مقديشو، عاد كل شيءٍ في لحظةٍ إلى ما كان عليه عندما تركته. بالنسبة لي، كانت قد مرّت قرون، كنت قد سافرت إلى الجانب الآخر من العالم، وكنت قد أصبحت شخصاً آخر. لكني - في لحظةٍ - وجدت نفسي عدتُ إلى نقطة البداية، وكأن شيئاً لم يكن.

الوجوه الغاضبة المعتادة، الجلفة والقلقة، البنادق المعتادة المحمولة على الأكتاف، الزّيّ الموحّد المموّه والمُغَضَّن المعتاد الذي تم الحصول عليه، لا أحد يدري من أين.

كان أبي ينتظرني خارج المحطة.

لم أكن بحاجة لأقول شيئاً، فقد قرأ في وجهي كل شيءٍ. ضممته، وأمطرتُه بوابلٍ من القبلات.

في طريق العودة، كانت تسيطر عليّ فكرة أن نلتقي بإحدى دوريات "جماعة الشباب". استخدمت التقنية التي كانت قد علّمتني إياها هودان

عندما كنت صغيرةً، والتي قمت - بدوري - بتعليمها لعليّ: تقنية التخفّي. دائماً ما أفلحَتْ. باستثناء تلك المرة التي التقينا فيها بالفتيين، وتلك التي اعترضني فيها أحمد. كان الأمر بسيطاً: إذا كنت تعتقد أنك غير مرئي - هكذا كانت تقول لي هودان - فسوف تصبح كذلك. كانت هذه الطريقة التي نتبعها للتنقّل في أنحاء المدينة جميعها. وكان هذا هو السر الذي كنا قد استخدمناه أنا وعليّ - أيضاً - عندما كنا نركض وقت حظر التجول، أو عندما كنا نركض عند الشاطئ، ونحن صغار. فاستخدمت هذه التقنية، من أجلي، ومن أجل أبي. فلنأمل أن تقوم فقاعة التخفّي تلك بحمايتنا من كل شيءٍ، ومن الأشخاص كافة، للأبد.

وصلنا البيت، وكانت الساعة قد تخطّت الحادية عشر. كان الجميع قد تناول الطعام، بالفعل، لكنهم كانوا قد أبقوا لي طبقاً من كيريشو ميريش، ومن حلوى السمسم الصغيرة.

قالت أمي - باكيةً كالعادة - إنها فخورةٌ بي. انضمت هودان - أيضاً - إلى أمي في البكاء، بينما قام باقي الإخوة والأخوات، بارتجال أغنية على شرفي.

في تلك الليلة، ليلة النصر، كان كل شيءٍ مثاليّاً.

كنت قد تحوّلتُ إلى شخصٍ آخر.

للمرة الأولى، أشعر بأنني راشدة، وعظيمة الشأن. بالإضافة إلى ذلك، كنت أعرف أنني بطلة، وكان لدي قناعة - مخبّأة في مكانٍ ما في أعماقي - بأنني - يوماً ما - سأفوز في الأولمبياد. وحينئذٍ سأقود - بحقّ - تحرير النساء المسلمات.

كنت أنظر إلى إخوتي، وهم يغنّون، وكأنني داخل فقاعة من الصمت. كنت أرى أفواههم، وهي تتحرك، لكنني لم أكن أسمع أصواتهم.

كان غياب عليّ وأبيه ياسين وإخوته ملموساً ومحسوساً. ربما لأجل هذا السبب كانت أسرتي قد نفثت عن سعادتها، بفوزي أكثر من المعتاد.

كان مدرّبي عليّ غائباً، فبكيتُ - للمرة الأولى في حياتي - من شدة الألم.

اعتقدتْ هودان وأمي أنني كنت أبكي من الفرحة، بالفوز. كلا، ففي تلك الليلة، في الفناء، أمام كل أفراد أسرتي التي كانت تحتفل على شرفي، بكيتُ؛ لأنني أصبحتُ عظيمة الشأن، ولأن عليّاً كان غائباً. أكثر شخص في العالم كان قد ساعدني كي أفوز بالسباقات التي كنت قد فزت بها ذلك اليوم.

قبل النوم، علّقتُ الميداليتين على مسمارٍ مثبتٍ في الحائط، بجوار الفراش، بجانب وجه محمد فرح.

مَنْ يدري، لعل محمداً، يتمكن من رؤيتهما هو أيضاً؟!

من أوروبا، من لندن. من مكانٍ بعيدٍ.

مَنْ يدري، لعله يرسل لي تشجيعاً لما هو آتٍ، على سبيل المثال، من أجل السباق الذي سيُعقد في جيبوتي؟!

ثم، قبل أن أخلد إلى النوم، أنشدتْ لي هودان بصوتها المخملي أغنيةً رائعةً، وبديعةً عن النصر.

-١٥-

بعد مرور شهر، وبينما كانت حياتي تجري على قدم وساق، رحل أبي إلى الأبد. في ظل السرعة والحتمية التي كان يحدث بها كل شيءٍ، رحلت النقطة المرجعية التي كنت أهتدي بها. قبل حدوث ذلك، بلحظةٍ واحدةٍ، كان كل شيءٍ يسير كالمعتاد. لكنْ؛ بعد هذه اللحظة، تغيّر كل شيءٍ. منذ ذلك اليوم، أسدل الظلام ستائره.

كما كان يحدث كالمعتاد، في صباح ذلك اليوم، ذهب أبي إلى سوق بكارة لمقابلة بعض الأصدقاء، والقيام بشراء بعض الأشياء. فإذا بشخصٍ ما، ملثّم الوجه، اقترب من الخلف، وأطلق النار عليه. هكذا، ببساطة هكذا. استغرق الأمر لحظةً واحدةً. لحظة تبدو ليس لها معنى، إذا نظرنا لها من الخارج، لحظة مرت في هدوءٍ، في خضم كل تلك الأصوات الغاضبة. فرّ ذلك الظل وسط لامبالاة العامة، دون حتى شرف المفاجأة. لم يتحرك أحد، قليلون للغاية أدركوا ما حدث.

كان سوق بكارة أخطر مكان في المدينة. كان يفيض كل ساعةٍ بأناسٍ يأتون ويخرجون، بحثاً عن أشياء للبيع والشراء، بحثاً عن الوقت لكسب المال، أو لمجرد قضائه دون فائدة. كان يعجّ في كل ركنٍ من أركانه بالألوان، الأزرق والأخضر والأحمر والأصفر والأبيض والأسود وألوان الأقمشة والتوابل والفواكه والخضراوات. وكان - بشكلٍ خاص - مليئاً بالأيدي والسيقان والأقدام والوجوه والعيون التي تتحرك بسرعة هنا وهناك، إضافةً إلى الروائح الكريهة والطيبة والحالات المزاجية المختلفة. كان مليئاً بالبصاق وقشر الموز والتفاح والبطيخ وبقايا المشمش والخوخ. إنه سوق بكارة،

إنه الجحيم. بسبب اكتظاظه الشديد، كان - دائماً - بمثابة المكان الأكثر خطورةً.

لكنْ؛ حتى ذلك الحين، كان بمثابة مكان وفاة *الآخرين*. الموت الذي لا يعبأ به أحد.

كان يحدث أن يقوم رجال ميليشيا القبائل، أو أفراد "جماعة الشباب"، أثناء مرورهم بإلقاء قنبلة داخل سلة، تحملها إحدى السيدات على ظهرها، من أجل التسوق. كانوا يمرون، ويلقون بداخلها قنبلة. ثم، من مسافةٍ بعيدةٍ، يقوم آخرٌ بكبس زر. و بوووم.

عِشرون دفعةً واحدةً، أو ثلاثون.

أطفال ونساء وشيوخ.

لم يكن أحد يعبأ بشيءٍ. كان كل شيءٍ يتوقف حول الجثث، لبرهة، ثم يعود إلى ما كان عليه. دائماً ما كان يموت أحدٌ، بينما كان يسقط مَن يترك وراءه أباً وأماً وأبناء وأقارب وأصدقاء.

لكنْ؛ في ذلك اليوم، أصبحنا نحن هؤلاء *الآخرين*، واكتسب الموت مجدداً قيمته.

اختار الموت يوسف أبي فقط، في ذلك اليوم.

فقط والدنا.

رحل.

إلى الأبد.

منذ تلك الليلة، لم أنم أنا وهودان في فُرُشِنا، بل في الفراش الكبير مع والدتي. كان جسد أبي مُمَدداً على طاولة خشبية مغطّاة بقطعة قماش، وظل موجوداً في الفناء لمدة أربعٍ وعشرين ساعةً، لوداع الآخرين. قضت

والدتنا كل الوقت تقريباً هناك واقفةً على قدميها، لاستقبال الناس، ممسكةً بيد زوجها المتوفىّ. بالنسبة لي، لم أقم بالنظر إليه حتى. أردتُ أن أحتفظ بذكراه على حالها إلى الأبد.

لم يتوقف سعيد عن البكاء، أما هودان؛ فكانت قد دخلت في حالة من الصمت، لا يكسرها سوى الليل عند النوم. كانت تنام بيني وبين أمنا، وتساعدنا على النوم، من خلال التغني بأناشيد، ترافق أبي في رحلته، أناشيد كانت تحدثنا عن صوته، وكيف أنه كان معنا، وكان يقول لنا إنه تركنا وحدنا، بسبب أمراء الحرب والأصوليين. كانت تنشد مطبقةً يديها.

كنا ممسكين بأيدينا، نحدّق في السقف، وفي المنتصف، هودان ممسكةً بإحدى يديها يدي، وبالأخرى يد أمي، وبينما كانت تغني بذاك الصوت الرقيق، تكاد تكسر أصابع أيدينا لشدة الضغط.

عندما قمنا بدفنه، كان يقف معنا حشد من الناس. كان كل واحدٍ يقدّم نفسه على أنه أفضل صديق له.

رحل أبي، وكان يجب أن تستمر الحياة، بالضرورة.

كان غيابه اليومي - الذي يظهر في كل تفصيلةٍ - قد سبّب لي حالةً من الغضب الشديد التي أشعلت رغبتي في الجري والفوز بدلاً من أن تطفئها. كما أنها جعلت من الصعب إلحاق الضرر بي. لم يعد هناك شيء بإمكانه أن يؤذيني. كانوا قد سلبوني أبي، ولم يعد هناك مَن له الحق في مراجعة ما كنتُ أفعله.

كانت معاناتي شديدة، لدرجة أنني لم أكن أنتظر أن أتعرّض لأسوأ منها طيلة حياتي. في كثيرٍ من الأحيان، بينما كنت أركض، كنت أجد نفسي أبكي كالمجنونة. وعندما كنت أعود إلى المنزل، ولا أجده جالساً في الفناء، كنتُ أنفجر في النحيب. مساء اليوم التالي، عقب تناول العشاء، كان ينقصنا صوته الأجش وعباراته المضحكة. كان سعيد يحاول سدّ تلك الفجوة، إلا أنها ظلت حاضرةً، وبقوة.

في تلك الأيام والأسابيع، شعرت بأنه كان يجب عليّ إنهاء ما كنتُ قد بدأته بعد أن منحني موت أبي الإحساس بعدم وجود مَن بات بمقدوره إلحاق الضرر بي. في بعض الأحيان، بينما كنت أركض، وكان عقلي يذهب وحيداً، كنت أفاجئ نفسي، بالتفكير في أمور عبثيةٍ ومخزيةٍ: إن أبي كان قد رحل؛ كي يجعلني أركض بحرية، محميةً من قبل وفاته التي كانت قد حملت الثأر، إلى عائلتنا.

ولكنْ؛ سرعان ما كنت أسترد وعيي، بمجرد أن أتوقف، مدركةً أن كل ذلك لم يكن سوى هراء.

كانت الدنيا قد اكتست بألوانها وعبيرها وأصواتها. منذ ذلك اليوم، أضحى كل شيءٍ مكتوماً مثل الشمع في الصباح الذي ودّعتُ علياً. كان الأمر يبدو كأنني دخلتُ في نفقٍ مظلم وضيق، وكأنني أستطيع - فقط - أن أعدو، أن أعدو بأكبر سرعةٍ ممكنةٍ، بحثاً عن طريقٍ للخروج.

في واقع الأمر، خلال الشهرين قبل سباق جيبوتي، كنت أركض إلى حدّ الإعياء.

في كل مرة كنت أتدرّب فيها، كنت أستحضر في ذهني الكلمات التي كان أبي قد قالها لي صباح اليوم الذي خضتُ فيه أول سباق مهمّ: "أنت محاربة صغيرة تركض من أجل الحرية، وبفضل قواكِ الخاصة ستخلّصين شعباً، بأكمله".

كانت هذه الكلمات تدفعني إلى أقصى الحدود.

كنت أتدرّب بالأثقال في الفناء، وعندما يحلّ الليل أتسلّل مرتديةً البرقع إلى استاد كونز، وأتدرّب على البداية، الانطلاق، الإطالة، العدو المتتابع. لم أكن أشعر أنني في خطر. كل يوم كنت أقوم بذلك، لمدة ست أو سبع أو ثماني ساعاتٍ متواصلةٍ حتى أنهار على الأرض، من شدة الإرهاق. دون أن يكون عليّ بجواري، يمسك بمعصمي، ويجعلني أنهض.

عادةً ما كنت أستلقي فوق العشب القليل المنتشر بقلّة في الملعب، وأظل أتأمل السماء، لدقائق كاملة.

كان يروق لي أن أتخيل نفسي من الأعلى، من حيث يشاهدني أبي، كنقطةٍ، في مركزٍ مستطيلٍ كبيرٍ.

كنا نوجد نحن فقط: العشب الذي يخزني في ظهري، الهواء الذي يصبح منعشاً وخفيفاً وقت المساء، السماء المليئة بالنجوم، أنفاسي المتسارعة، وأنا.

بعد قليل من الوقت، كان كل شيءٍ يعود إلى صمته، وكان الجسد يبدأ في الذوبان، والساقان والظهر في الاسترخاء، وكان يعود النَّفَس إلى هدوئه.

كنت آخذ شهيقاً عميقاً، ثم أحتفظ به لقليلٍ من الوقت. كنت قد اكتشفت أن هذا الضغط يمنع خروج الدموع. كنت أبقى على هذه الحال طوال الوقت تقريباً، وجنتاي منتفختان مثل سمك الكارب الصليبي، وبداخلهما كمية كبيرة من الهواء، تجعلهما تبدوان وكأنهما على وشك الانفجار.

إلى أن كان يحين وقت استئناف الاتصال مع الأرض والنهوض وارتداء تلك العباءة السوداء الشنيعة التي تغطّيني، من قمّة رأسي، إلى أخمص قدمي.

ثم العودة إلى المنزل، ببطء، وأنا أتنفّس من أنفي، محاولةً الحفاظ على خلوّ رأسي من الأفكار.

فليسقط فوق رؤوسكم ألف كيلو من الغائط الموبوء، وليغمركم إلى الأبد.

-١٦-

وذات يوم، بعد عودتي من المدرسة، وجدت رجلاً يتحدث وسط الفناء مع أمي قائلاً إنه مبعوث من اللجنة الأولمبية. كان لديه شعر قليل فوق رأسه، وكان عريض المنكبين، مما جعلني أشعر أنني كنت أقف أمام جسدٍ رياضيٍّ، ونحيفٍ.

كان يرتدي سترةً ورباط عنق، مما أثار فيّ الريبة على الفور، فمَن يرتدي هذه الملابس هم العرسان والسياسيون ورجال الأعمال. لكنه أخبرني - بعد ذلك - أنه علم بالانتصار الذي كنت قد حقّقته في هرجيسا، وأن عبيدي بيليه شخصيّاً، أعظم أبطال فترة الثمانينيات، كان يسرّه التعرف إلي.

"حسناً، ولكنْ: متى؟"، سألتُه.

"الآن، إذا أحببتِ"، أجاب في هدوءٍ، بينما كان يعيد ضبط رباط عنقه. "بالمناسبة، لم أقدّم نفسي حتى الآن. أنا زاسَّان. زاسَّان عبد الله".

نظرتُ إلى أمي وهودان اللتين قامتا بهز رأسيهما إيماءً بالموافقة، دون أن يتفوّها بكلمة. كان بإمكاني الذهاب، إذا أردتُ. بيد أن هودان كانت ستأتي معي.

"يشرّفنا - أيضاً - أن تصطحبي أختك معك"، قال الرجل، بهدوئه المعتاد. "لنذهب، سيارتي في آخر الشارع". كان يبدو وكأنه لوردٌ إنجليزيٌّ، أو على الأقل، شخص سافر كثيراً في شبابه، أو عاش كثيراً في الخارج.

نظرنا إلى بعضنا البعض. لأول مرة في حياتنا كنا سنصعد على متن سيارة!

خرجنا من فناء المنزل، واقتادنا الرجل إلى سيارته. كانت سيارة هوندا حمراء. فتح لنا الباب الخلفي، فجلسنا. بالداخل كان الجو شديد البرودة، بسبب الهواء المكيف. كان الأمر يبدو وكأننا وسط الجليد. كانت المقاعد المصنوعة من الجلد الأسود تصدر صوتاً خفيفاً عند كل حركةٍ نصدرها. المدينة - التي كنا ننظر إليها عبر نوافذ السيارة - تبدو مختلفةً، تبدو أكثر صغراً وأكثر فقراً، في الوقت ذاته. الناس التي رأيتهم على جوانب الطريق ملايين المرات كانوا يبدون لي أكثر انشغالاً.

وصلنا بعد عشرين دقيقة تقريباً. كانت هذه المرة الأولى التي تطأ فيها قدماي مقر اللجنة الأولمبية.

كان يوجد في الداخل رجال وفتيان، يرتدي بعضهم الزّيّ الرياضي للمنتخب الوطني الصومالي، والبعض الآخر يرتدي ثياباً أنيقة مثل زاسَّان. دخل زاسَّان في إحدى الغرف، وطلب مني - بلطف - أن أنتظره بالخارج. كانت توجد صورٌ للعديد من الرياضيين معلقة على الجدران. ظللتُ أنا وهودان ننظر حولنا بصعوبة.

بينما كنا نتجول في الممر، اقترب منا أحد الشباب الذي كان يرتدي الزي الرياضي الأزرق للصومال، وأشار إلى مكان، يمكننا الجلوس فيه. كان هذا المكان داخل غرفة، توجد بها صورٌ أخرى. وبعد قليلٍ من الوقت، ظهر عند باب الغرفة رجلٌ آخر، ذو شعرٍ أبيضٍ وسترةٍ ورباط عنق ووجهٍ حسنٍ. كنت أنا وهودان نشعر بالحرج كفتاتين في اليوم الأول من المدرسة.

"لنذهب إلى مكتبي"، قال لنا بابتسامةٍ عريضةٍ، بينما كان يشير بيده؛ كي يصطحبنا إلى الخارج.

دخلنا، وجلسنا على كرسيين من الجلد الأسود أمام مكتبه. كانت توجد لوحة معلّقة على الباب مكتوبٌ عليها د. دوران فرح، نائب الرئيس. كما كان يوجد على الجدران رفوفٌ، عليها العديد من الجوائز. أخرج من إحدى أدراج مكتبه علبة، تحتوي على قطع صغيرة من الشوكولاتة، وقدّمها

لنا. أنا لستُ محبةً للحلويات، بدرجةٍ كبيرةٍ، أفضّل - فقط - تناول كرات حلوى السمسم الصغيرة، أما هودان؛ فهي ليست كذلك، لذا؛ أخذت منها قطعتين. بعد أن سألنا عن حالنا، وتحدث إلينا قليلاً، أخبرنا أنهم كانوا يعلمون أنني كنتُ قد فزت، بمسابقةٍ مهمةٍ، مما جعلهم يعتقدون أن بمقدورهم أن يصنعوا مني رياضيةً حقيقيةً.

"لكني - بالفعل - رياضيةٌ حقيقيةٌ"، أجبته، مثبتةً أقدامي أسفل المقعد.

"دعينا نقول إنك على الطريق الصحيح؛ كي تصبحي كذلك"، قال مبتسماً.

"لكني فزت بسباق هرجيسا، أصبحت أسرع امرأةً في البلاد"، أصررتُ. وددتُ - أيضاً - أن أقومَ من مكاني، وأوسعه باللكمات، إذا استمر في التشكيك في موهبتي.

تطلّع الرجل في وجهي، ورأسه مائل قليلاً، ثم أظهر - مرةً أخرى - أسنانه البيضاء، وهو يبتسم. "بين الهواة، سامية. الآن أنت - فقط - من بين الهواة".

كانت هذه هي المرة الأولى التي ينطق فيها، باسمي، وأعجبتني الطريقة التي نطقه بها؛ حيث مد طويلاً في حرف الألف. *ساااامية*، تماماً مثلما كان ينطقه أبي. أبعدت عن رأسي التفكير في أبي. "هل تريدين أن تصبحي محترفةً؟"، سألني، مُحْدِثاً ثقباً في ذكرياتي.

لم أجب على الفور؛ لأنني لم أكن أصدّق ما أسمعه.

"هل تريدين أن تصبحي جزءاً من لجنتنا الأولمبية؟"، كرّر دوْران السؤال عليّ، بصوته العذب.

عندئذٍ كان بإمكانه أن يطلب مني أن ألقي بنفسي من فوق أحد الجبال، أو أن أعبر نهر شبيلي، وكنت سأفعل دون أن أتردّد للحظةٍ واحدةٍ.

بعد مرور ستة أسابيع، كنت على متن حافلةٍ مجدداً. لكنْ؛ هذه المرة، لم أضطر لأن أساعد أمي لشهورٍ لدفع ثمن التذكرة.

حافلة متّجهة إلى جيبوتي.

كان زاسَّان، برفقتي.

فوق رأسي، حقيبة الصومال.

كنت أرتدي الزّيّ الرياضي الأزرق المميّز للصومال.

كان كل شيءٍ يبدو مثاليّاً؛ بحيث إن كل صباح - بعد الالتقاء بزاسَّان - كنت أذهب إلى أمي؛ كي أطلب منها أن تقرص إحدى وجنتيَّ؛ كي أتأكد من أنني لم أكن أحلم. صباح تلك الأيام، كنت أتمكن من إخراج أولى ابتساماتها، وعيناها كانتا لا تزالان منتفختين من كثرة البكاء، بسبب التفكير في أبي.

على متن تلك الحافلة، شعرتُ، وكأني فلورنس جريفيث - جوينر، أسرع امرأة على مرّ العصور، الرياضية المثالية التي كنت قد سمعتُ اسمها للمرة الأولى في راديو تاجيري الفقير، الذي كنت أجبره - دائماً - على ضبط تردّد الإذاعة؛ كي يلتقط بثّ القناة الرياضية، ومنذ ذلك الحين، طُبِعَ اسمها في ذاكرتي.

كنت أرتدي لون بلدي، اللون الأزرق المميز للسماء والبحر، فكنت أشعر أنني أسرع عدّاءةً في العالم. كم وددتُ أن يكون أبي معي. في بعض الأحيان، كنت أعتقد أن وجود عليّ كان يكفيني، إذا لم يكن بمقدوري اصطحاب أبي. من خلال أعينهما، كان بإمكاني فهم أن كل ما كان يحدث لي كان حقيقيّاً. كان أبي سيهمس في أذنيَّ، بهدوءٍ: "كنت قد أخبرتك بهذا، يا محاربتي الصغيرة". كلماتٌ كانت سوف تمحو الشكوك كافة التي كانت تراودني. بعد ذلك، كان سيطبع قبلةً على جبيني، فكنت سأنحني أمامه، فالآن أصبحت طويلة القامة، ولم أعد مضطرةً للوقوف فوق ركبتيه. كان سيقول لي فقط: "اذهبي. اذهبي، وحقّقي الفوز".

تناوب السائقان على قيادة الحافلة عدة مرات، وخلدتُ إلى النوم معظم الوقت. كان زاسَّان يراقبني.

بعد رحلة استغرقت ثمانٍ وعشرين ساعةً، وصلنا إلى جيبوتي.

عشية يوم المسابقة، كنا قد استرحنا، بدرجة، تجعلنا نكون في قمّة مستوانا. النوم في أحد الفنادق كان واحداً من تلك الأشياء - مثل ركوب سيارة، والسفر في حافلة، وارتداء الزّيّ الرياضي الصومالي - التي لطالما بدت لي مستحيلةً. ومع ذلك، كان كل شيءٍ حقيقيّاً. في مكانٍ ما كان حظي قد أضاء. ربما كان أبي مَن أضاءه، مِن مكانٍ ما خفيٍّ، لا يعلمه إلا هو.

لم يكن الفندق جميلاً، كما أنه لم يكن نظيفاً، بالدرجة الكافية، لكنه كان الفندق الذي تمكّنت لجنتنا الأولمبية الفقيرة أن توفّره لنا. ومع ذلك، كانت لدي غرفة خاصة بي، يوجد فيها سرير وفراش وسجادة على الأرض. كانت تلك الغرفة قد ساءت حالتها، بفعل الزمن، ويوجد فيها آثار لسجائرٍ محترقةٍ. إلا أنه لم يكن هناك حيواناتٌ ليليةٌ، مثلما لم يكن هناك عناكبٌ، أو صراصيرٌ، كانت تثير غضب أوبا، الذي كان يوقظنا صراخه من وقتٍ لآخر. لم تكن هناك أشياء، لا تعمل. فقط أشياء جميلة. لكن أجملها على الإطلاق كان الحمَّام. لم يكن لدي حمَّام منذ ولادتي. كنا نستخدم - دائماً - الحمَّام المشترك الموجود في الفناء. كوخ يوجد في منتصفه ثقبٌ كبيرٌ، كان يجب إفراغه أسبوعيّاً. لم يكن لدينا مجرى للماء، مما كان يضطر إخوتي للذهاب كل مساءٍ قبل العشاء؛ لكي يحضروا الماء من البئر. هنا في فندق جيبوتي، كان لدي حمَّامٌ كاملٌ مخصصٌ لي.

حوض مزوّد بصنبور. كان متّسخاً بعض الشيء، وترك مجرى المياه المستمر بقعاً، يميل لونها إلى الاحمرار، لكنني عندما كنت أفتحه كانت تنهمر كل المياه الموجودة في العالم.

حوض استحمام مزوّد، بدشّ. كنت أستطيع أن أقف أسفله، وأفتح الماء الدافئ، وأغتسل كما أشاء دون أن تقول لي أمي شيئاً.

علاوةً على ذلك، كان هناك حمَّام لقضاء الحاجة. كان بإمكاني شدّ خزان ماء المرحاض، فتختفي الروائح الكريهة.

بعد عشر دقائق، هممت بالنزول إلى موظفي الاستقبال، واستدعاء تاجيري؛ لينادي على هودان؛ كي أقصّ عليها كل شيءٍ. لكنني أحتفظ بكل شيءٍ إلى العودة.

تلك الليلة، على ذلك الفراش، خلدتُ إلى نومٍ عميقٍ، بدا لي، وكأنه أبديٌّ.

في صباح اليوم التالي، وصلنا بالحافلة مباشرةً داخل الاستاد. كان استاداً حقيقيّاً، لم أكن قد رأيتُ مثله من قبل. حتى استاد هرجيسا لم يكن يشبهه. كان هذا استاداً حقيقيّاً، كما كان أكبر من الاستاد الجديد الذي يوجد لدينا في مقديشو، والذي تحتله دبابات الميليشيا المسلحة. كان كبيراً، كبيراً للغاية. كان يحتوي على مدرجاتٍ مرتفعةٍ للغاية، بحلقاتٍ متعددةٍ مليئةً بالجمهور الذي لم يكن يتوقف عن الحركة، والتشجيع في أصوات مجتمعة، والغناء والتصفيق والصفير.

كنتُ متوتّرةً للغاية، بينما كان زاسَّان هادئاً. فقد كان يبدو، وكأنه معتاد تماماً على مثل هذه المواقف.

بدت لي المتسابقات الأخريات أطول قامةً، وأكثر اكتنازاً مني. كما أنهنّ كنّ يرتدين ثياباً أكثر أناقةً مني. فقد كنتُ أرتدي زيّاً رياضيّاً مستعملاً. وكنت أركض بقميصي وسراويلي. عصابة الرأس الإسفنجية التي كان قد أهداني إياها أبي. لم يكن بمقدور الصومال أن توفّر لي أكثر من ذلك، كما أنني لم أطلب ذلك، فقد كان ما لدي أكثر مما كنت أحتاج. أما المنافِسات الأخريات؛ كنّ يرتدين فانلات قطنية داخلية متطورة، وسراويل متناسقة. كما كانت أحذيتهنّ وجواربهنّ، من علاماتٍ عالميةٍ.

كان كل شيءٍ يزيدني توتّراً، ويجعلني أشعر بأنني خارج السياق، وأنني أدنى من الباقين. إلا أن زاسَّان كان هادئاً، كما لو كان معتاداً على مثل تلك الأجواء.

كان عليّ أن أتذكر - فقط - أنني كنت هناك؛ لأنني - مثل باقي المتسابقات - كنت أمثل بلدي، ومن ثم؛ كان مطلوباً مني أن أبذل قصارى جهدي. أن أبذل قصارى جهدي دفعةً واحدةً: فلم تكن هناك تصفيات، كانت المنافسة تكمن برمتها في العدو لمسافة مائتي متر.

"عليك أن تركضي، بكل قوتك"، هكذا قال لي زاسَّان عندما كنا ننتظر دورنا في السباق، على جانب مضمار السباق.

"سأحاول".

"سامية". نظرتُ إليه. خفض صوته، وكأنه يهمس في أذني. "لن تفوزي اليوم. لن تقتربي حتى من الفوز. لكنْ؛ أريني ما يمكنك فعله. أثبتي لي أن مضمار السباق والجمهور والمتسابقات لا يخيفونك".

أغمضت عينيّ، كما لو أن أشعة الشمس قد صدمتهما، محاولةً ألا أنظر إلى الأسفل. "أنا لا أخاف من أي شيء أبداً، زاسَّان"، كذبتُ عليه.

"جيد. لا تخشي شيئاً اليوم أيضاً. سترين أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام". ثم ابتعد باتجاه نهاية المضمار، وأخذ الزّيّ الرياضي الذي كنت قد خلعته، من أجل القيام بالإحماء، ثم تركني وحيدةً، أنتظر النداء.

وكما كنت قد فعلتُ في هرجيسا، وكما كنت قد اعتدت أن أفعل في مقديشو وقت المساء، استلقيتُ على الأرض. كان ذلك قد أصبح طقساً. كان يروق لي الشعور بالعشب، وهو يخزني في ظهري، والاحتفاظ بتلك الرائحة الخفيفة داخل أنفي. طقسٌ كنت أعلم أنه سيجلب الحظ لي هناك أيضاً.

عندما سمعت اسمي في السماعات الخارجية، نهضتُ. توجّهت إلى مكاني، ورأسي للأسفل، محافظةً على تركيزي. كنت سأنطلق من الحارة الخامسة.

في وقتٍ أقل بكثير مما كنت أتوقع، انطلقت إشارة البدء.

بوووم.

بذلت قصارى جهدي، كل ما استطعت فعله.

كانت المتسابقات الأخريات - ببساطة - أسرع مني، كان زاسَّان محقاً. بذلتُ أقصى ما كان في وسعي، لكنْ؛ لم يكن بإمكاني القيام بأكثر من ذلك. حتى ولو انفجرت عضلاتي، لم يُجْد ذلك بشيء.

أحرزت المركز السادس، من أصل ثمانية.

لم تَسِر الأمور، على ما يرام، لكني كنت أشعر، وكأنني لمستُ السماء بيديَّ.

كان أبي قد تطلّع إلى وجهي من المكان الذي كان يوجد به، وكان سعيداً على الأقل مثلي، كنت أشعر بذلك. ربما أكثر مني. كانت محاربته الصغيرة قد ركضت، وبذلت قصارى جهدها، حتى وإن لم تحقّق الفوز. لكن ذلك لم يكن يهمّه حقاً، كنت أعرف هذا. فقد كان كل ما يهمّه هو أن أبذل أقصى ما في وسعي.

بعد ذلك بيومين، في المنزل، أخذتُ أحكي للجميع كل ما حدث. الرحلة، الفندق، الاستاد، المنافسات، عدد المتفرجين، زاسَّان، كل شيءٍ. كنت أذهب إلى أشقائي راغبةً في أن أحكي لكل واحدٍ منهم على حدة القصة كاملةً. كنت منتشيةً.

لكن هودان كانت تبدو غريبة نوعاً ما.

كانت سعيدة، لكني كنت أشعر أنها بعيدة. بدت لي، وكأنها تريد أن تقول لي شيئاً، لكنها كانت تنتظر الفرصة المناسبة، حتى وإن كانت تحاول جاهدةً ألا تجعلني أشعر بشيء. لكن لم تكن توجد بيننا أسرار. كنت أعرف كل شيءٍ عنها، بما في ذلك أدقّ التفاصيل، كما أنها كانت تعرف كل شيءٍ عني.

قبيل النوم قالت لي إنها تريد التحدث معي، وإنها اتخذت قراراً.

لم أفهم ما تقصده.

في البداية، بين الدموع والنحيب، كان تكرّر أنها قد قرّرت.

أمسكت بيدها، وأخذتها إلى الغرفة، على أَسِرتنا، في مكاننا الطبيعي. لم يكن من الممكن أن نتعرّض لشيءٍ أفظع مما كان قد وقع علينا، فقد كنا قد تجرّعنا مرارة كافة الآلام الممكنة بعد موت أبي. لكن هودان كانت مستمرة في البكاء، وكانت تقول إنها لم يكن ينبغي عليها أن تقوم بهذا، وإن هذا كان أمراً إيجابيّاً وجميلاً. بالنسبة لها، على الأقل.

ثم تحدّثتْ.

لم تعد قادرة على البقاء في بلدنا، والشعور بالذنب تجاه ما حدث لأبي كان يقتلها. كل ما كانت ترغب فيه هو مغادرة البلاد. كانت ستنتظر بعض الوقت قبل أن تخبرني بذلك، تنتظر إلى أن أنتهي من المشاركة في سباق جيبوتي، والعودة منه، إما ظافرةً بالنصر، أو على الأقل، وأنا أشعر بنفس القدر من السعادة التي أشعر بها الآن.

لكنها كانت قد اتخذت قرارها منذ شهرين. وأنا لم ألحظ شيئاً. موت أبي من ناحية، واللجنة الأوليمبية، من ناحية أخرى، جعلاني لا أرى أموراً كثيرةً، مما كان يجري حولي، مما جعلني لا أدرك أن هودان كانت تتأهّب لأخذ قرار مهمّ مثل هذا.

لم تتوقف عن القول إنها كانت السبب الرئيس في عدم وجود أبي بيننا الآن، لكنني أعرف أنني - أيضاً - كنت سبباً في هذا. بل إنني كنت أشعر داخل قلبي أن أبي قرر الرحيل؛ كي يجعلني أركض في سلام.

كانت هودان تقول إن شيئاً ما لم يكن على ما يرام؛ إذ كان أبي يدفعنا دائماً لأن نتبع غريزة الحرية الموجودة داخلنا، بل إنه كان ينمّيها داخلنا، إلا أن هذا جعله أعرج في البداية، ثم أزهق روحه بعد ذلك.

توسلتُ إليها، حاولتُ بشتى الطرق أن أذكرها بما كنا قد تعاهدنا عليه منذ سنوات - الأمر الذي ظل يمثل لي أهميةً كبيرةً - بألا نترك بلدنا أبداً. حاولت أن أقول لها إن أبي ربما قد ضحّى بنفسه، من أجلنا، كي يسمح لنا بأن نحقّق أحلامنا بأقصى قدرٍ من الحرية. أحلامنا التي كانت أحلامه هو أيضاً، أحلام تحرير بلدنا.

"ألا تذكرين ما كنا نقوله في الفراش كل ليلةٍ تقريباً؟"، قلت لها، والدموع تسيل فوق وجهي.

"بالتأكيد، أتذكر أغنياتي". كان صوتها قاسياً، كانت قد أصبحت كالحجر.

"إذاً؛ ما الذي يجعلك - الآن - ترغبين في الرحيل؟"

"لقد تغيّر كل شيءٍ، يا سامية".

"ما الذي تغيّر؟ الحرب ليست وليدة اليوم، فهي دائرة منذ زمن". قلت لها، وأنا غاضبة، بينما كنت أطرق يدي، بقوة.

"الآن توجد جماعة الشباب". أما هودان؛ كانت هادئة. "منذ زمنٍ، كان يوجد الاحترام، أما الآن؛ فلا يوجد سوى العنف".

"يجب أن نقاوم أكثر من ذلك"، أصررتُ، بينما قمتُ بخبط الفراش، بقبضتي.

"لا، مقاومتنا لن تؤدي إلا لمزيدٍ من العنف، ألا تفهمين ذلك، يا سامية؟"

كنت أؤمن بما أفكر. "يجب أن أبقى هنا، وأواصل الركض، هذا هو قدري. يجب أن أفوز بالأولمبياد، يا هودان. يجب أن أثبت للعالم، بأسره، أن بإمكاننا إحداث التغيير. يجب أن أفي بعهدي الذي قطعته مع أبي.. هذا ما يجب عليّ فعله".

"أنت لديك موهبة، يا سامية"، قالت لي هودان، بهدوءٍ، واضعةً

إحدى يديها على كتفي، "وإنه من الصواب أن تستمري في طريقك". ثم مسحت دموعها، وتمَخَّطَت. كانت تبدو كأمي عندما تتظاهر بعدم البكاء. في ذلك الموقف، ووسط ذلك الضوء، كانت هودان لديها وجه والدتنا. كانت قد أضحت امرأةً دون أن أدرك ذلك. "لكن ما أحلم به الآن هو أن أصبح حرةً. على الفور، ودون تنازلات. كما أحلم بأن أُكَوِّنَ أسرةً، الأمر الذي لم أتمكن من فعله مع حسين. أحلم بأن يكبر أبنائي في سلام. سلبتني الحربُ زوجي أيضاً، ولم أعد أعلم - بالتحديد - أين يعيش". توقفَتْ قليلاً. "الآن أحتاج حياةً جديدةً - فقط - يا سامية".

"أنا - أيضاً - أحلم بأن أصبح امرأةً حرةً، وهذا الحلم سأحقّقه هنا"، قلت لها، جاذبةً يدها من على كتفي.

"أنا، لا، يا سامية". ظلت صامتةً لما يقرب من دقيقة، إلا أنها بدت لي سنةً، أو ألف سنة. "سأرحل إلى أوروبا. ربما إلى إنجلترا، مثل محمد فرح". أشارت بوجهها إلى الصورة التي كانت لا تزال في المكان؛ حيث كنت قد علّقتها في تلك الليلة منذ سنواتٍ عديدةٍ، إلى جانب ميداليتيّ هرجيسا. "أو ربما السويد، أو فنلندا".

لم يعد هناك ما يمكن قوله.

كانت هودان قد اتخذت قرارها.

كان يجب عليّ أن أستغلّ الوقت الذي يفصلنا عن رحيلها؛ كي أفكر في الأمر، وكي لا أصل إلى اليوم الذي كانت ستفارقنا فيه، وأنا غير مستعدة وواقعةً تحت تأثير الصدمة.

كنت قد بدأت أصدق أن كلما زادت إنجازاتي في الركض، زادت خسارتي في الحياة.

-١٧-

بعد سباق جيبوتي، أهدتني اللجنة الأولمبية زوجاً من الأحذية المخصّصة للجري. تلك المزوّدة بمسامير، في النعل. ولكن الشيء الذي غيّر حياتي هو أنه بات باستطاعتي الذهاب للركض نهاراً في استاد كونز، تحت ضوء الشمس.

كل يوم كان يبزغ فيه القمر، كنا نقترب أكثر من يوم رحيل هودان. ظللت خلال الأشهر التي كانت تفصل بين وداعنا أتدرّب، كما كنت أفعل في السابق، إن لم يكن بقدرٍ أكبر. بات النفق الذي دخلت فيه بعد موت أبي أكثر عمقاً. كل ما كان يمكنني فعله هو أن أخفض رأسي، وأعدو خارجه. كان لدي هدفٌ واحدٌ: ألا أفكر في الأمر، وبهذا أتمكن من الوصول إلى التصفيات المؤهلة لأولمبياد بكين ٢٠٠٨، كما كنت قد وعدت أبي. وكنت أعلم أن الأمر برمته يتوقف عليّ، وعلى النتائج التي كنت سوف أحقّقها على أرض الملعب.

كنت قد تسرّبت من التعليم؛ لأننا لم نكن نحتمل أعباءه المادية. كلما كانت تتقدم الحرب أكثر كانت تقل الأموال في أيدي الناس. الأموال القليلة التي كانت أمي تتمكّن من جلبها إلى المنزل، كنا نُنفقها، على المأكل.

في الحقيقة، لم أكن مستاءةً من هذا الأمر، لأنني - بهذه الطريقة - كان بإمكاني الجري صباح مساء. كنت أصل إلى المنزل مساءً، وأنا متعبة للغاية، ولكنْ؛ لم يكن يهمّني ذلك، فأرتمي في الفراش قبل الآخرين، وفي صباح اليوم التالي - بعد نومٍ عميقٍ ومنعشٍ - كنت أشعر بأنني مفعمةٌ، بالطاقة. كنت أحاول - أيضاً داخل قلبي - أن أُعَوِّدَ نفسي على الاستغناء

عن أغاني هودان، ومداعباتها، ويدها التي كنت أمسك بها قبل النوم. كما كانت تفعل هي الشيء نفسه.

للمرة الثانية، كنا نستعد للوداع. ولكن الآن لم نكن لنلتقي نهاراً، في المدرسة.

قضينا تلك الفترة قبل الانفصال في حالة من التعلق والرفض المَرَضِيَّيْن. إذا كانت إحدانا - عند العودة إلى المنزل - لا تجد الأخرى، كنا نبحث عن بعضنا البعض لساعاتٍ، وعندما تجد كل واحدة منا الأخرى، لم نكن نتحدث سويّاً. أو كنا نتشاجر، الأمر الذي لم نفعله قبل ذلك قط، وعندما كانت أمي وسعيد يتدخلان؛ كي يصلحا بيننا، كنا ننفجر في البكاء، ونتعانق، بقوة.

كانت هذه طريقتنا المعقّدة لخلق مسافة بيننا.

بعد شهرين، في تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧، مساء يومٍ ما، غادرت هودان، من أجل "الرحلة". كانت قد أعدّت حقيبة ظهر صغيرة، تحتوي على أشياء قليلة، كما كان لديها الشلنات اللازمة؛ كي تتمكن من ركوب الحافلة المتجهة إلى هرجيسا - المحطة الأولى الإجبارية لمغادرة البلاد - وبرفقتها بضعة أشخاص آخرين.

دون أن تقول شيئاً لأحد، مساء ذلك اليوم، كانت قد استعدت، للمغادرة. فضلت أن تودّعنا دون المبالغة في القيام بالأمور المعتادة في مثل هذه المواقف، وخاصةً بالنسبة لأمي. لم أندهش، فقد كان هذا معروفاً عن هودان.

وهكذا لم يكن لدينا وقتٌ طويلٌ للتحية والبكاء. تعانقنا، قَبَّلَها إخوتها، وآخرهم أمي التي قبل أن تتركها تذهب، أهدتها منديلاً أبيض مطويّاً، يوجد بداخله قواقع صغيرة من البرطمان الذي كان أبي قد أهداه إياها وقت أن كانت مخطوبةً. ستحمل معها بحرنا، ذلك الذي كنا نذهب لنستمع إليه ونحن صغاراً. ربطت لها المنديل في معصمها.

ثم رحلت هودان.

رحلت سيراً على الأقدام، وحيدةً، متجهةً إلى محطة الحافلات. دون أن تدري ماذا كانت ستفعل عندما تصل إلى هرجيسا. ولكنْ؛ هكذا كانت تفعل هودان دائماً.

"الرحلة" هي إحدى الأشياء التي تراود أذهاننا جميعاً منذ ولادتنا. كلٌّ منا لديه أحد أصدقائه أو أقربائه، خاض تلك التجربة، أو يعرفون شخصاً، قام بذلك. إنها تشبه المخلوق الأسطوري الذي يمكن أن يقودك إلى النجاة، أو إلى الموت، بالسهولة نفسها. لا أحد يعرف كم من الوقت من الممكن أن تدوم. إذا كنت محظوظاً، شهران. أما إذا كنت سيئ الحظ، فربما عام، أو عامان.

منذ نعومة أظفارنا وموضوع السفر من أكثر الموضوعات التي نفضّل الحديث عنها. الجميع لديهم قصص لأقاربهم ممّن وصلوا وجهاتهم المختلفة، سواء كانت إيطاليا، أو ألمانيا، أو السويد، أو إنجلترا. طوابير من الشاحنات، تضم أُنَاساً، أفنتهم حرارة الشمس، وقتلهم فرن الصحراء. تجّار البشر والسجون الليبية الرهيبة. ثم أعداد المسافرين الذين يموتون في أصعب الطرق، عبور البحر المتوسط من ليبيا، إلى إيطاليا. هناك مَن يقول إنهم بالآلاف، وهناك مَن يقول إنهم بمئات الآلاف. تعوّدنا منذ ولادتنا على سماع هذه القصص، وهذه الأرقام التي لا أساس لها؛ لأنّ مَن يصل، يقول - دائماً - الشيء نفسه عندما يتصل بعائلته في بلده: لا أستطيع أن أصف كيف كانت "الرحلة". كانت أمراً فظيعاً، هذا مؤكد، ولكني لا أستطيع أن أصفها، بالكلمات. هذا هو السبب الذي يجعل الأمر يكتنفه - دائماً - الغموض المطلق. لغز ضروري للبعض لبلوغ النجاة.

هودان، مثل كل أولئك الذين يرحلون، كانت تعرف أنها ستصل إلى شمال أوروبا، وأنها سوف تقطع تلك العشرة آلاف كيلومترات، بطريقةٍ، أو بأخرى. ودّتْ لو تلتقي شاباً مناسباً، فتتزوّج من جديد، فتنجب أولاداً،

وتعيش حياةً سعيدةً. كانت تنوي أن ترسل إلينا أموالاً كل شهر، بعضها لأمي، والبعض الآخر لي؛ كي تساندني في الركض، كما كانت تنتظر أن يستقرّ بها الحال؛ كي تتمكن من تحمّل تكاليف "رحلتنا" نحن أيضاً. كان هذا ما يفعله الجميع، وكانت هودان تعرف هذا، بل كان من المسلّمات لديها. التفاصيل كافة التي كانت تتخلّل هذا الأمر لم تكن تستحق التفكير.

وهكذا، بهذه الخفة التي يتخلّلها فقدان الوعي، كانت قد رحلت.

نحن، بالطبع، كنا متخوّفين للغاية. كنا نعلم أنه من الممكن ألا نتمكّن من الحصول على أخبارها، إن لم يكن من وقتٍ، لآخر، وهذا - بدلاً من أن يتركنا في أيدي الأمل الأعمى - كان يقلقنا، بدرجةٍ أكبرٍ.

بين الحين والآخر، عندما كانت تتمكّن من العثور على هاتف، كانت تتصل بنا. كان سعيد قد اشترى هاتفاً خلويّاً، وهكذا كنا نتجول، بينما كانت هودان تستطيع أن تتحدث إلى كل واحدٍ منا. في بعض الأحيان، كما كان قد حدث عندما كانت في السودان، ثم في ليبيا، إذا كان هناك اتصال بالإنترنت، كنا نحدد موعداً بعد ساعة، وكنا نبقى ساعات، يكتب كل منا للآخر. كنت أذهب إلى مقهى تاجيري، المكان الوحيد الذي يوجد فيه جهاز كمبيوتر، والقريب من منزلنا. كنا نقوم بذلك لبضعة أيامٍ متتاليةٍ عندما كانت تضطر للتوقف في مكانٍ ما، تنتظر أن يتمكن سعيد، أو عبدي فتاح، أو شفيتشي، أو أمي من جمع ما يكفي من المال، وإرساله لها؛ كي تدفع إلى المهرِّبين ثمن قطع مسافة أخرى من "الرحلة". كانت هودان تنتظر اليوم الذي ستذهب فيه لسحب المال من كشك تحويل الأموال، كما لو أنها كانت تنتظر الموت.

على الرغم من أنها كانت تحاول جاهدةً أن تتظاهر بعكس ذلك، فإنني كنت أعلم أن "الرحلة" كانت تصيبها بالذعر. وكيف لا؟ فقد كانت بمفردها، لم يكن لديها المال، وكانت فريسةً لمهربي البشر الذين كانوا يسمّونهم بـ"الحيوانات"، وكانوا يوسعونهم ضرباً، إن لم يدفعوا المال.

من حينٍ لآخر، كانت تكتب لي أنها خائفة، خائفة للغاية. بين الحين والآخر، كانت لا تستطيع النوم. وأنا، حتى وإن كنت خائفة، بدرجة أكبر منها، كنت أكتب لها: "لا تقولي - أبداً - إنك خائفة، يا أختاه. إن لم تفعلي ذلك، فإن الأشياء التي تتمنّينها لن تتحقّق".

كان هذا ما علّمني إياه أبي عندما كنت صغيرةً. لا يجب أن تقول إنك خائف، وإلا فإن الخوف - ذاك الوحش الشرير القبيح - لن يرحل أبداً.

"لا تقولي إنك خائفة، يا صغيرتي سامية"، هكذا كان يقول لي أبي، وأنا كنت أكرّر ذلك على مسامع هودان. "لا تقولي ذلك".

لن تصل إلى أوروبا، إن قالت بأنها خائفة.

أرادت المشيئة الإلهية أن تكون هودان بين الأشخاص الأكثر حظاً.

في أوائل كانون الأول/ديسمبر من عام ٢٠٠٧، بعد مرور شهرين فقط على "الرحلة": تمكنت من الصعود على زورقٍ قديمٍ، انطلق من ميناء طرابلس، وأوصلهم إلى سواحل مالطا.

كانت قد وصلت.

كانت قد تمكنت من هزيمة الوحش.

كانت في أوروبا.

-١٨-

بعد ثلاثة أسابيع من وصول هودان، وبعدما سيطر الحزن والكآبة على كل شيءٍ في غيابها، تلقّيت الخبر الذي غيّر حياتي إلى الأبد، ذلك الخبر الذي كنت أنتظره منذ ولادتي: كنت سأشارك في دورة الألعاب الأولمبية في بكّين العام التالي.

عندما دعاني زاسَّان إلى مكتبه؛ كي يبلغني بهذا الخبر، لم أصدق أذنيّ. بمجرد أن نطق كلمة "الأولمبياد" تَوَلَّدَ داخلي فراغ. استمرّ في الحديث، ولكنني لم أكن قادرةً على سماع شيء.

"سامية، نحن نعتقد أنه يمكنك أن تعطي الكثير للجنتنا الأوليمبية، ولأمتنا"، هكذا استهل حديثه.

"شكراً، زاسَّان"، أجبته.

"إننا نقدر جهودك، وإرادتك الحديدية، والرغبة في الفوز التي تظهرينها.."

"شكراً مرةً أخرى، زاسَّان". كانت هذه هي المرة الأولى التي يستدعيني فيها إلى مكتبه، ويقول لي مثل هذا الكلام. كنت أحاول أن أفهم ماذا كان يقصد بحديثه هذا.

".. لن تتمكني من الحصول على تصنيفٍ متقدمٍ، يا سامية.. لكننا فكرنا في أنك يجب أن توظّفي رغبتك في الفوز كتجربةٍ تمهيديةٍ لدورة الألعاب الأولمبية المقبلة التي ستقام في لندن ٢٠١٢ .. كي تتأقلمي على الأمور

.. لذلك أطلب منك - إذا كنت تشعرين أنك قادرةٌ على ذلك - السفر إلى الصين، والعدو في هذا الأولمبياد".

في تلك اللحظة، انفصلتُ عن العالم. تدفّقت كل أفكاري نحو صورةٍ واحدةٍ، لحظة من الهدوء والصفاء: كرسي القش، نافذة تدخل منها أشعة الشمس المائلة التي كانت تضيء نصف الأرضية الغبراء، غرفة، تلك الخاصة بأبي وأمي، وأنا أقف على قدمي أمام أبي، وأعاهده على أنني سأتمكن من تحقيق ذلك: الذهاب للمشاركة في دورة الألعاب الأولمبية في سن السابعة عشرة.

وها هي الدموع. اثنتان. الدمعتان المعتادتان.

اعتقد زاسَّان أنها دموع الفرح، ثم قال مزحةً، لم أدركها جيداً. لكنه كان محقاً في نصف ما كان يقول فقط. فهذه الدموع كانت تنبع من أعماقي، من غضبي أن أبي لم يكن معي في تلك اللحظة، وأن أختي لم يكن بإمكانها مشاركتي الفرحة، وأن أفضل صديقٍ لي كان قد فرّ منذ سنواتٍ عديدةٍ مع جميع أفراد أسرته.

كانت اللجنة الأولمبية قد اختارتني وعبدي سعيد إبراهيم، وهو فتى في الثامنة عشرة من عمره، كان قد أصبح في الأشهر الأخيرة أفضل صديقٍ لي، ورفيقي في التدريب. في البداية، كان هذا الفتى قد أثار لدي الشعور بالشوق لعليٍّ، ذلك الشعور الذي سرعان ما تغلبت عليه، إلى أن تلاشى تماماً.

كنا نتدرّب كلَّ يومٍ.

ولكنْ؛ في ظل "جماعة الشباب" التي كانت شوكتهم تقوى يوماً بعد يوم، كان كل شيءٍ قد تدهور. في بعض الأحيان، لم يكن باستطاعتنا بلوغ استاد كونز. حيث كان يستوقفنا رجال الميليشيات، ويشتموننا، أو يطلبوا منا المال بعد أن يتهمونا بأننا موالون للدول الغربية. في تلك الأيام، كنا

مضطرين للجري في الطرق، آملين ألا نقابل ميليشيات أخرى بين إطارات السيارات المشتعلة، أو القمامة المحروقة في الأماكن المفتوحة.

وبرغم أنني كنت إحدى الرياضيات المسجّلة لدى اللجنة الأولمبية، فكان يجب عليّ الركض، وأنا مغطاة. لم يكن هناك مَن يكترث بما كنت أفعله، أو باسم مَن. كان يجب عليّ احترام تعاليم القرآن الكريم، وتغطية رأسي وجذعي وأطرافي.

صباح أحد الأيام، أوقف عبدي اثنان من ميليشيا قبيلة هاويِّة، وسلبوه حذاءه. الآن تستطيع أن تركض، بشكلٍ أفضل، هكذا قالوا له. أيها الزنجي. هكذا تركض حافي القدمين، كالأفريقي الحقيقي.

كنا نحاول - دائماً - تجاهل ما يحدث، ونحاول أن نتدرّب، بما كان لدينا: دون مدرّب، دون قنّي، دون طبيب، ودون حتى الطعام. لم يكن لدينا الطعام المناسب للرياضي، الذي يحتوي على الكمية المناسبة من السعرات الحرارية والبروتينات والفيتامينات والأملاح المعدنية. في بعض الأحيان، كان ينقصنا الطعام الذي يسمح لنا بالعيش، بشكلٍ لائقٍ.

كانت الأموال التي تجنيها أمي في تناقصٍ مستمر، بل إنها باتت منعدمةً تقريباً، ومن حينٍ لآخر، كنا نضطر لتناول *أنجيرو* المطبوخ على *البورجيكو* بجانب الماء فقط.

الخبز والماء.

لكنني كنت أملك ساعة المقياس الرياضية، وهذا أهم شيء، على الإطلاق. كنت أراقب التوقيتات التي باتت تستحوذ على تفكيري رغم كل الصعاب. كان يجب أن أحسّن من التوقيت، وإلا كنت أدخل في أزمةٍ عميقةٍ، لا أخرج منها إلا بمساعدة عبدي. وبعدها كنت أنطلق من جديد، بمزيدٍ من الطاقة.

كنا على اتصالٍ دائمٍ مع هودان. كانت تتصل بنا على هاتف سعيد

الخلوي، أو كنا نتحادث عبر الإنترنت لساعاتٍ. كان قد استقر بها الحال في مالطا، وكانت قد خُطِبَت إلى عمر، وهو فتى صومالي، تعرفت عليه أثناء "الرحلة". كان قد ساعدها كثيراً، وبفضله تمكنت من اجتياز صعوبات "الرحلة". حدثتني عن عمر على الفور، ففهمت أنها كانت مغرمةً به، من أول مرةٍ، نطقت فيها اسمه.

في شهر نيسان/أبريل تلقينا خبراً رائعاً، بدا لي في البداية مستحيلاً، إلا أنه بعد ذلك، ملأني بالفرح.

صغيرتنا هودان، التي كانت شقيقتي الكبرى، لكنها كانت - دائماً - معي أصغر أفراد الأسرة، كانت حاملاً.

كانت قد أخبرتنا بذلك صباح أحد الأيام بمجرد أن قامت بعمل اختبار الحمل، وتلقت التأكيد. كانت في غاية السعادة. كانت تعيش هي وعمر في مالطا منذ وقتٍ طويلٍ، في سكن، وَفَّرَتْهُ الحكومة والمنظمات الإنسانية لهما. كانا قد قرّرا أن يُكَوِّنوا أسرةً، وأن ينتقلا إلى الشمال، ربما إلى السويد، ربما إلى فنلندا؛ حيث كان هناك مزيد من الدعم المقدّم للاجئي الحرب.

في كل مرةٍ كنا نتراسل كتابيّاً، كانت هودان تقول إنها تشعر بأنها تصبح أنثى. كانت تشعر أنها كانت سوف تصبح مثلي، لديها ساقان سريعتان. في الأسبوع العشرين، كانت تحكي لي ما تشعر به، وكانت تركض كالمجنونة.

وعلى هذا الحال، مرت أربعة أشهر قبل السفر إلى الصين. بين التدريبات، وبعض الاجتماعات القليلة في اللجنة الأولمبية لفهم كيفية تحسين توقيتاتي، وتوقيتات عبدي، والمكالمات الهاتفية الرقيقة لهودان.

أما والدتي؛ فكان خوفها يتزايد، على نحوٍ مستمر.

كان موت أبي ورحيل هودان جعلاها لا تطيق أيّ افتراق، حتى وإن كان مؤقتاً. كل مرةٍ كان يتطرق أحد الإخوة إلى موضوع الأولمبياد، كانت

تفقد رشدها. كنا نقول لها إنها ينبغي أن تُسَرَّ لذلك، وإنه أمر استثنائي أن تشارك ابنتها في أولمبياد. لكنها كانت قد بلغت مرحلة، جعلتها ترى في الأشياء عواقبها السلبية المحتملة.

كان ذلك يحدث كل يومٍ تقريباً، قبل العشاء. بطبيعة الحال، كان الخبر قد انتشر بسرعةٍ، في حي بونديري المشوَّه.

كلما كان يقترب موعد السفر، يزيد عدد الأشخاص الذين يأتون لزيارتي، يحملون لي أشياءً للذكرى، أو هدايا صغيرةً، متمنّين لي حظاً موفقاً. كلهم أناسٌ، تربيت بينهم، إنهم أهلي الذين شهدوا مولدي ونشأتي. أناسٌ كنت أحبهم، وكانت مودتهم تجاهي كنزٌ ثمينٌ للغاية.

"سامية، نتمنى لك رحلةً سعيدةً، وأن تشرفي بلدنا"، هكذا كانت تقول لي آسية، بصوتٍ مرتجفٍ، وهي سيدة عجوز حملتني فوق ذراعها يوم مولدي، فكنت أعدّها جدتي، نظراً لأن اثنين من أجدادي كانت قد وافتهما المنية، والاثنين الآخرين كانا يعيشان بعيداً عنا، في الجزيرة. "واحتفظي بهذا"، أعطتني قميصاً قطنيّاً، "اشتريته من السوق لسفرك، كي يجلب لك الحظ السعيد. لست أدري، إن كنتِ سترغبين ارتدائه عندما تركضين..".

"بالتأكيد، أيتها الجدة آسية، لا تقلقي، سوف أبذل قصارى جهدي. سوف أرتدي هذا القميص أثناء التدريبات"، أجبتها.

"سامية، أبلغي الصين سلامنا، ولا تأكلي تلك الحيوانات الصغيرة الغريبة المقلية"، هكذا كان يقول لي تاجيري، صديق أبي وياسين.

"حسناً، تاجيري، سوف أتناول الفواكه الطازجة والأرز فقط"، طمأنتُه.

وهلم جراً.

كان يأتي في اليوم عشرة أشخاص - على الأقل - لمباركتي.

وعندما كانوا يحاولون تهنئتي، كنت أحاول أن أقلّل من شأن ذلك الأمر،

قائلةً لهم إن هذه لم تكن سوى مسابقة، مسابقة كباقي المسابقات، وإنها لم تكن شيئاً بهذا القدر من الأهمية.

ولكن داخلي لم يكن هناك الكثير الذي أقلّل من شأنه.

كنت صغيرةً؛ لأنني كنت محارِبةً أيضاً.

وباتت المحارِبة الصغيرة مستعدةً، مرةً أخرى، للقتال.

-١٩-

عشية يوم سفري إلى الصين، اتصلت بنا هودان، وأخبرتنا أنها كانت على وشك الولادة، وسوف تبيت في إحدى المستشفيات، ولم يكن هذا من قبيل الصدفة أيضاً، بل كانت إشارةً من القدر.

كنت أشعر أنني منجذبةٌ بشدة لذلك الكائن الصغير الذي كان على وشك أن يولد، من علاقة حية وقوية للغاية، حتى ولو كانت تفصل بيننا مسافاتٌ بعيدةٌ، ولم أكن قد رأيت بطنها، وهي منتفخة قط. كان يوم ٦ آب/أغسطس ٢٠٠٨.

لم يكن ينقصني سوى ذلك الخبر؛ كي أحرم من النوم تماماً. في تلك الليلة، لم أستطع النوم.

كانت مجرد فكرة الصعود على متن طائرة تؤلمني، بشدة، وكان الذهاب بعيداً يخيفني أيضا. إلى الشرق، إلى مكانٍ قلما سمعت عنه، وكنت أعرفه - فقط - من خلال نماذجه النمطية. كنت أتخيل أن الأشخاص هناك لديهم بشرة صفراء. ثم إنني لم أفهم - أبداً - كيف كانوا يستطيعون الرؤية، من خلال تلك الشقوق التي كانت لديهم بدلاً من الأعين. بالإضافة إلى ذلك، كانوا يتحركون، بسرعةٍ كبيرةٍ، فكان الأمر يبدو مثل وضع القدم داخل عشّ نملٍ هائجٍ. كنت خائفة. ولكنْ؛ وأكثر من أي شيء، كانت المسابقة تفزعني. كنت قد شاركت في العديد من السباقات، ولكني لم أشارك أبداً - باستثناء سباق جيبوتي - في سباقٍ ذي أهميةٍ حقيقيةٍ. لم أكن أعرف ما الذي كان ينتظرني.

كيف كانت ستكون المتسابقات الأخريات؟

فكرتُ في الرياضيات الحقيقيات اللائي كنتُ أعتبرهنّ قدوتي، فكنت أشعر أنني غير مؤهّلة، بشكلٍ كافٍ. لم يكن لدي حتى مدرّب. مَن يدري في ما كان عبدي يفكّر في تلك اللحظة، وهو في فراشه. في صباح ذلك اليوم، في المعسكر، بدا لي أنه أكثر توتّراً مني. هل كنت سأتمكن من الركض؟ أم كنت سأتعثر بعد الخطوة الأولى؟ أم كانت ستظل قدماي عالقتين عند مساند الأقدام، فأتدحرج على الأرض مثل حزمة مترهّلة من الكرشة أمام كاميرات العالم بأسره؟ وكم عدد الأشخاص الذين سيشاهدون وجهي؟ كان زاسَّان قد أخبرنا بأن عددهم قد يقارب المليار شخص، من كافة بلدان العالم.

مليار كان عدداً لم أكن قادرةً على تخيله. عندما كنت أفكر في عددٍ كبيرٍ من المتفرجين، كنت أفكر في استاد جيبوتي، ومدرجاته المليئة بالنساء والرجال والأطفال المحتفلين والمهلّلين، من أجل السباقات. ولكن مخيلتي كانت تتوقف عند هذا الحد. كان عدد هؤلاء يبلغ ثلاثين ألف شخصاً ربما. أما مليار! أي استادٍ هذا الذي يسع مليار شخص؟! كان التفكير في هذا يصيبني بالدوار. إلا أن أفكاري بعد ذلك كانت تقوم بجولةٍ أخرى، وفي نهاية كل جولة، كانت تتوقف عند صورة ابنة شقيقتي التي كانت في طريقها للخروج إلى هذا العالم، والتي كانت قد بدأت بالفعل تركل داخل بطن أمها؛ كي تركض. وكل شيءٍ كان يعود إلى هدوء الأحداث المألوفة والمعروفة.

كل شيءٍ كان سينتهي قريباً. الصين. دورة الألعاب الأولمبية، هذه الكلمة التي كان مجرد الاحتفاظ بها في رأسي يجعلني أنفجر. ما كان كل شيءٍ ليدوم دوام الحلم. كنت سأعود إلى المنزل، وأحتضن - من جديد - أمي وإخوتي، وأستأنف العدو في ملعبي المُحَبَّب والمتهالك، كما كان الحال دائماً.

في صباح اليوم التالي انطلقنا نحن الثلاثة. أنا وعبدي ونائب رئيس اللجنة الأولمبية، دوران فرح.

لم تَسْرِ الأمور، كما كنت آمل، بأن يخلصني شروق الشمس من مخاوفي. لا. كانت فكرة الهبوط في الصين تملؤني بالأدرينالين، ولكن التفاصيل التي تخلّلت الرحلة كانت تُهَدِّئ من روعي.

لم تكن الطائرة تخيفني، فحسب، بل كانت تضعني في حالة من الاضطراب الذي كاد يصل بي لمرحلة الإغماء. ربما - أيضاً - لأنني لم أكن أتناول الطعام منذ أيامٍ.

عندما رآني في مقر اللجنة الأولمبية كل من عبدي وزاسَّان ودوران فرح سألوني إذا كنت قد مرضتُ، أو إذا كنت قد أُصَبتُ بالملاريا. كانت قواي قد خارت تماماً. أجبروني على شرب الماء والسكر وشراب محفّز للطاقة. كانت معدتي مغلقةً، لدرجة أنني اضطررت للذهاب إلى الحمَّام؛ كي أتقيأ تلك السوائل القليلة التي شربتها.

في المطار، بدلاً من أن تتحسّن الأمور، ازدادت سوءاً. لم أكن قد ذهبت إلى هناك قط. بالنسبة لي، منذ أن وُلدت، كانت الطائرات تبدو، وكأنها تنينٌ يبحر في السماء مُخَلِّفاً وراءه ذيولاً بيضاء، لا نهاية لها. لم يسبق لي مجرد التفكير في أنني - يوماً ما - سأصعد على متن إحداها. فما بالكم بأنني سأصعد - بالفعل - على متن إحداها - وأنا لا أزال ابنة السابعة عشر - للذهاب إلى بكين.

ذهبنا إلى بوابة التفتيش، نحمل معنا التصاريح الخاصة التي كانت اللجنة الأولمبية قد استخرجتها لنا، بصعوبةٍ كبيرةٍ. لم يكن لدينا أنا أو عبدي جوازات سفر، ذلك لأننا وُلدنا والحرب دائرةٌ؛ فأمام قذائف الهاون كان قَدَرُنَا أن نعيش مسجونين في أرضنا، أو - بدلاً من ذلك - أن نخوض مغامرة "الرحلة".

اندهشنا كثيراً عندما رأينا مجموعةً صغيرةً من المشجّعين، عشرة أو خمسة عشر في المجمل، يرتدون فوق جبهتهم عصابات رأسٍ زرقاء اللون،

عليها نجمة الصومال، يقفون هناك لوداعنا قبل الرحيل. من بعيد، رفعنا أذرعنا، وقلوبنا تخفق بشدة.

استجمعتُ قواي من أجل التفتيش، وحاولت أن أبدو في صحةٍ جيدةٍ قدر الإمكان. إلا أنه بمجرد أن مر الضباط، أخذت ساقي ترتجفان، لدرجة أنني أخذت أبحث عن شيء أتكئ عليه.

أثناء الانتظار، عند بوابة الصعود إلى الطائرة، بقيت ثابتةً في مكاني، جالسةً فوق كراسٍ صغيرة من المخمل الأحمر، بينما كان عبدي ودوران يبحثان عن ماكينات الكوكاكولا والقهوة. عندما نادوا على الركاب للصعود على متن الطائرة، نظرا إلى بعضهما، ثم هزا رأسيهما؛ لكي يحملوني على متن الطائرة، أجبروني على ابتلاع قرص منوم مذاب في كوب من البلاستيك، حصلوا عليه من الماكينة.

وربما نمتُ كما كانت تنام ابنة شقيقتي التي لم تكن قد وُلدت بعد، نمتُ نوماً حقيقيّاً. اثنتا عشرة ساعةً متواصلةً، بدأتها فور انتهاء الإقلاع. بدا البحر من أعلى كأنه معجزة، وقد تفتح أسفل منا، بشكلٍ غير متوقع. أردت أن أحتويه في عناق، بينما كانت الطائرة تمر وسط السحب. استطاع هذا المنظر أن يؤخّر النوم لبضع دقائق. ثم استسلمت لقوة الدواء.

باختصار، كانت الرحلة أقل تعقيداً من المتوقع.

لدى وصولنا إلى بكين، كنت مفعمةً بالحيوية. أخيراً كنا على الأرض، عاد كل شيءٍ إلى طبيعته.

كان المطار حديثاً للغاية، وضخماً ومذهلاً. كان مصمماً بالكامل من الزجاج والفولاذ، ويمكن للمرء أن يرى نفسه في أي مكانٍ. عكس ما كان عليه الحال في مقديشو؛ حيث كان يبدو وكأنه مقهى تاجيري المصمم بالكامل من الخشب والصفائح المعدنية. كانت الأبواب الزجاجية تفتح تلقائيّاً، وكانت تعكس صورة ثلاثة أجسام، اثنين يرتديان الزي الرياضي

الأزرق، والثالث يرتدي حُلَّة داكنة، بينما كانوا لا يشعرون بالارتياح أمام كل ذلك القدر من التكنولوجيا: المصاعد والسلالم المتحركة والمطاعم ذات المقاعد الكبيرة اللامعة وشبكة اتصال إنترنت واي - فاي ومحلات الكمبيوتر وكاميرات التصوير وكاميرات الفيديو.

كنا نسير ببطء وسط بحرٍ من أناس يركضون، أناس من الجنسيات جميعها، ويتحدثون اللغات جميعها. كنا نشعر بعدم الارتياح أمام مثل هذه السرعة والحداثة.

بدا الأمر كما لو أننا كنا نصل من حقبة جيولوجية أخرى. هل سيكون كل شيءٍ بنفس تلك السرعة؟ حتى منافساتي؟ وهل حقاً كنت بطيئةً إلى هذا الحد، كما كنت أشعر في داخلي؟ أم أنه كان مجرد انطباع، وأنني فوق مضمار السباق سأكون مثل الأخريات؟ ربما كنت أحمل في عظامي بطء بلدي، ولم أكن أبداً لأبلغ مستواهن.

بمجرد أن خرجنا من مطار "كابيتال"، صدمتنا الروائح المختلفة تماماً عما كنت قد اعتدت عليه. كما لو أن الهواء أصبح أكثر عذوبةً وكثافةً في الوقت ذاته، أكثر رطوبة. كما لو كانوا ينشرون من مكانٍ ما مسحوق السكر. كان يبدو لي أن السُّخام منتشر في كل مكان، ومن كل ركن، تنبعث رائحة مختلفة للفحم.

"هيا، عبدي وسامية، تحرّكا!"، صاح دوران. ظللنا طوال الوقت متجمّدين، ننظر حولنا، أما هو؛ فكان قد وقف في الطابور؛ كي نستقل سيارة أجرة. كان يقف بجانب رجل هزيل وأصلع وقصير القامة أمام الصندوق المفتوح للسيارة الصفراء.

"لنذهب.."، قلنا في انسجامٍ تام، مثل سمكتين خارج الماء. الكلمة نفسها، في التوقيت نفسه.

قفزنا داخل السيارة، أنا أولاً، ثم عبدي، من خلفي، ثم توجّهنا إلى وسط المدينة.

ناطحات السحاب. ناطحات السحاب، في كل مكانٍ، وكانت شاهقة الارتفاع، لدرجة أننا لم نكن قادرين على رؤية قمتها من داخل السيارة. كانت أشعة الشمس الحارقة تنعكس فوق الأسطح الزجاجية والفولاذية، بشكل غير طبيعي؛ حيث تعصر أعيننا، وتثني أنظارنا. مرة أخرى، كما حدث داخل الطائرة، كان تكييف الهواء قوياً للغاية، لدرجة أننا شعرنا، كما لو كنا داخل غرفة تبريد.

في الخارج، كان كل شيءٍ جميلاً وضخماً. مررنا بجوار حوض الأسماك، المكعب العملاق المليء بالماء والضوء. ظل عبدي صامتاً، أشار إليه، ثم لم يتفوّه بكلمة لدقائق كاملة، فقد كان يعتقد أن كل ذلك سحر. في الواقع، كان الأمر يبدو كذلك. فقد كان عبارة عن مبنى زجاجي هائل مليء بالماء عن آخره. لكن الزجاج كان غير مرئي، وكانت المياه تبدو، وكأنها تدعم نفسها، بنفسها.

"ولكنْ؛.."، قال.

"نعم، يا عزيزي عبدي، ألم تسمع عنه قط؟ بالتأكيد، إنه ساحر، مثل أشياء كثيرة هنا في الصين. ألم تسمع - أبداً - عن السحر الصيني؟"، مازحته. كان دوران يضحك، وهو يسير أمامنا. أما عبدي؛ فبدا وكأنه منوَّم مغناطيسيّاً، فقد ظل صامتاً.

وصلنا بعد عشرين دقيقة.

كان الفندق - أيضاً - جميلاً للغاية. لا وجه للمقارنة بينه وبين فندق جيبوتي.

أعمدة وأرضيات من الرخام، أبواب أوتوماتيكية. الغرفة كبيرة ونظيفة. كان يوجد تلفزيون وهاتف. أنعم سرير نمت عليه على الإطلاق. السجاد. دولاب لوضع أشيائي القليلة داخله. أقمشة مختلفة الأحجام، في الحمَّام. اثنان من الأحواض الرائعة، رف ضخم، يوجد فوقه دَهون وشامبو وبلسم،

من مختلف الأنواع. على الأرض المغطّاة بالرخام، سجادة بألوان الشرق. وأخيراً حوض الاستحمام.

بعد ظهر ذلك اليوم، كان كل ذلك سيكون مِلكاً لنا. كان دوران قد أوصانا - فقط - بعدم الابتعاد كثيراً. لكنني لم يكن لدي أدنى نية، للخروج. لا يُعقل أن أضحّي بهذا الحمام الرائع مقابل أن أخرج للتنزّه في المدينة.

ملأتُ الحوض. كانت ملامسة الماء الدافئ تبعث شعوراً رائعاً، فقد كانت تحيطني من الاتجاهات جميعها، وتداعبني، بطريقةٍ، لا مثيل لها. المرة الأولى في حياتي التي أجلس فيها داخل حوض استحمام. على الفور، غرقتْ الإثارة والأدرينالين والأفكار والمخاوف داخل تلك المياه، امتصّها ذلك العناق الدافئ لتلك المياه.

أعتقد أنني ظللت جالسةً داخل هذا الحوض لمدة ساعتين، على الأقل.

ثم خرجتُ، وشغّلتُ التلفاز. قنوات صينية، قنوات أمريكية. كنتُ أجد صعوبة في فهم الإنجليزية، على الرغم من أنني كنتُ قد درستها في المدرسة لسنوات. استلقيتُ على الفراش ممسكةً بآلة التحكّم عن بعد، في يدي. أخذتُ أقلّب القنوات، إلى أن رأيت صور الأولمبياد على قناتي "بي بي سي"، و"سي إن إن". أنا - أيضاً، بالتحديد بعد ستة أيامٍ فقط - كنت سأظهر على تلك الشاشة. كان العالم، بأسره، سيشاهدني أركض، العالم، بأسره، كان سيقرأ وجهي، كما كنت أفعل في تلك اللحظة مع باقي الرياضيين المتنافسين.

"لا ينبغي أن أكذب"، قلت لنفسي. سيرى الناس ما أنت قادرة على فعله. سيراه العالم، بأسره. مليار شخص.

نهضتُ من الفراش، وذهبتُ أمام المرآة التي كانت ممتدةً، من الأرض إلى السقف، بجانب طاولة التلفاز. كنتُ نحيفةً للغاية. كخيط من العشب حقاً. كانت ساقاي قد أصبحتا مثل ساقيٍّ أيَّلٍ صغير، وكان أبي محقاً عندما كان يقول لي ذلك، وأنا صغيرة. لم تَقْوَيَا كثيراً منذ ذلك الحين.

قمتُ بإعطاء تعبيرين، أو ثلاثة تعبيرات، بوجهي، بينما كنت أقترب من المرآة. إرهاق ما بعد السباق. اللامبالاة أمام الكاميرا قبل البداية. الوجه المضطرب أثناء السباق. ثم انفجرت في الضحك، بمفردي، واستلقيتُ مجدداً.

كدتُ أطير من السعادة.

كان مساء ذلك اليوم رائعاً. كانت حياتي كلها أمامي مليئةً ورائعةً. كنت بطلةً، وكان لدي من الوقت ما يكفي لإثبات ذلك. كنت مُذَنّباً داخل نسيجٍ مبطّنٍ، بنجومٍ مضيئةٍ، بقوةٍ.

بعد ست ساعاتٍ، تقابلنا في بهو الفندق لتناول العشاء. كنت أشعر بالارتياح، كما بدا لي الآخرون أيضاً.

خرجنا، ودخلنا في أول مطعمٍ، وجدناه.

كان عبدي جائعاً كالأسد، وكاد يأكل المنضدة. إلا أنه اضطُر لأن يرضى بطبق الأرز المعتاد. فقد كان الطعام الصيني يثير شعوره، بالقرف.

بعد يومين، يوم ٨ آب/أغسطس، عُقدت مراسم افتتاح دورة الألعاب الأولمبية. الشعور بأنك أُلقيتَ في عالم خياليّ، يسكنه عشرة آلاف رياضيّ آخرين، من مائتي وأربع دول، وهم يطوفون مرتدين الثياب التقليدية لبلادهم، كان ذلك الشعور بمثابة التجربة الأكثر إثارةً في حياتي. كان كل وفد يدخل إلى الاستاد الأولمبي وفقاً للترتيب الأبجدي لاسم بلاده. عندما جاء دورنا، كنا مبتهجين. كان الجمهور في الاستاد متحمّساً للغاية، وكان لا يزال ولعاً بمراسم حفل الافتتاح، تتابع لا نهائي من الألعاب النارية الضخمة والألعاب الضوئية والرقصات والموسيقى والعروض الجماعية التي شارك فيها الآلاف من الراقصين وقارعي الطبول ومغنّي الأوبرا. كان احتفالاً، كانت بهجةً للأعين والآذان والروح. شعور لا يُصدَّق بالغوص في قلبِ رقيقٍ ملوّنٍ، يمثّل الحب العالمي، تلك الألوان المختلفة ليست سوى قطع الثياب المختلفة المُرَقَّع بها نَفَسُ العالم.

كان عبدي يتقدّمنا جميعاً، حاملاً علم بلادنا، بفخر. عالياً مرتفعاً أزرق اللون، كالسماء والبحر، في منتصفه، نجمة بيضاء، تشير إلى القبّة الزرقاء.

وأنا خلفه، كنت أرتدي الثياب التقليدية لبلادنا، وتتدلى من رأسي الضفائر الرفيعة الطويلة التي تم تحضيرها خصيصاً لأجل هذه المناسبة، وكنت أشعر أنني جميلةً، كما كنت يوم حفل زفاف هودان.

قمنا بجولة حول الملعب، ونحن نحيي عشرات الآلاف من المشجّعين. كان الجميع يحبّنا، كما كنا نحبّ الجميع. وكنا نحبّ بلادنا أكثر من أي شيءٍ آخر.

في تلك الليلة، وأنا في الفراش، قلت لنفسي إن الحياة كانت قد منحتني أكثر مما كنتُ أستحقّ.

لكنني كنت مخطئةً.

بعد أربعة أيام، في ١٢ آب/أغسطس، وُلدت منار. تلقّيتُ اتصالاً من هودان في الفندق صباح ذلك اليوم. كانت في قمة السعادة. قالت إن منار كانت في صحة جيدة، وإنها جميلة، للغاية، وإنها تشبهني تماماً، تشبهني عندما وُلدتُ. كنتُ متشوّقةً، لرؤيتها. صباح ذلك اليوم، شعرتُ داخل قلبي أن تلك الطفلة كانت ستمثّل الفرح في حياتي.

كان يوم السباق الذي كنت سأشارك فيه - ١٩ آب/أغسطس - شديد الحرارة. في صباح ذلك اليوم، كانوا قد أذاعوا في نشرة الأخبار أن ذلك اليوم سيكون من أكثر أيام العام حرارةً. لكنْ؛ لم تكن حرارة الجو تقلقني، فأنا معتادة عليها. لكن نسبة الرطوبة كانت مرتفعةً، للغاية، فقد كاد ذلك الهواء يسلبني أنفاسي.

كنت قد استيقظتُ مطمئنةً، ولديّ رغبة شديدة في الركض. خلال تلك الأيام الثلاثة عشر، كنت قد تدرّبت أنا وعبدي جيداً، في قاعة للألعاب الرياضية المتاحة للفرق التي تحتاجها. كنت مفعمةً بالطاقة والحيوية.

بدأنا نسمع صخب المتفرّجين في المدرجات من خارج الاستاد. كان يشبه أزيز ذبابة ضخمة، في تصاعد، بينما كنا ندخل إلى مركز البناء الأولمبي الهائل.

كنت سأشارك في سباق تصفيات مع إحدى البطلات المفضّلات لديّ، العداءة الجامايكية فيرونيكا كامبيل - براون، واحدة من أسرع الرياضيات في العالم. شعرت بالدوار، ما إن عرفت بإمكانية رؤيتها، وليس - فقط - سماع اسمها في راديو الترانزستور، في مقهى تاجيري، كما كنا سنتنافس في السباق نفسه.

ظللنا في الخارج، عند جوانب مضمار السباق، نستمتع بمشاهدة الرياضيين الآخرين الذين كانوا يتنافسون، لمدة ساعتين كاملتين. كلما كنت أنظر إلى الآخرين، كانت نسبة الأدرينالين ترتفع. كنت متشوّقةً للدخول إلى مضمار السباق. كانت المدرجات كبيرة، للغاية، كما كان هناك عددٌ كبيرٌ، من الجمهور. عدد لا حصر له من الألوان والمعزوفات المختلفة وأصوات المتفرجين والأجواق واللافتات، بكل لغات العالم. في ذلك اليوم، كان يبدو أن عدد الجمهور يفوق عدد مَن أتوا لمتابعة حفل الافتتاح.

كان مبهجاً أن تتمكن من متابعة هذا المشهد، وأنت أحد أبطاله. كان هنالك العداءون ورماة الرمح ولاعب الوثب العالي والقفز بالزانة، لاعبون يرتدون زيّ بلادهم، ولاعبون آخرون جاهزون للمنافسة. كل خمسة عشر دقيقة، كان يتم عزف النشيد الوطني، لبلدٍ مختلفٍ، وأثناء ذلك، كانت كل الأشياء تتداخل مثل قوس قزح ضخم. أنا وعبدي كنا جالسين على الجانب، على الأرض، عند حافة مضمار السباق. كان يمر أمامنا عمالقة ألمان ذوو بشرةٍ شقراء، يرتدون زيّاً رياضيّاً أسود، وإيطاليون يرتدون الزيّ الأزرق، وإنجليز يرتدون قمصاناً بيضاء وزرقاء، ثم أمريكيون يرتدون ثياباً لونها أزرق وأحمر، وكنديون يرتدون ثياب حمراء، وبرتغاليون يرتدون ثياباً خضراء.

مثاليون، يتمتّعون بطول القامة والعضلات المنحوتة، تلمع أجسادهم، بفعل الكِريمات والأدرينالين. في كل مكان حولنا كانت تنتشر كاميرات التلفزيون، والمصوّرون الذين يحملون آلاتٍ طويلةً، تشبه بنادق الميليشيات، صحافيون كانوا يَنقَضُّون مثل الصقور ممسكين بالميكروفونات في أيديهم مكتوب عليها أسماء الجهات الإعلامية المختلفة التي ينتمون إليها.

عندما كانوا يقابلوننا، كانوا يتطلّعون في وجوهنا كي يفهموا مَن نحن، ثم كانوا يكملون طريقهم، دون أن يقولوا جملةً واحدةً، أو يطرحوا سؤالاً واحداً. بين الحين والآخر، كانوا يبتسمون ابتسامة شفقةٍ، أو تحفيزٍ، عندما يدركون - من ألوان ثيابنا - أننا كنا صوماليين.

لم نكن نجوماً.

ثم دخلنا مجدداً عندما نادوا على المشاركين في سباق تصفيات العدو لمسافة مائتي متر.

بينما كنت أسير داخل النفق المؤدي إلى الاستاد من الداخل، بدا لي، وكأنني لمحتُ بطرف عيني رياضيّاً إنجليزيّاً، يرتدي زيّاً رياضيّاً ذا لونٍ أزرقٍ وأبيضٍ وأحمرٍ، ذا وجهٍ معروفٍ. استدرتُ كي أرى، بشكلٍ أفضلٍ، وقفزتُ داخل أعماق قلبي.

على بعد خمسين متراً مني، وسط الميدان الأخضر، كان محمد فرح. كان يقف قرب أحد العدائين الذي كان على وشك المشاركة في سباق أربعمائة متراً متتابع. كان ذلك العداء جالساً على الأرض، يقوم بالإحماء اللازم للعضلات، وكان محمد واقفاً على قدميه، يتحدث إليه. كانت هيئته تشبه هيئة الظباء. ثم ضحكا سويّاً. وفجأةً، شعرتُ أن ركبتيَّ أصبحتا ليّنتين، كما راودتني نفسي بأن أركض نحوه؛ لأخبره مَن أنا، وأقصّ عليه حكاية الصورة المتهالكة التي كنت أحتفظ بها بجوار فراشي منذ عشر سنوات. لكنني تردّدت كثيراً، لأن دوران أمسكني من إحدى مرفقيّ، واقتادني إلى الداخل. فقد كانوا ينادون علينا للدخول إلى غرف خلع الملابس.

"هيا، حان دورك، يا سامية"، هذا ما قاله دوران الذي أيقظتني كلماته من حلم اليقظة هذا.

كان لدي ثلاثون دقيقة. حانت لحظة التركيز قبل انطلاق السباق. كان عليّ أن أمحو محمد فرح من رأسي، وأفكر في السباق فقط.

كنت وحدي. استلقيت على سرير صغير للتدليك في منتصف غرفة خلع الملابس. أغمضت عينيَّ، وأوهمت نفسي بأنني كنت مستلقيةً فوق عشب استاد مقديشو. حاولت التغلب على الشعور بالتوتر.

وفجأةً، كأن الوقت مضى في ثانية واحدة، سمعتُ أحداً يطرق الباب، برفق.

كان دوران، وكانت قد حانت اللحظة.

خارج غرفة خلع الملابس، بينما كنا نبدأ في التجمّع في الممر، نظرت إلى نفسي كيف كنت أبدو: مختلفةً عن الآخرين. كانت جدران ذلك النفق المؤدي إلى مضمار السباق مغطّاة بالمرايا، فكانت صورنا توضح هيئتنا في تلك اللحظة، بشكلٍ واضحٍ، للغاية، جعلني غير قادرة على عدم ملاحظتها.

كانت ساقاي - مقارنةً بسيقان المنافسات الأخريات - تبدوان مثل فَرْعَيْنِ جافّين. كانتا مستقيمتين، بلا عضلات. لم تكن تحتويان على تلك النتوءات التي كنت أراها في سيقان المنافسات الأخريات: لم يكن لديّ عضلات فخذ أمامية، ولا عضلات الساق. كما لم تكن لديّ العضلات الدالية، ولا العضلة شبة المنحرفة، ولا العضلة ذات الرأسين. بدت المتسابقات الأخريات أكثر ثقافةً مني. فقد كانت سيقانهنّ وأكتافهن ممتلئةً، وعضلات سيقانهنّ مشدودةً لأقصى درجة. الأمر لا يكمن - فقط - في أنه لم يكن لديّ الوسائل اللازمة لتطويرها، أعني عضلاتي، ولكني لم يكن لديّ مدرّب. كما لم يكن لديّ ما يكفي من الغذاء، اللهم إلا ما كانت تستطيع أمي أن توفّره لنا. أنجيرو وماء، أو أرز وكرنب مسلوق.

كنت أقصر المتسابقات قامةً، وأكثرهن نحافةً، وأصغرهن بِنْيَةً. هذا ما كشفت لي تلك المرآة القاسية قبل بداية السباق.

بالإضافة إلى ذلك، كُنَّ يرتدين بزّات مزيّنة ورائعة، كانت تعكس ألوان أعلام بلدانهنّ. كنّ يرتدين قمصاناً دون أكمام وسراويل قصيرة مصنوعةً من أقمشة متطورة، تلتصق، بالجسد، بقوة. أما أنا؛ فكنت أرتدي بزّتي الرياضية المعتادة التي تجلب لي الحظ: قميصاً أبيض، كانت أمي قد غسلته قبل أسبوع من سفري، والذي كنت قد وضعته بعناية في الجزء السفلي من الحقيبة. كانت لا تزال تنبعث منه رائحة الصابون المختلطة برائحة الرماد. كان البنطال الأسود الضيق الذي أرتدي يصل إلى أسفل الركبة. وفي رأسي، العصابة البيضاء هدية أبي منذ عشر سنوات، والتي كنت أحملها معي دائماً، في كل سباق، حتى ذلك اليوم.

لم تكن تحدّق فيَّ أيٌّ من المتسابقات الأخريات. كنّ يركّزن، بشكلٍ كاملٍ.

كان يجب عليّ أن أركّز بالقدر نفسه، لكن كل شيءٍ كان مختلفاً عما تعودتُ عليه. كان يبدو لي، وكأنني في موقفٍ غير حقيقي، كما لو أنني كنت في حلم. الكاميرات، الصحافيون، المدرجات الممتلئة على آخرها بالمتفرجين، ذلك الضجيج المستمر الذي يكاد يخرق الآذان؛ كي يسمعه الآخرون، الرياضيات من جميع أنحاء العالم، روائح مزيلات العرق التي كنّ يستخدمنها، كل هذه الأشياء أمام عيني، بالقرب مني. فيرونيكا كامبل - براون. كان كل شيءٍ - ببساطة - لا يصدَّق.

في تلك اللحظة، تذكّرت محمد فرح، أحد أبناء بلدي الذي يشعر بارتياحٍ شديدٍ في وسط الميدان، يضحك على الطريقة الإنجليزية، بينما كان يحفّز أحد الرياضيين ذوي البشرة البيضاء. عكسي تماماً. ذهب إلى إنجلترا عندما كان يبلغ من العمر تسعة أعوام، لم يكن خياره؛ إذ وصل هناك برفقة عائلته. أما أنا؛ كنت بنت السابعة عشر، وكانت هذه المرة الثانية التي أسافر فيها خارج بلادي، وأول مرة أسافر فيها خارج قارتي.

المرة الأولى التي أقف فيها وسط كل هذا العدد من الأشخاص ذوي البشرة البيضاء، ومن الأوروبيين والأمريكيين والصينيين. كنت محظوظةً.

للحظةٍ، رأيتُ - من جديد - وجه محمد مسترخياً وهادئاً ومطمئناً. ظننت أنه ربما كان قد حصل على ميزاتٍ، لم أكن لأستطيع الحصول عليها. ثم قلت لنفسي إن هذا هراء، وإنني كنت سوف أصل إلى حيث كان هو.

بعد خمس دقائق طويلة للغاية، نادوا علينا، فخرجنا، وسط أجواءٍ حماسيةٍ، من التصفيق الحاد كان موجّهاً - بالمجمل - إلى كامبل - براون. كانت الرطوبة عالية، للغاية، تجعل ملعب الترتان يبرق من بعيد.

كان المضمار المعتاد نفسه، الطول نفسه، لكنه كان يبدو لي، وكأنه أكبر من ذلك بكثير. بدا طوله ضعف الطول المعتاد، بل بدا أنه لا نهاية له.

مررتُ أمام فيرونيكا كامبل - براون: فائقة الجمال، مثالية، أمَّارةً كالتمثال، ينبعث منها عطر كالنجمات. أيّ العطور كانت تستخدم؟! حين رأيت ساقيها، فكّرتُ أنهما مصدر قوتها.

كنت في الحارة الثانية، الأكثر قرباً من أرضية الملعب. إلى يساري، كانت الحارة الأولى خاويةً. أما على يميني؛ فقد كانت هناك شينيكو فيرغسون، تلك التي كان الجميع يعتقد أنها واعدة، ترجع أصولها إلى جزر البهاما. وفي الحارة الرابعة، كانت تقف الكندية أدريان باور التي كانت - أيضاً - من أكثر المنافسات تميّزاً.

أثناء تلك اللحظات الطويلة، حاولت أن أفعل الشيء الوحيد الذي كان يجب عليّ القيام به: عدم التفكير في أي شيءٍ من شأنه تشتيت تركيزي.

جلست على عقبيَّ.

ثبتُّ قدميَّ عند المساند عند نقطة الانطلاق، اليمنى واليسرى، متظاهرةً أنني كنت بمفردي، وأنني كنت في استاد كونز أتدرّب مع عبدي، أو في فناء المنزل، مع عليّ الذي كان يراقب قدمي عند المساند التي كان أبي قد صمّمها بصناديق الفاكهة.

كنت أنا الوحيدة الموجودة، وأمامي المائتي متر من الترتان.

جثوتُ على ركبتيَّ، فتحت أصابع يدي جيداً فوق الخط الأبيض الذي يمثل نقطة الانطلاق، كما علمني عليّ. واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. خمسة. ستة. سبعة. ثمانية. تسعة. عشرة. أعدد أصابعي؛ كي أبقى محافظةً على تركيزي أثناء الانتظار.

فكّرتُ في أبي، لجلب الحظ.

ثم - كما لو أنني داخل فقاعة، لا نهاية لها - انتظرت إشارة البدء.

بوووم.

المسدّس. صخب الجمهور.

انطلقت المتسابقات الأخريات كالغزلان، كاليعسوب، أو الطنان.

بسرعةٍ كبيرةٍ.

تركن مساند الأقدام دون حتى أن أدرك ذلك.

أدركتُ أنني سوف أخسر السباق منذ اللحظة الأولى. مع كل خطوةٍ كانت المسافة تزداد بيني وبين المجموعة. كانت المتسابقات يخترقن الهواء، ويبدون من الخلف، وكأنهن مهورٌ تتقدم وسط الرياح.

واصلت العدو. رفعتُ رأسي، وبذلت قصارى جهدي.

كنت لا أزال عند المنحنى، بينما كانت المتسابقات الأخريات يستردن أنفاسهن بعد عبور خط النهاية.

ركضت النصف الثاني من السباق وحدي. ولكنْ؛ في الخمسين متراً الأخيرة حدث شيءٌ غير متوقع.

وقف جزء من الجمهور، وبدأ في التصفيق. في تناغمٍ. كانوا يحفّزونني،

كانوا يهتفون باسمي، كانوا يشجّعونني. كان ذلك مشابهاً لما حدث في أول انتصار لي في استاد كونز. لكنْ؛ هذه المرة كان الضجيج يصمّ الآذان.

وددتُ ألا يفعلوا ذلك. ألا يدركوا أنني كنت متأخرةً إلى هذا الحد.

عبرت خط النهاية بعد عشر ثوانٍ تقريباً بعد الأولى، فيرونيكا كامبل-براون.

عشر ثوان. مدة طويلة للغاية.

لم أشعر بالخجل، على أي حال. إنما شعرتُ بالفخر تجاه بلدي. شعور لحظي تملّكني، بمجرد أن عبرتُ خط النهاية. واصل الجمهور التصفيق، بينما كانت كامبل - براون تحيي الجمهور، وتدلي بتصريحاتٍ صحافيةٍ متتاليةٍ، وسط سرب من الصحفيين.

في صمت، قمت بأداء الدورة الشرفية حول الملعب مرتديةً حول رقبتي علم الصومال. دون ضجيج، ربما - أيضاً - دون أن يلاحظني أحد. أثناء ذلك، كنت أبحث بعيني عن محمد فرح وسط الميدان. لم يكن موجوداً. نظرتُ جيداً، في كل مكانٍ حولي. لم أكن أراه في أي مكان. ربما كان قد عاد إلى غرفة خلع الملابس، فقد اختفى وسط جولاتٍ لا نهائيةٍ في الاستاد الأولمبي.

كان كل شيءٍ قد انتهى حقاً.

هكذا كما جاء ترتيبي في السباق، تركت كل شيءٍ وراء ظهري.

كنت آخر مَن عبر خط النهاية، ورغم ذلك، فقد حدث شيء، لا يصدق: لم يمض من الوقت أكثر من عشر دقائق، وإذا بي محاطة من جميع الجهات بالصحافيين، من جميع أنحاء العالم. الفتاة ابنة السابعة عشر النحيفة كالمسمار التي تأتي من بلدٍ، تعيش حالة حرب، دون ملعبٍ، أو مدرّبٍ، تلك الفتاة التي تقاتل بكل ما أوتيت من قوة؛ لتحصد المركز الأخير. قصة

مثالية تناسب الذوق الغربي، أمرٌ أدركته ذلك اليوم. لم يَجُلْ بخاطري فكرة كهذه.

لم يَرُقْ لي ذلك. أجبت الصحافيين أنني كنت أفضّل أن يصفق لي الجمهور إذا حقّقت المركز الأول، وليس الأخير. ولكنني حصلتُ على ابتسامة من الحنان الممزوج بالشفقة.

يوماً ما سوف أريهم مَن هي سامية، بحق.

في غرفة خلع الملابس، تحت دشّ شديد البرودة، أقسمت لنفسي أنني كنت سوف أصل إلى دورة الألعاب الأولمبية، في لندن عام ٢٠١٢ مستعدةً بنفس درجة استعداد كامبل - براون.

عضلاتي في مكانها، وقلبي كبير وقوي مثل الثور.

في عام ٢٠١٢، كنت سوف أفوز.

من أجل بلدي، ومن أجل نفسي.

-٢٠-

بعد عودتي من الصين، بدت الحياة أكثر صعوبةً.

كنت أتلقّى العديد من الرسائل، في المنزل أو في اللجنة الأولمبية، من نساءٍ مسلماتٍ كنّ قد اخترنني لأكون بطلتهنّ، ومثلهنّ الأعلى. عشرات، مئات الرسائل. كل أسبوعٍ، كانت تصل واحدة مكتوبة بالحبر، وبعضها بالآلة الكاتبة. عن غير قصدٍ، كنت قد أصبحت أسطورةً لآلاف النساء، اللائي كنّ قد رأينني دون حجابٍ عبر شاشات التلفزيون، في جميع أنحاء العالم. في تلك الرسائل - التي كانت تصل من دولة الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية وأفغانستان وإيران - كان هناك شغفٌ، لا حدود له. أمل. أحلام. ثقة. كنت قد أصبحت رمزاً في عيون العالم. وكان كل شيءٍ قد حدث دون أدنى محاولة مني لفعل ذلك، أو حتى مجرد التفكير فيه.

ولكنْ؛ أصبح التجول في المدينة أكثر تعقيداً، للسبب نفسه. انتشر بين الناس أن الأصوليين من "جماعة الشباب" باتوا يكرهونني. كانوا يكرهون عبدي أيضاً، لكنني كنت امرأةً، وبالتالي كنت مهددةً، بشكلٍ مضاعفٍ.

كنت مضطرةً إلى ارتداء البرقع؛ كي أغطي وجهي، وأنا أتنقل داخل البلاد التي كنت قد مثّلتها أمام الكاميرات التلفزيونية، من جميع أنحاء العالم، بدون حجاب.

لحسن الحظ، كانت هناك هودان التي كانت تمنحني السعادة عن بعد.

كنا قد أصبحنا قادرين على التحدث مساء كل يومٍ تقريباً، وغالباً ما

كنت آخذ أمي إلى مقهى تاجيري؛ لنتواصل مع هودان؛ كي تُرِينَا منار، وتُسْمِعَنَا صوتها عبر سكايب. صحيح إذن ما كانت تقوله هي أمي: منار تشبهني كثيراً. مطابقة لصورتي عندما وُلدتُ. كانت هودان تقول، وهي تضحك، إنها تتمنى أن تصبح رياضيةً، تماماً مثل خالتها.

أثناء ذلك، كنت أستمر في التدريبات كل يومٍ، برفقة عبدي. إلا أننا بمرور الأسابيع أدركنا أنه لم يكن من الممكن أن يتحسن أداؤنا. كنا بحاجةٍ إلى دعمٍ، إلى مدرّبٍ، إلى اتّباع نظامٍ غذائيٍّ، إلى ملعبٍ حقيقيٍّ، وليس إلى ملعب، دمّرته المدافع، كما كنا نحتاج إلى أدواتٍ رياضيةٍ. في مقديشو، لم يكن هناك شيءٌ من هذا القبيل، كل شيءٍ كان يصبح أكثر تعقيداً، في كل يومٍ يمرّ، بل وفي كل ساعةٍ، تمرّ.

لم أتوقف عن التدريب بالطريقة نفسها لمدة عام، برفقة عبدي، كل يوم من أيام حياتي. عامٌ. عامٌ كاملٌ أبذل فيه العرق؛ كي أحسّن توقيتاتي، في كل دقيقةٍ، كانت تتوفر لي. ومع ذلك، لم أكن أتحسّن، كما يجب، ولا بالسرعة التي كنا ننتظرها، إذا أخذنا في الاعتبار أعمارنا أيضاً. كنا نشارك، ونحقّق انتصاراتٍ، في مسابقات، تُقام في الصومال وجيبوتي، ولكن ذلك لم يكن كافياً.

شيء ما كان يجب أن يتغيّر.

في الليل، وأنا في فراشي، كنت أتوسل إلى صورة محمد فرح أن تساعدني على إيجاد السبيل. مَن يدري أين كان هو، في ذلك الوقت، وماذا كان يفعل. كنا قد حاولنا البحث عن مدرّب، في مقديشو، ولكنْ؛ بدا الأمر، وكأن أحداً لا يهتم بنا. في بلدٍ تدور فيه رحى الحرب، لا أحد يهتمّ بألعاب القوى. لم يكن لدى سادة الحرب سبب واحد؛ كي يدعمونا من أجله، وأفراد "جماعة الشباب" كانوا يريدون قتلنا، كما كانوا قد قتلوا والدي ووالدة عبدي. حتى اللجنة الأولمبية لم يكن بمقدورها التكفّل باحتياجاتنا كافة.

كنا حمقى، ونجني ثمار حماقتهم. هذا كان حالنا. حماقة كانت تحلم بالسلام وأمل العيش معاً كإخوة.

لكن توسلاتي الليلية إلى محمد فرح - في النهاية - استجابت، حتى وإن تم ذلك بطريقةٍ مختلفةٍ، عن تلك التي كنت أنتظرها.

في تلك الأشهر، كنت قد تعرفت على صحافيةٍ أمريكيةٍ، كانت تأتي - في كثيرٍ من الأحيان - إلى مقديشو لمتابعة الرياضة في بلدان غرب أفريقيا. كانت تُدعى تيريزا. تيريزا كروغ.

كانت قد أتت لمقابلتي في استاد كونز صباح أحد الأيام، وكانت قد أجرت لقاءً صحافيّاً معي، وشعرت بالارتياح تجاهها منذ اللحظة الأولى. كنا قد أصبحنا - تقريباً - صديقتين. كانت تأتي لزيارتي كثيراً، مرةً كل أسبوعٍ تقريباً.

كنا نتحدث معاً قدر استطاعتينا. وكنت - أحياناً - أتصرف بنفس شخصية أمي الخجولة والمنطوية، فلم يكن يروق لي الإجابة عن الأسئلة شديدة الخصوصية. العائلة. الفقر الذي نعاني منه. والدي. أصدقائي. إخوتي. أختي التي سافرت. لا يروق لي الحديث عن مثل هذه الأمور، أريد فقط التحدث عن السباق.

في الساعات التي قضيناها معاً، كانت تيريزا تقول لي - دائماً - إنني أملك موهبة، وعليّ مغادرة هذه البلاد. كانت تقول لي إنها تعرف مدرّباً في أديس أبابا، في إثيوبيا.

ذات يومٍ، خلال إحدى محادثاتنا، سألتني إذا كنت أرغب في الذهاب للتعرف عليه، فقد كانت قد تحدثت معه، بشأني. كان قد شاهدني في بكين، وكان يعتقد أن هناك فرصاً جيدةً لتحسين مستواي.

كلما كانت تكرر عليّ ذلك الأمر، كنت أشعر أن هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب فعله. لم يكن هناك ثمة سبيلٍ آخر، إذا كنت أرغب في

السعي نحو تحقيق حلمي. هنا، عما قريب، كنت سأتحوّل إلى إحدى أوراق الشجر الجافة.

بل إن ذلك هو الشيء الذي كنت أتمنّاه أكثر من أيّ شيءٍ آخر: أن يكون لدي مدرّبٌ، مكانٌ طبيعيٌّ أتمكن فيه من التدريب مثل أي رياضيٍّ في العالم، وجباتٌ مغذيةٌ ومناسبةٌ لبنيتي الجسمانية، أحذيةٌ جيدةٌ، قمصانٌ جيدةٌ، سراويلُ قصيرةٌ جيدةٌ. كان ذلك سوف يمثل لي بهجةً خالصةً.

لكني كنت قد قطعت على نفسي وعلى أبي عهداً منذ سنواتٍ عديدةٍ، ولم تكن لديّ أدنى نيةٍ؛ كي أخلف به.

خلال تلك الأشهر، عاودت تيريزا هجومها مجدداً. لكنني كنت أرد عليها - دائماً - بالرفض. كانت ستساعدني - أيضاً - على الرحيل، وكانت ستحاول أن تسهّل لي الإجراءات المتعلّقة، بمستندات السفر.

على الرغم من هذا، كنت ثابتةً على موقفي: لم أكن لأترك أمي وإخوتي وبلدي، مهما كان الثمن.

يوماً ما، كنت سأتمكن من تحقيق الفوز، في دورة الألعاب الأولمبية، وسأحقق هذا الإنجاز، وأنا امرأة صومالية، ومسلمة.

وجهي مكشوف، وعيناي مصوّبتان إلى السماء.

على إحدى الكاميرات التلفزيونية، كنت سأتحدث إلى العالم، بأسره، عن كيفية القتال دون وسائل، من أجل بلوغ الحرية.

-٢١-

قبل فترةٍ وجيزةٍ من عودة تيريزا إلى الولايات المتحدة، حدث شيءٌ غير متوقّع.

كنت قد خرجت بعد تناول العشاء، مغطّاة بالبرقع؛ كي أعود إلى استاد كونز. كنت أقوم بهذا الأمر بين الحين والآخر. لم أكن أذهب هناك؛ كي أتدرب، ولكنْ؛ كي أشعر بوخز العشب على ظهري، وكي أبقى قليلاً أنظر إلى النجوم، لكي أقوم بما كنت أريد فعله عند الشاطئ، ولم يُسْمَح لي بذلك: أن أسترخي، أن أتوه وسط السماء، أن أطلق لأفكاري العنان؛ كي تطير.

عند العودة إلى المنزل، كنت أجد أمي وإخوتي في الفراش، والفناء فارغ وهادئ. كانت توجد شجرة الكافور الضخمة والمرتفعة فقط، لم يكن يهبّ أيّ خيط رفيع من الهواء، فكانت الأوراق انسيابية الشكل، تظل ساكنةً دون حركةٍ.

لاحظت في وسط الفناء تماماً وجود حزمة صغيرة ملقاة على الأرض. اقتربت. كان حجاباً أبيض مطويّاً ومعقوداً على شكل زكيبةٍ صغيرةٍ. بدا الأمر غريباً. هل نسيت أمي شيئاً ما في الخارج؟ لكنه كان يبدو أنه قد وُضع هناك، عن قصد، كي يتمكن أحدٌ من العثور عليه. في منتصف أرض الفناء البيضاء.

فتحتُه.

حبست أنفاسي.

كان يوجد داخله جبلاً من الأوراق النقدية.

حاولت أن أعدّها، بسرعة. ربما تُقارب قيمتها المليون شلن. أموال كثيرة، للغاية. تستطيع أسرة أن تعيش بهذه الأموال في راحةٍ تامةٍ لمدة عامين، وأن تتناول اللحوم مرتين في الأسبوع، والسمك يوم الجمعة. لقد كانت ثروة.

مَن فعل ذلك؟

وفجأةً سمعتُ ضجيجاً صاخباً في الغرفة التي كانت مخصّصة لياسين وعليّ. منذ وقتٍ طويلٍ، وهذه الغرفة لا يستخدمها أحد، بدت وكأنها مهجورةٌ منذ آلاف السنين. لفترةٍ قصيرةٍ، عندما كان أبي لا يزال على قيد الحياة، كان يستخدمها هو وسعيد كمخزن، بعد ذلك، لم يقترب منها أحد. لم أدخلها منذ قرونٍ. منذ رحيلهم، كنت أتصرف، كما لو أنها غير موجودة. كنت أحزن ما إن أتذكر كم قضيت فيها من الوقت مع عليّ.

ثم سمعتُ مجدداً ذلك الضجيج.

ربما كان قِطاً، أو فأراً! لكنني لم أكن - أبداً - قد سمعت - من قبل - أي ضوضاء، تأتي من هناك!

اقتربت من الباب، ببطء. لا شيء، لا يوجد أيّ صوت. فتحتُ باب الحجرة، ووقفتُ عند العتبة. كانت الحجرة مظلمةً تماماً، وضوء القمر يصل بالكاد إلى داخل الحجرة، وتنبعث رائحةٌ ثاقبة من الرطوبة والهواء الراكد والغبار.

رويداً رويداً، بدأت عيناي تتكيّفان مع الظلام.

كانت الحجرة مليئةً بالصناديق الكبيرة الخاصة بأبي وسعيد، كما كانت توجد بعض المعدات والكثير من صناديق الفاكهة المبقعة الخاصة أمي. كل شيءٍ تُرِكَ بالقرب من المدخل، وكان يحجب الرؤية عن آخر الغرفة؛ حيث كنتَ أذكر أن هناك توجد الفُرُش المتّسخة لأسرة عليّ.

سمعت مرةً أخرى الصوت نفسه الذي سمعته منذ قليلٍ، لكنه كان أقوى هذه المرة. ربما كان فأراً. تقدّمت خطوتين إلى الأمام.

ثم رأيت.

كان أحد الفُرُش قد تحرك، واقترب من الحائط الخلفي. في الأعلى، كان يوجد ظل لشخصٍ، يجلس القرفصاء.

أطلقتُ صرخةً مكتومةً، وقفزتُ إلى الخلف، فاصطدمتُ بصندوقٍ كبيرٍ من الورق المقوى، مما أفقدني توازني. سقطتُ على الأرض. وبينما قمتُ بحركةٍ مفاجئةٍ؛ كي أنهض، إذا بصوتٍ ما يعلو.

"سامية".

كان رجلاً، ربما صبيّاً، عموماً كان ذكراً، ولم يكن يذكّرني صوته، بأي شيء.

"سامية، هذا أنا، ألا تعرفينني؟"

فركتُ عينيَّ، ونظرتُ جيداً إلى ذلك الظل. كان لديه شعراً أسود وخصلاتٍ طويلةً من اللحية فوق ذقنه ووجنتيه.

ارتعشت من شدة الهلع.

لم أنطق بكلمة.

"أنا عليّ".

اقتربتُ. هل يُعقل أن يكون ذاك الرجل الملتحي هو عليّ؟ هل كان ذاك وجهه المحدّد، المنحوت، المتُألِّم؟

تقدمت خطوةً أخرى، لمستُ بقدمي الفراش. كانت العينان هما عيني أفضل صديق عندي، لكنهما كانتا مختبئتين خلف حجابٍ من القسوة.

جثوتُ على ركبتي فوق الفراش، وعلى الفور، تملكتني الرغبة في أن ألمسه من هذه المسافة.

في البداية، ابتعد، لكنه - بعد ذلك - استسلم.

تعانقنا - بقوةٍ - كما لم نفعل طوال حياتنا كلها. فوق الفراش المغطّى بالتراب، داخل غرفةٍ مليئةٍ بخيوط العنكبوت والرطوبة.

"هل عدتَ؟"، سألتُه. تذكرتُ مساء ذلك اليوم منذ سنواتٍ عديدةٍ عندما أهداني أبي زوجاً من الأحذية الرياضية، وكنت قد دخلتُ إلى هذه الغرفة؛ كي أريها لعليّ الذي كان مستلقياً على الفراش، ورأسه مخبأ أسفل ذراعه. كان صغيراً وقتها. كان طفلاً.

"أنا على وشك الرحيل"، أجاب. كان صوته غامضاً. لم أستطع أن أتعرف سوى على عينيه الصغيرتين وأنفه المسطح. لم أتمكن من رؤية شفتيه، بسبب اللحية.

"ماذا يعني أنك على وشك الرحيل، إذا كنتَ قد عدتَ توّاً؟"

"لقد بقيتُ هنا أكثر من اللازم، ما كان يجب أن نلتقي". كان صوته قاسياً.

"لماذا أتيتَ إلى المنزل؟".

"كي أترك لك *الحجاب*..".

ثم انفجر في البكاء، وقص عليّ كل شيءٍ.

كان قد انضم إلى "جماعة الشباب" منذ سنواتٍ عديدةٍ، بعد فترةٍ قصيرةٍ منذ أن قرّر أبوه الرحيل عن بونديري.

كان أخوه ناصر قد تمّ تجنيده بالفعل بعد أن تَبِعَ صديقه أحمد. بالنسبة للعم ياسين، كانت تلك ضربةً قاسمةً، مما دفعه لطرده من المنزل. كان يخشى أن ينتهي الحال بعلي أن يسلك الطريق نفسه، أن يسير على خطى شقيقه الأكبر. ومن ثم؛ رحلوا بعيداً، إلى الجنوب، في بلدةٍ صغيرةٍ، تسمّى "الجزيرة"؛ حيث كان ياسين وأبي قد وُلدا، وترعرعا هناك. كان والده

يأمل في أن يبقيه بعيداً عن المتطرّفين. لكنه كان مخطئاً، فقد كان أحمد وناصر قد أدخلاه - بالفعل - إلى اللجنة التنفيذية لـ "جماعة الشباب" قبل رحيلهم. هذا هو السبب الذي دفع أحمداً للبحث عنه ظهر ذلك اليوم.

كانت تلك فترةً صعبةً، بالنسبة له: هل يلحق بشقيقه؟ أم يطيع والده؟ استسلم في نهاية المطاف. بعد الانتقال إلى الجزيرة، بفترةٍ قصيرةٍ، ترك منزل أبيه ياسين، ولحق بأخيه ناصر.

لأول مرةٍ في حياته، شعر أنه يُعامَل كشابٍّ، له قيمة، التحق بمدرسة، تعلّم الكتابة، أصبح لديه منزل لائق وحمَّام وثلاث وجبات يوميّاً.

"هل تذكرين عندما كنتُ صغيراً؟ كنتُ لا أُجيد القراءة"، سألني بذلك الصوت القاسي. "وبفضلكِ وبفضل سباقات العدو، تعلمتُ معتمداً على تلك الكتب القديمة الموجودة في المكتبة!"

كان صوتي مختنقاً داخل حلقي، لم أتمكن من الرد. أومأتُ - فقط - برأسي بالإيجاب، بينما كنت أداعب إحدى ذراعيه.

"منذ يوم أن لحقتُ بأخي، نِلْتُ كل شيءٍ. حصلتُ على ما لم أكن قد حصلتُ عليه قط، وأصبحت ما لم أكن عليه في السابق قط".

أمسكت بيده، وأشرت له أن يتابع حديثه.

كان ياسين قد كره علياً وشقيقه، ولكنْ؛ بهذه الطريقة، وجدا نفسيهما حرّينَ في الحصول على الحياة التي لم يتمكنا من الحصول عليها قط. التعليم، الثياب النظيفة، البطون الممتلئة.

كان قد تميّز على الفور في دراسات القرآن الكريم، وفي استخدام الأسلحة والاستراتيجية العسكرية. خلال فترة قصيرة، تمكن من الانفصال عن ناصر وأحمد أيضاً، اللذين أُوفدا - في تلك الأثناء - إلى معسكر للتدريب، بالقرب من أرْخبيل لامو شمال كينيا. كان قد تمكّن - وهو لا يزال شاباً - من كسب ثقة خيرو شخصيّاً، رئيس "جماعة الشباب".

عند هذا الحد، توقف عليّ، ولم يعد قادراً على الاستمرار.

توسلت إليه أن يكمل حديثه. وجدت في عينيه برودةً وفراغاً، أخافاني، لكن تلك التنهدات كانت تحتاج إلى الإنصات وغفران الخطايا.

"أكمل، يا عليّ، أنا هنا"، قلت له، وقد تعثّر صوتي داخل حلقي، بينما كنت أداعب وجهه.

"اضطررتُ أن أقوم بفعل شرير.."، وانفجر في بكاءٍ، حاول كتمانه. كان المخاط يخرج من فتحتي أنفه الصغيرتين، كان يبدو الطفل الذي لطالما عهدته. ظللتُ ممسكةً، بيديه، وأخبرته ألا يقلق.

في الوقت نفسه، كانت عيناي قد تعوّدتا على الظل، وبتّ قادرةً على تمييز ملامحه ونسيج ملابسه الجيد.

ساد حولنا الصمت، ورائحة قوية من العفن.

التقط عليّ أنفاسه، مسح دموعه، ثم واصل حديثه.

كان الأصوليون يعرفونني وأختي هودان، وكانوا يسمّوننا "الفتاتان التخريبيتان". كما كانوا يعرفون والدنا الذي لم يرضخ طيلة حياته إلى سادة حرب الإسلام. كانوا يعرفون أننا كنا قد نشأنا معاً، في المنزل نفسه. وبعد الانتصار الذي حقّقته في هرجيسا، صمّم خيرو أن يلقّنني درساً لا أنساه، أتخلى بعده عن الرياضة.

كانوا يريدون التخلص من أبي.

وهكذا طلب خيرو من عليّ أن يطلق النار على ذلك الرجل ... أبي.

لم يكن لديه خيار. كان هذا أبشع ما يتعرض له المرء من قسوة وبربرية، كأنه طلب منه أن يقتل أباه. وإن رفض ستزهق أرواح الضحايا، بتفجير ضخم. أما هكذا؛ فيكون الهدف واحداً ومحدداً.

وهكذا، في صباح ذلك اليوم في سوق البكارة، اختبأ عليّ بين الحشد، وظل بجوار أبي، لقليلٍ من الوقت. كان قد اشتم رائحته التي يذكرها جيداً. رائحة الثياب التي ظلت لسنوات طويلة تشبه رائحة ثيابه، فقد كانت أمي تغسل ثياب أسرته أيضاً.

ثم تجمّدت عيناي عليّ، وتوقّف عن الكلام.

تحجّرتُ في مكاني. اخترقت تلك الكلمات أذنيَّ، وبدت راغبة في استكمال طريقها إلى المخّ، لكنها توقفت هناك، تنتظر هزةً، تطيح بها إلى الأسفل مجدداً. لست أدري ما الذي فعلته، ربما لا شيء. ربما صرختُ، أو بكيتُ. لست أدري. لست أدري حتى كم مضى من الوقت.

ثم نهض عليّ، وقال إن تلك الأموال هي كل ما كان قد تَحَصَّل عليه في تلك السنوات، وكان يرغب أن تصبح لنا. وبابتسامةٍ تملؤها المرارة، قال إنه - في نهاية المطاف - مثل والده الذي كان يرغب في تعويض أبي بالمال عندما أُصيب بدلاً عنه. كان يعلم أنه لم يكن ليستطيع تعويضه بكل أموال الدنيا، لكن هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يفعله.

"لقد ندمتُ على ما فعلتُ، يا سامية. الآن أنا خارج جماعة الشباب".

لم أفتح فمي.

"سامحيني، إن استطعت، يا أختي.. سامحيني *أبايو*.."

صمْتٌ.

ثم نهض، ببطء.

قبل أن يستدير، لمس كتفي، بإحدى يديه.

وعندما اقترب من عتبة الباب، أضاف: "سترين أنك ستصلين إلى أولمبياد لندن أيضاً".

كانت تلك الكلمات الأخيرة التي سمعته ينطق بها.

ثم ذهب.

استدرتُ.

عَلِقَتْ في ذهني صورة منكبيه العريضين وثوبه الأسود الذي تجلّى - بوضوح - تحت ضوء القمر.

لست أدري كم من الوقت ظللتُ هكذا. متوقفة ودموعي تنهمر فوق وجهي، وآلاف الأسئلة تغرس كالمسامير في رأسي. كنتُ مشوّشةً. ما قصه عليّ كان صادماً.

كيف استطاع فعل ذلك؟ كيف تمكن من نسيان كم حمله أبي على ذراعيه، وتولى رعايته، بينما كان أبوه ياسين يعتني بباقي الإخوة؟ كيف تمكن من نسيان أمي التي كانت بمثابة أمه، وكم كانت تنظفه وتكسيه وتعد الطعام من أجله؟ كيف استطاع فعل ذلك؟

كانت تلك الأسئلة وآلاف غيرها الأخرى تجول في رأسي. لكنني كنت متأكدةً من أنه عندما برز ظهره تحت ضوء القمر، حانت اللحظة التي اتخذت فيها قراري بالرحيل.

في لحظةٍ، داخل تلك الصورة، انهارِ العالم كله. إذا كانت بلدي قد تمكنت من جعل أخي وتوأم روحي يتحول إلى وحش، إذا كانت بلدي قد حوّلته إلى قاتل والدي، فهذا يعني أنه لم تكن لدي أدنى قيمة، بالنسبة لبلدي.

كان أبي هو الصومال. لكن الصومال - الآن - كانت قد ماتت، ذُبِحَت على يد أخِي.

كنت قد أضعتُ كثيراً من الوقت، وأهدرتُ سنواتٍ عديدةً وموهبةً في

مكانٍ، لم يكن يرغب في بقائي، ولم يكن يفقد فرصةً واحدةً؛ كي يذكّرني بذلك، ويضطرني كل يوم إلى الشعور بالخجل الشديد، وإلى بذل العرق وتحمل أسوأ أشكال الإذلال في الشوارع وكل مكان.

منذ سنواتٍ، وأنا منهكة، لكنني لم أكن أريد أن أعترف بذلك.

كانت هودان على صواب.

كان ينبغي أن أفعل مثلها. ومثل محمد فرح.

في صباح اليوم التالي، طلبت من سعيد أن يعيرني هاتفه. اتصلت بتيريزا في أمريكا، وقلت لها إنني على استعداد؛ كي أرحل معها. كانت أمي ستتفهم الأمر وإخوتي سيتقبلون قراري.

"لقد قررت، سآتي معك إلى أديس أبابا"، هكذا قلت لها.

-٢٢-

كانت هودان سعيدةً بقراري، وكانت تقول إنني تحليتُ بالشجاعة أخيراً، وقررت الرحيل من ذلك البلد؛ كي أحقّق أحلامي. وفي تلك الأثناء، كانت قد انتقلت هي وزوجها عمر ومنار إلى هلسنكي، وسرعان ما قامت الحكومة هناك بتوفير منزل وراتب شهري لهم.

كانت منار مصدر سعادتي. بعد أن بلغت من العمر سنة ونصف، كانت لا تزال تشبهني كثيراً عندما كنت في عمرها. عينان مشرقتان ومقدامتان، طويلة القامة، ونحيفة. بذلت هودان قصارى جهدها؛ كي تجعلها تلتحق بدورة لألعاب القوى منذ أن أتمت ربيعها الثاني، كما جرت العادة هناك.

لم يلزمني شلن واحد من أموال عليّ. اتفقت مع أمي أن تحتفظ بنصف تلك الأموال، والنصف الآخر لهودان، من أجل منار. ما كان يجب عليها أن تضيع يوماً واحداً. كانت ستكتشف على الفور ما إذا كان لدى ابنتها موهبة حقيقية أم لا، ولكنْ؛ في الوقت نفسه، كان يتعيّن عليها أن تبدأ في تحسين الوسائل، فربما كانت ابنتها ستصل إلى المشاركة في أول مسابقة لها وبنيتها الجسمانية مماثلة لفيرونيكا كامبل - براون. ربما كانت ستحقّق انتصارات أكثر مني، وقبلي.

كنت أشعر بمشقة انتظار المستندات اللازمة للسفر إلى الخارج، وفي الوقت نفسه، أشعر بحنان، لا حدود له من كل شيءٍ قريب مني، بدءاً من أشقائي وشقيقاتي، إلى أمي وكل الأماكن التي اعتدت الذهاب إليها. ذات يوم، انفجرت في البكاء حتى مع عبدي أثناء استراحتنا في إحدى التدريبات، ونحن جالسان في الملعب، وقلت له إنني سأفتقده واستاد كونز كثيراً.

"كيف يمكن أن تفتقدي ملعباً مليئاً بالحفر وطلقات الرصاص؟"، سألني بينما كان يربط حذاءه، ويستعد لاستئناف العدو. كان محقاً. لكني كنت أعرف أنني كنت سأفتقد كل شيءٍ، وكنت أعيش كلَّ ساعةٍ محاولةً أن أمتصّ أكبر قدر ممكن من الذكريات، واستيعاب التفاصيل التي كانت تلزمني في هذا.

بعد ظهر يومٍ آخرٍ، كان قد حدث لي الشيء نفسه في مقهى تاجيري، عندما أصر أن أتناول معه شراب شعت. "قريباً سوف ترحلين"، قال وبدأت في البكاء مجدداً. "لا تبك أيتها البطلة"، تابع حديثه، بينما كان يضيف قليلاً من الحليب إلى *الشعت*، العجوز تاجيري الطيب، الذي كان وجهه محفوراً بتجاعيد عميقة، بدت وكأنها إحدى تلك الأقنعة التي تمثل إبليس، الشيطان. إلا أنه كان لديه عينان طيبتان، مطويتان للأسفل تعبيراً عن حنانٍ، لا ينقطع. "وعندما تصلين إلى هناك، سوف تنسينا سريعاً. وعندما تعودين، ستكونين قد أصبحتِ مشهورةً، لدرجة أنك لن تجدي وقتاً؛ كي تأتي، وتسلّمي عليّ"، قال لي بينما كان ينتهي من تقليب الشاي. "إذا فعلت ذلك، أقسم أنني سوف آتي لآخذك من منزلك، وسأجعلك تحكين لي كل شيءٍ، بالحسنى، أو بالقوة". بكيت على كتفه، ومن ثم؛ تخلصتُ من بعض القلق الذي كان يُطبِقْ على معدتي. كان قد ضمّني إليه، وغيّر مجرى الحديث - بلطفٍ، وهو يتحدث بهدوءٍ - كالعادة.

أمضيتُ ستة أشهر قبل أن أتمكن من الرحيل. كان ذلك هو الوقت اللازم لتجهيز المستندات اللازمة للسفر.

كانت تيريزا تتابع الأمور كافة من الخارج، وعندما حانت اللحظة، عادت إلى مقديشو. لقد أصبحت مستشارتي في هذه الأمور بعد أن قررت الوثوق بها. كانت تيريزا تبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً فقط، لكن خبرتها واسعة، بفضل تنقلها للعيش في كثيرٍ من البلدان. وكانت تعلم جيداً ما الذي ينبغي عليها فعله. كنت قد قررت أن أثق بها متخليةً عن أي تردّدٍ داخلي حيال هذا الأمر. كانت بمثابة جواز سفري إلى الحرية.

كان يوم وداع أمي وإخوتي حزيناً للغاية. على عكس هودان التي كانت قد فاجأت الجميع برحيلها، كان وداعي قد استمر يوماً كاملاً. كنت سأعود قريباً - هكذا كنت أقول - لم تكن إثيوبيا بعيدةً إلى هذا الحد. وبمجرد فوزي بالعديد من المنافسات، كان سيكون لدي من المال ما يكفي؛ كي آتي، وأذهب، كلما أردت.

أخذت معي الأمتعة الأساسية فقط: لا شيء تقريباً، كالعادة. زي الجري. الرداء الرياضي. بعض الشلنات. عصابة الرأس الذي كان أبي قد أهداني إياها، وصورة محمد فرح التي صمدت على الحائط حوالي العشر سنوات. باتت متهالكةً، لم تعد ورقاً، كانت صورةً وحلماً محفورَين على أجنحة إحدى الفراشات. ظلت ميداليتا هرجيسا هناك، معلّقتان في ذلك المسمار الذي بات صدئاً، بفعل الرطوبة. كانت أمي قد أعطتني منديلاً، بداخله إحدى القواقع التي كان أبي قد أهداها لها قبل سنواتٍ عديدةٍ. كانت تريد أن أحمله دائماً معي، كان يمثل حمايتها لي. طوته، وجعلته كالعصابة، ثم ربطته حول معصمي، بعقدتين. بين الطيات، في المنتصف، كانت القوقعة الصغيرة غير مرئية مطلقاً.

"هكذا تستطيعين أن تحملي معك بحرك الحبيب"، قالت لي. "البحر بأكمله داخل هذه القوقعة".

انتظرتني تيريزا، لقليلٍ من الوقت، في التاكسي، قبل أن تتمكن من فصلي عن أمي. كانت أقوى مني، لم أكن أستطع تركها. لكنْ؛ في النهاية، أغلقتُ قبضة يدي، أعطيتهم قبلةً أخيرةً، وذهبت للقاء مصيري الجديد، كجنديٍّ، أو كمحاربٍ، يذهب إلى المعركة.

كنا سنسافر بالطائرة، وكنا سنهبط بعد ساعتين من الطيران، في الساعة الثانية بعد الظهر.

كانت هذه المرة الثانية التي أذهب فيها إلى المطار، بالسيارة، وهذه المرة كانت حالتي النفسية مختلفةً تماماً. لم تكن هناك حاجةً لأخذ حبوبٍ

منومةٍ، لِتَحَمُّل رحلة الطيران. فقد كنتُ حزينةً، بدرجةٍ كبيرةٍ، جعلتني لا أخشى شيئاً. الخوف ما هو إلا أحد جوانب ترف السعادة.

في غضون ساعاتٍ قليلةٍ، منذ أن تسلّمتُ المستندات، كان كل شيءٍ في حياتي قد تغيّر تماماً. خلال تلك التي بدت لي لحظات قليلة، كما لو أنني قد قفزتُ عبر الزمن، كنتُ في مكانٍ آخرٍ، في عالمٍ آخرٍ، مستعدةً لأن أرحل مجدّداً.

أثناء الرحلة، تحدثتُ أنا وتيريزا دون توقف. كانت تيريزا تطلب مني- دائماً - أن أركّز في ما كنت أقدم عليه، وأن أترك وراء ظهري كل ما كان يبطئ مسيرتي. الأمر شاق، لكني كنت متأكدةً من أنني سأنجح. إذا كنت قد تمكنت من الوصول إلى الأولمبياد بساقيّ فقط، فكنت سأتمكن من تحقيق ذلك أيضاً.

-٢٣-

في مطار أديس أبابا، كان في انتظارنا إشيتو تورا شخصيّاً.

عندما كان شاباً، كان رياضيّاً، أما حينها؛ فكان يدرّب العدائين الموهوبين. كان سيصبح مدرّبي. كان طويل القامة، وقوي البنية، لديه منكبان عريضان، يتناقضان مع شعره الأشيب ووجهه الذي لم يعد مفعماً بالحيوية. لم يكن كما كنتُ قد تخيلته، فقد كانت الصورة التي تخيلتها له أنه أكثر شباباً، إلا أنه كان أكثر أناقةً، سواء في الثياب، أو في الحركة.

وثقت به منذ اللحظة الأولى، وأنا أرى لطفه وأخلاقه.

"مرحباً بكِ، في مدينتنا، يا سامية"، هكذا قال لي باللغة الإنجليزية، بينما كان يصافحني.

"شكراً جزيلاً، يا سيد.."، توقفت لبرهةٍ بينما كنت أصافحه. لم أكن أعرف كيف أناديه، هل باسمه؟ أم بلقبه؟

"المدرّب. يمكنك أن تناديني هكذا مؤقتاً". ابتسم ابتسامةً عريضةً، أشعرتني بالارتياح. ثم أشار إلى الحقيبة التي كنتُ قد تركتها على الأرض، كأنه يريد أن يحملها عني. وهكذا فعل. كانت تيريزا تسافر ولديها حقيبة سفر في يدها، كانت ستبقى معنا لبضعة أيامٍ فقط. تركتُ إشيتو يحمل حقيبة الكتف الخاصة بي.

"لنذهب، الآن. هناك تاكسي في انتظارنا".

كانت المدينة أكبر بكثيرٍ من مقديشو، كما كانت أكثر حداثةً أيضاً.

كانت المباني سليمةً، لم تكن واجهات المباني والشرفات تتهاوى، وكان ذلك يبدو لي وكأنه معجزةٌ. لهذا السبب فتحت نافذة السيارة، واستمتعت بالهواء الجديد الذي كان يهبّ من الخارج. كنت أحتاج إلى أن يلامس ذاك النسيم البارد وجهي؛ كي أدرك أن كل شيءٍ كان يتغيّر. كان كل شيءٍ له رائحة مختلفة، حتى وإن كان المشهد مماثلاً لما كنت قد تعودتُ عليه.

"الهواء هنا له رائحة طيبة"، هكذا قلت لتيريزا التي كانت تجلس على المقعد الخلفي بجانبي.

"ليس به أي رائحة، إنه طبيعيٌّ، يا سامية. كل ما في الأمر أنه يخلو من رائحة البارود". لم أكن قد فكرت مطلقاً في هذا الأمر. كانت رائحة البارود قد وُلِدَتْ قبلي، أنجبتها شقيقتي الكبرى، الحرب، وأنا لم أقم - أبداً - بفصل تلك الرائحة عن رائحة الهواء الطبيعية. الآن كنت أستنشق الهواء، كما كان ينبغي، وكان ذلك النسيم قد بدأ بالفعل في تغييري.

تركنا سائق الأجرة مع تيريزا عند أحد الفنادق؛ حيث كنا سنقضي بضعة أيام، إلى أن أنتهي من ترتيب أموري كافة، في مكان إقامتي الجديد. سلّمنا على إشيتو، وحددنا موعداً بعد يومين؛ كي نلتقي مجدداً.

بعد إقامتي في الفندق، كنت سأعيش في شقةٍ صغيرةٍ، في أحد الأحياء قرب الملعب الرياضي مع إحدى عشر فتاةً أخرى، صوماليات وإثيوبيات. كانت تيريزا هي مَن وجدت لي هذا السكن، بمساعدة أحد أصدقائها الصحافيين الذي كان يأتي - في كثيرٍ من الأحيان - إلى أديس أبابا. كانت تلك الشقة ستصبح سكني الجديد. بالتأكيد إنه لم يكن كبيراً، ولكنْ؛ على الأقل، كانت تكلفته قليلةً، ولم يكن بإمكاني أن أتحمّل أكثر من ذلك.

بعد يومين، رحلت تيريزا مجدداً. تمَزُّقٌ جديدٌ. كُسِرَ معها القيد الذي كان يربطني بمدينتي. كنا قد أصبحنا صديقتين، وأمضينا معاً من الوقت ما جعلنا نقترب من بعضنا البعض. الآن أصبحت وحيدةً مجدداً. مرةً أخرى، شخصٌ ما عزيز على قلبي يتركني.

ودّعتها كما تودّع الأختُ شقيقتَها. "أراك قريباً، *أبايو*"، قلت لها عند باب غرفة الفندق التي كنت سوف أتركها في ذلك اليوم نفسه.

"نلتقي قريباً، يا سامية. ربما عندما تأتين إلى الولايات المتحدة للمشاركة في إحدى السباقات المهمة"، أجابتني، والدموع في عينيها، قبل أن تُغلق الباب مجدداً.

أصبحتُ وحيدة منذ ذلك اليوم.

وحيدةٌ ترافقني رغبتي في الركض.

كانت الشقة مكوّنةً من غرفتين فقط، بالإضافة إلى مطبخٍ وحمّامٍ. كانت صغيرةً، وكان عددنا اثني عشر، ولكني لم يكن لدي طيلة حياتي أي وسائل راحة.

سرعان ما كوّنتُ صداقاتٍ مع اثنتين من الفتيات الإثيوبيات، أمينة وينيه، منذ اللحظة الأولى التي تعرفت فيها عليهما. كانتا من عمري، وتعملان في الأرض، مثل التسعة الأخريات، بمجرد خروجهنّ من أديس أبابا. كنّ جميعاً من العاملات اللائي كان يتمّ استدعاؤهنّ يوماً بيومٍ. المنزل الذي كنا نسكن فيه كان ملكاً لصاحب الأرض.

كنّ يعملن على فترتين، صباحية ومسائية. عادةً ما كانت أمينة وينيه تعملان في الفترة المسائية، لذلك كانتا تطهوان معاً. كانت مساحة المطبخ صغيرةً حقاً، وكانت كلها مغطّاةً، من الأرضية إلى الجدران، بنفس البلاطات الصغيرة ذات اللون الأخضر المائي. كان هناك فرن وموقد للغاز، وبجوارهما حوض، خزانة للأطباق والأكواب، وثلاجة. أول ثلاجة أراها في حياتي.

كانت أمينة وينيه تجعلاني أتذوّق الأطباق التقليدية الإثيوبية، وأنا أحضّر لهما أشهر الأطباق الصومالية. كنا نتواصل بالإشارات، ولكن سرعان ما اخترعنا لغةً خاصةً بنا، خليطاً من اللغة الصومالية والإثيوبية والإنجليزية.

كانت الشقة في الطابق الرابع والأخير لإحدى البنايات الصغيرة التي ليست بحالةٍ سيئةٍ، والمطلية باللون الأحمر. في الأسفل، كانت توجد حديقة صغيرة، تقضي فيها الكلاب حاجتها. كنا ننام ستة فتيات، في كل غرفة، فوق ستة فُرُش فوق بعضها البعض. كان فراشي - بما أنني كنت آخر مَن وصلَتْ - الأبعد عن الباب. كان يجب أن أعبر فوق باقي الفتيات؛ كي أصل إلى الباب.

في نهاية كل يوم، كانت الفتيات يشعرن بالتعب الشديد، فقد كان العمل في الحقول يستنزف قواهنّ. منذ البداية، كانت إحداهنّ تبغضني، خاصةً فتاتان صوماليتان من ضواحي مقديشو؛ لأنني كنت بنظرهنّ أميرة، لا تجيد فعل شيء في حياتها أفضل من الركض.

مساء أحد الأيام، وبينما كنا معاً في المطبخ الصغير، قبل الذهاب إلى فُرُشِنَا، وإذ بأمينة - التي لم تعد تطيق وشايات تلك الفتاتين - تذيع خبر أنني كنت قد ذهبت إلى دورة الألعاب الأولمبية، وشاركت في إحدى السباقات ممثِّلةً لبلدهما.

"لا يعنيني أين كانت قبل أن تصل إلى هنا"، أجابت إحدى الفتاتين الصوماليتين التي كانت جميلةً بدرجةٍ كبيرةٍ كأنها عارضة أزياء. "الآن هي هنا مثلنا، ويبدو أن الأمور لا تسير على ما يرام، بالنسبة لها أيضاً".

لم تكن مخطئةً في كثيرٍ مما قالته.

"ثم إنها لم تحقّق حتى الفوز"، أضافت الأخرى التي كانت طويلة القامة وقوية البنية، عيناها تبدوان وكأن فيهما كسلٌ دائمٌ، وكأن كل شيءٍ يزعجها. "كان بإمكانها أن تمثلنا بصورةٍ أفضل". لم تكن هي - أيضاً - مخطئةً في كثيرٍ مما قالته.

عموماً، في الأسابيع الأولى، كنت أتنفّس رائحة الحرية، رائحة غياب البارود. كانت لدي صديقات، وبإمكاني التجول في الطرق دون أن يطلق

أحدٌ النيران عليّ. كما كان بإمكاني الذهاب إلى السوق، الذي كان أصغر من سوق بكارة، بكثير، لكنه مليء بالزبائن والأغراض. كنت أتسوّق هناك، أو في أحد محلات السوبر ماركت الصغير، وأعود إلى المنزل؛ كي أطهي الطعام.

أشياء عادية، لكنها بدت لي لا تُصدَّق. كنت أشعر بأنني مفعمةٌ، بالطاقة، وكل حدث يملؤني، بالحماس.

ولكنْ؛ سرعان ما أدركت أن الأمور لن تكون سهلةً، كما اعتقدتُ. كنت هناك؛ كي أعدو. كان يجب عليّ أن أقوم بذلك منذ اليوم الأول، لكن إشيتو - في البداية - كان قد أبلغني أن ذلك لم يكن ممكناً. كان يجب عليّ أن أتحلّى، بالصبر، ربما لأسبوعين. لم تكن الأمور قد تَهَيَّأت لي بعد، لكنها عما قريب كانت ستسير على ما يرام.

كنت أشعر، وكأنني مهرةٌ جامحةٌ دون سرج. كنت في حاجةٍ إلى إطالة خطواتي، والإبقاء على عضلاتي تتحرك.

كانت الأيام تمر، وصبري ينفد. كنت أقوم ببعض التمرينات في المنزل عندما كانت الفتيات الأخريات في العمل. لكنني كنت أرغب في العدو أكثر من أي شيءٍ آخر.

وسرعان ما بدأت العمل في فترة ما بعد الظهر: كي أتمكن من توفير تكاليف المعيشة كنت أساعد صاحبة المنزل - زوجة صاحب الأرض - في تطريز الملابس. كنت أذهب إلى شقتها المجاورة لشقتنا في الطابق نفسه، وكنت أقضي أربع ساعات أحيك معها ومع ثلاثين امرأة أخرى أنواعاً عديدةً ومختلفةً من الدانتيل، على الآلاف من الملابس النسائية. تلك التي يرتديها النساء المسلمات تحت الحجاب، كلها أشياء شفّافة وأنثوية. كان ذلك عملها، وكنت أساعدها، وأنا جالسة على الأرض، في غرفةٍ كبيرةٍ، برفقة فتياتٍ كثيراتٍ. كنا نجلس هناك، في صمت، نتحدث في تلك الأمور السرية، ونحيك خيوط الملذات المستقبلية المحرّمة. لم تكن تتحدث واحدةٌ منا. كانت صاحبة المنزل تشغل الراديو، وكنا نعمل

على صوت الموسيقى التقليدية الإثيوبية. كانت تدفع لي القليل، لكن ما كنت أتقاضاه كان يمثل لي - دائماً - شيئاً ما. وربما كانت الفتاة الصومالية محقةً: لم يكن باستطاعتي العمل في الحقول، فقد كان يجب عليّ ادخار جسدي للسباق.

وفي الواقع، كنت أعمل، وأنا أفكر - فقط - في اليوم الذي كنت سأبدأ فيه العدو، من جديد.

ثم ظهرت الحقيقة.

لم يكن بإمكاني استخدام الملعب قبل أن تصل من الصومال المستندات التي تثبت أنني كنت إحدى الرياضيات المسجَّلة لدى اللجنة الأولمبية واللاجئة سياسيّاً في بلدٍ آخر.

كانت قد مضت - بالفعل - ستة أسابيع. شهر ونصف، بدون عدو. حاولت أن أشرح لإشيتو أن ذلك كان بمثابة انتحار، وأنه كان عليّ أن أستأنف العدو، مهما كانت الظروف، وخاصةً أن تلك المستندات كانت ستتطلب شهوراً - إن لم تكن سنواتٍ - كي تصل، وخلال تلك الفترة - ربما - أكون قد نسيت كيف كان مضمار الترتان. حاولت أن أشرح له كيف أن الأمور في الصومال كانت أسوأ مما يتخيل. حاولتُ بشتى الطرق أن أقنعه بأن يسمح لي بالتدريب مع رياضييه الآخرين، ولكنْ؛ عبثاً.

"لا يمكن القيام بذلك، يا سامية. يؤسفني ذلك، يجب أن تضعي ذلك في اعتبارك"، هكذا كان يردّد بصوته اللطيف كل مرةٍ كنت أقوم فيها بإطالة عضلاتي. "لا يمكن القيام بذلك".

كنت أصرّ، لم يكن ممكناً أن تنتهي الأمور بهذا الشكل، لم يكن بإمكاني الانتظار لشهورٍ قبل أن أستأنف العدو. "لكنني قمت بالعدو، في دورة الألعاب الأولمبية! أنا رياضية مشهورة! أتدري كم عدد النساء اللائي راسلوني؟" هكذا انفجرت ذات مرة، وأنا أتحدث معه.

ليس هناك ما يمكن القيام به، لم يكن يهاجمني. كانت إجابته لا تتغيّر.

"لا يمكن القيام بذلك".

كنت أذهب إلى هناك كل يوم، آملةً في كل مرة أن تكون المرة الأخيرة. بعد ظهر أحد الأيام، لم أذهب للتطريز مع صاحبة المنزل، واقتحمتُ عليه مكتبه، وأنا أنفجر في البكاء، كنت مستعدةً للقيام بأي شيء؛ كي أبدأ التدريبات. استشاط إشيتو غضباً. فقد كان أخبرني في السابق أنني لا يمكنني أن آتي إلى مكتبه فجأةً؛ حيث إنني لم يكن لدي التصريح حتى تلك اللحظة باستخدام ذلك المبنى، فقد كانت الأمور ستسير على نحوٍ أسوأ، إذا اكتشف ذلك أحدٌ. أصررتُ أكثر. ولكنْ؛ دون فائدة. وفي النهاية، عندما قررت أن أتوقف عما كنت أفعله، وأهمّ بالخروج منكسرة الرأس، قال لي: "بالرغم من كل شيءٍ، ربما هناك حلّ. إنه الحل الوحيد". كان ينظر إلى وجهي، ورأسه إلى الأسفل، من خلال عدسات طول النظر التي كان يرتديها، مِن أجل القراءة.

قفزتُ إلى الكرسي من الجانب الآخر من المكتب. " أنا على استعداد لفعل أي شيءٍ"، أجبته.

"يمكنك العدو ليلاً، بعد أن يغادر باقي الرياضيين الملعب".

في الليل مجدداً. وحدي مجدداً.

كان ذلك أبعد ما كنت أتمناه عندما قررت الرحيل.

من جديدٍ، كان عليّ أن أقوم بكل شيءٍ في الخفاء.

إلا أن هذه المرة كانت الأمور أسوأ. فلم أعد في بلدي، بل كنت أجنبيةً، بلا مستندات، وبدون جواز سفر. لم يكن لدي أي شيء رسمي، يثبت هويتي. كونك صوماليّاً كان يعني - أيضاً - بأنه غير مُرَحَّب بك في منزل الآخرين.

"عليك أن تضعي في اعتبارك أن من وجهة نظر البعض أنتِ هنا

تهريب، يا سامية. يجب أن تكوني حذرةً في أفعالك"، تابع إشيتو حديثه. "لا يمكنك أن تظهري كثيراً".

بعد أن كنت تخريبية صغيرة - كما كان يصفني عليّ - ها أنا ذا أصبح تهريب؛ أي مهاجرة غير شرعية.

أكان ذلك قدري؟ العودة إلى تلك الأيام التي كنت أدخل فيها إلى استاد كونز ليلاً، وأتدرب لساعاتٍ، في صمتٍ؟

ولكنْ؛ لم تكن هناك حلولٌ بديلةٌ، إذا كنت أرغب في العدو.

"حسناً، سوف أتدرّب في الليل، بعد أن يغادر الآخرون".

وقد كان. هكذا كنت ألتقي كل يومٍ مع إشيتو عند مدخل الملعب، وأنظر إلى الآخرين بينما كانوا يغادرون متعبين، ولكنْ؛ فرحون بعد قضاء يوم من التدريب. ثم كنت أدخل - منكسرة الرأس - إلى غرف خلع الملابس التي كانت لا تزال توجد فيها رائحة عرقهم وشامبو الاستحمام الخاص بهم.

بينما كانت الشمس تغرب، والقمر يبزغ، كنت أدخل متخفيةً إلى مضمار السباق.

كان السباق الأول بمثابة تحرير وبهجة لساقيَّ اللتين بقيتا، لا تتحركان منذ وقتٍ طويل. أخيراً باتت عضلاتي قادرة على استئناف عملها، وتفجير طاقاتها. ولكنْ؛ لا شيء باستطاعته أن ينسيني أنني لم أكن سوى فأر صغير غير مرغوب فيه.

ظل إشيتو برفقتي خلال الأيام الأولى، كان يراقبني، وأنا أعدو، وكان يصحّح لي بعض الأمور، وكان يطلب مني القيام ببعض التدريبات المحددة.

كان شعوراً جميلاً أن يكون لديّ للمرّة الأولى مدرّب محترف، يعتني بي. كنت أشعر أنها الطريقة الوحيدة لتحسين أدائي كرياضية. كان بالنسبة لي العداء النموذجي.

"أنت تهدرين كثيراً من الطاقة، يا سامية. تقومين برفع عقبيكِ أكثر من اللازم. تحرّكين ذراعيك، بشكلٍ مبالغ فيه. أوقفيهما! لا يجب أن تحرّكي كتفيكِ أثناء خطواتك، يا سامية! كم مرّة يجب أن أكرّر لك ذلك؟ ابدئي من جديد! يجب أن تبقى عيناك دائماً مصوبتين نحو الهدف. لا تنظري حولك، فهذا يجعلك تخسرين مزيداً من الوقت! يداك، يا سامية! حافظي عليهما ثابتتين! أوقفيهما! كل حركةٍ غير مفيدة هي خسارة لبضعة أجزاء من الثانية! لا يوجد لديك عضلات الفخذ الأمامية، يا سامية. يؤسفني ذلك. قبل كل شيءٍ، يجب أن تتشكل العضلات لديك. يجب أن تستخدمي الأدوات اللازمة لذلك. لا يمكنك تحريك قطار على عجلات العربة اليدوية! النَّفَس، النَّفَس، النَّفَس! يجب أن تتدرّبي من أجل تحسين نَفَسك وعضلاتك، وإلا كيف تعتقدين أن بإمكانك العدو؟ عدو متتابع، واستخدام للآلات، يا سامية. تذكّري ذلك. عدو متتابع، واستخدام للآلات. لمدة ستة أشهر، كل يوم: ساعتين من العدو المتتابع، وساعة ونصف، من استخدام الآلات!"

مائتان انطلاقة لمسافة خمسين متراً في المرة الواحدة، بأقصى قوة، كل يوم. وخمسة وأربعين دقيقة من استخدام آلات الأثقال قبل وبعد كل تدريب.

ذلك، فحسب، لأسابيعٍ وأسابيع.

لمدة خمسة أشهر.

كنت أتصل بأسرتي على هاتف سعيد مرة كل أسبوع، وأحكي لهم أن كل شيءٍ يسير على ما يرام، وأنني كنت أسكن في شقة رائعة، وأتدرّب مع مدرّبٍ قادرٍ على إخراج أفضل ما كان عندي.

كان الجميع سعداء، وكانت أمي تبكي، في كل مرة، وتشعر بالارتياح لسماع صوتي. كان هذا هو السبيل الوحيد، بالنسبة لي؛ كي أذهب إلى الفراش مطمئنّة النفس.

في البداية، كان إشيتو يظل معي طوال فترة التدريب. ثم بدأ يتركني

أنهي بمفردي العدو المتتابع، واستخدام الأثقال. وفي النهاية، لم يكن يتوقف مطلقاً: كنت أعلم جيداً ما كان عليّ فعله. كان يعود إلى منزله لتناول الطعام مع أسرته. كان يظل معي حارس الملعب فقط، العجوز بيكيلي. وبين الحين والآخر، كان يخرج من غرفته الصغيرة، ويصفق لي، كان يحفّزني. كنت أرى ظلّه الصغير، صورة ظلية منيرة بضوء القمر خلفه.

كنت سعيدةً؛ لأنني كنت أتحسّن، وكنت راضيةً عن التدريبات التي كان إشيتو يطلب مني أن أؤدّيها. كنت أحتاج - فقط - إلى المنافسة، إلى مواجهة الآخرين. كان ذلك الاحتياج يصبح أكثر إلحاحاً. هل أثمر كل ذلك الجهد نتائج؟ كنت أحتاج إلى أكثر شيءٍ أفضله في رياضة العدو: المنافسة. قياس قدراتي بأقصى قوة. الفوز.

خلال تلك الأشهر في أديس أبابا، أدركت أن الفوز كان بمثابة وقود، لا بديل عنه، كان الفوز وحده هو القادر على إعطائي الطاقة اللازمة لمواصلة التدريبات. ولكن هناك لم يكن هذا الأمر ممكناً. فكي أنافس الآخرين، كان لابد أن يتم ذلك في وضح النهار، وليس تحت جُنْح الليل. كان يلزم وجود رياضيين آخرين.

ولكنْ؛ وبالرغم من كل شيءٍ، ها أنا ذا مجدداً، وحدي، ليلاً، داخل الملعب. تحت ضوء قمرٍ جديدٍ.

كلما كانت تمر الشهور، كنت أزدادِ يقيناً بأن مستنداتي لم تكن لتصل من الصومال. وبالتالي لم يكن بإمكان إشيتو أن يعاملني مثل الآخرين، بأن يشركني في المسابقات، ويجعلني أنافس الآخرين، ويختبر قدراتي.

بين الحين والآخر، كنت أذهب إلى الملعب قبل نهاية التدريبات، وأنظر إليهم، وهم يركضون، من الخارج، خلف الشباك، خوفاً من أن يراني إشيتو، فيغضب. إذا رآني أحد في الملعب - هكذا كان يقول لي - أو إذا قاموا بالتفتيش، ووجدوني هناك، كان من الممكن ألا يُسمَح لي باستخدام

الملعب ليلاً أيضاً. لذلك كنت أذهب هناك قبل انتهاء التدريبات بقليل، وأظل أنظر إليهم من الخارج، وهم يركضون. كنت أتعلّق بالشباك المعدنية ذات اللون الأخضر، بينما كنت أتأمّلهم. أحياناً كنت أختبئ خلف سياجٍ، بالقرب من أحد عدّادات الكهرباء، ومن هناك، كنت أنظر إليهم مختبئةً، كما تختبئ القبلات من أعين القدر والحظ.

كنت أنسى المسابقات التي كنت قد حقّقت فيها انتصاراتٍ، كنت أنسى الأولمبياد، كنت أنسى كل شيءٍ. كنت أتحوّل إلى رياضيةٍ مبتدئةٍ، تحلم بالمشاركة في أحد السباقات. وكان يبدو لي ذلك بعيد المنال. كانوا مثاليين. فائقي السرعة. كان الأمر يبدو، وكأنني أشاهد التلفزيون. قدرة، دقة، تفان، إرادة. كان كل شيءٍ يوجد في الحركات التي كانوا يؤدّونها.

كانوا جميعاً يمثّلون شيئاً، لم أكن لأستطيع الوصول إليه أبداً. لم أكن سوى تهريب، تعدو بمفردها.

لكني - في الحقيقة - كنت أطمح إلى شيءٍ واحدٍ فقط: تحقيق الفوز.

رويداً رويداً، ودون أن أشعر بذلك، بدأت تتولّد داخلي الرغبة في الرحيل من هناك أيضاً. أدركت أنني - من حينٍ لآخر - كنت أتحدث مع أمينة وينيه عن أديس أبابا، وعن منزلنا، كما لو كانا قطعةً من الماضي، كما لو كنت أشعر بالحاجة إلى الاحتفاظ بذكرياتهما. على الرغم من أنني كنت هناك.

عشت تلك الأشهر الأخيرة برغبةٌ بائسةٌ في الانطلاق نحو المستقبل. كما كنت قد بدأت أرتاب في ما كان سوف يحدث، وأجهد نفسي؛ كي تظل تلك الأماكن وتلك المشاعر دفينةً داخل الذاكرة. كما فعلتُ في مقديشو قبل ستة أشهر. كنت أستشعر أنها ستكون رفيقات الرحلة التي لم أكن أريد اتخاذ قرار مواجهتها رغم أنني كنت أشعر بأنه لا مفر منها.

كنت أقول لنفسي أشياء من هذا القبيل: "يوماً ما سوف أفتقد أكلاتكم وكل تلك الجَلَبَة التي تحدثنها قبل أن تخلدن إلى النوم". كنّ ينظرن في وجهي دون أن يفهمن ما أقصده. كنت أشعر أنني سوف أعاني من الحنين إلى بيتي وإلى أمي، وأنني كنت سوف أصبح حزينة، من حينٍ لآخر.

الحقيقة - والتي أدركتها فيما بعد - هي أن تلك الأشهر الستة مرت سريعاً، وأوقدت في داخلي الرغبة في الفرار للأبد، من وضع التهريب ذلك.

رويداً رويداً، يوماً بعد يوم، بدأت تتكون في داخلي الرغبة في اللحاق بهودان إلى فنلندا، والعثور على مدرّبٍ جيدٍ، في مكانٍ، لا يكون وضعي فيه غير قانوني، مكان، أتمكن فيه من القيام بكل شيءٍ مثل أي شخصٍ عادي، فتاة كباقي الفتيات.

قبل كل شيءٍ، كنت أرغب في أن أشعر أنني فتاة طبيعية وعادية. كان يجب عليّ أن أرحل من هناك. كان هذا هو السبيل الوحيد؛ كي أتمكن من تأهيل نفسي لأولمبياد لندن، ومحاولة الفوز فيه. كنت قد أدركتُ ذلك.

في صباح أحد الأيام، في تمام العاشرة، بعد أن كنت قد قمت بترتيب كل شيءٍ سراً، ودون أن أقول شيئاً لأحدٍ، ولا حتى لإشيتو وأمينة وينيه، وضعتُ أشيائي القليلة داخل حقيبتي، ثم رحلتُ.

على الطاولة، تركتُ البر قيمة الإيجار الأسبوعي، وخطاباً مكتوباً عليه: *إلى ينيه وأمينة. أحبكما. أتمنى لكما حظاً سعيداً، سامية.*

خرجت ماشيةً على قدميّ، وحيدةً. وفي جيبي الأموال التي كنت قد جنيتها خلال تلك الأشهر الستة من العمل.

كنت سأصل إلى أوروبا مثل هودان.

كنتُ مُقْدِمةً على مواجهة "الرحلة".

كان يوم ١٥ تموز/يوليو ٢٠١١، وقد أتممت للتو ربيعي العشرين، وكان سيتبقّى لي عامٌ واحدٌ؛ كي أتمكن من المشاركة في دورة الألعاب الأولمبية.

كنت سأتمكن من المشاركة، لم يكن هناك أدنى شك.

خلال فترة قصيرة، كنت سأرحل من هناك.

أخيراً نجوت.

نجوت.

-٢٤-

كان العثور على مهرّبي البشر أمراً سهلاً. يعرف مكانهم الصوماليون كافة الذين يعيشون في أديس أبابا، وخلال الأسابيع الأخيرة، كنت قد طرحت الأسئلة الصحيحة. عاجلاً أو آجلاً كل صومالي يعيش في إثيوبيا، كان سوف يلجأ إليهم لدخول السودان. ومن هناك، إلى ليبيا. ثم أخيراً، إلى إيطاليا.

لم يكن من الصعب اقتفاء أثر أسناك.

كان أسناك يعمل في سوق أديس أبابا؛ كي يخفي مهنته الحقيقية. اضطررت لأن أدفع بالبر، العملة الإثيوبية، ما يعادل سبعمائة دولاراً أمريكيّاً. كان هو أو أحد أصدقائه سيأخذانني إلى الخرطوم في السودان. لم يكن لدي أكثر من ذلك، ولم تكن لدي رغبة في الانتظار. وهكذا، كنت قد توجّهت إلى أسناك الذي طلب مني أن أتحلّى بالصبر، فلم يكن ممكناً أن أرحل فوراً، وكان سوف يبلغني عندما يحين يومي.

انتظرت تلك الأيام العشر الأخيرة، وأنا أحاول أن أطمئن نفسي، وألا أجعل أمينة وينيه تشعران بشيء، لم أكن أريد أسئلة، ولا أن أبرّر ما أفعله لأحد.

وفي صباح ذلك اليوم، حوالي الساعة العاشرة، أرسل أسناك صبيّاً إلى منزلي؛ كي يستدعيني.

كنا سنرحل بعد ثلاث ساعات. في المرة الأولى التي كنت قد رأيته فيها، كان قد نبّهني إلى أنه لن يكن لديّ الوقت؛ كي أعد نفسي، وأنه حينما ستحين اللحظة، سأرحل، وسيتحتم عليّ أن أخرج على الفور. ولكنْ؛ في الحقيقة، لم أكن في حاجة إلى الاستعدادات، فمنذ أيام، وأنا كنت أنتظر

تلك اللحظة. وهكذا، وضعت أشيائي القليلة في حقيبتي، وربطت على معصمي المنديل الذي كانت أمي قد أهدتني إياه، ذاك الذي يحتوي على القوقعة، وأخذت زجاجة ماء، وتركت الرسالة إلى أمينة وينيه، وذهبتُ.

بينما كنت أقوم - وأنا عازمة - بتلك الأفعال، لم أكن قادرةً على تخيّل إلى ماذا كنت أسلّم نفسي.

كان مكان الالتقاء عبارة عن موقف، يستخدم كمخزن لإصلاح الدراجات النارية، أو الدراجات الهوائية. عندما وصلت، كان الجميع هناك تقريباً، واقفين ينتظرون. كان عددنا كبيراً، كلنا معاً، كنت - دائماً - قد تخيّلت أنني سأكون بمفردي، أو بأعداد قليلة، على الأقلّ. ولكننا كنا اثنين وسبعين شخصاً.

ظللنا واقفين ساعةً دون أن ندري ماذا علينا أن نفعل، داخل ذلك الموقف وبوابته المغلقة. ستة أمتار، في ستة أمتار. كنت أسأل نفسي كل دقيقةٍ عما كان سوف يحدث، وأنا أمسك بحقيبتي أسفل ذراعي، بقوة. ماضيَّ، قصتي: شعرت على الفور بالحاجة إلى الاتصال مع شيء مألوف، ذاكرة. وسط كل ذلك العدد من الأشخاص، هناك خطر أن تفقد نفسك، أن تستسلم، أدركت هذا على الفور. كانت هناك أمهات، يحملن أطفالهنّ، نساء كثيرات، وأيضاً بعض المسنين. سرعان ما لوّثت رائحة البنزين والزيت المحروق نسبة الأكسجين القليلة؛ بالإضافة إلى ذلك، وخلال وقتٍ قصيرٍ، ولّدَتْ رائحة عرق الأجساد رائحة تثير الاشمئزاز. كنا متلاصقين، بشدة، لدرجة أن تتلامس أذرعنا. وكان حجاب النساء يبتل، وجبين الرجال يقطر عرقاً. وكنا ننتظر. لم يكن يعرف أحدٌ - بالتحديد - ماذا كان سيحدث.

بعد مرور ساعة، بدأ الأطفال في البكاء. كان ذلك الانتظار الذي لا معنى له يحرق أعصابنا. اضطررنا إلى الانتظار أكثر وأكثر. بعد ساعةٍ أخرى، انفتحت بوابة الموقف، ووصلت سيارة لاند روفر، بداخلها ستة رجال.

عندما أدركت أنه كان علينا أن نتكدّس، ونحن اثنان وسبعون شخصاً، داخل ذلك الصندوق المفتوح لسيارة الدفع الرباعي تلك، انهارت ساقيَّ، واضطررت إلى التمسك بالمرأة التي كانت بجواري. الآخرون: بعضهم يائسون، وآخرون يبدون على علم بكل شيء.

ودون أن يمهلونا كي نفكر، أمرونا بأن نلقي في أحد الأركان كل ما كان لدينا. كل شيءٍ. كانوا سيتولون هم - فيما بعد - أمر حقائبنا. سمحوا لنا بحمل كيس بلاستيكي صغير فقط. قام أحد هؤلاء المهرّبين بتوزيع واحد على كل شخصٍ. لم يكن هنالك مَن يرغب في ترك حقائبه، وبداخلها كل ما بقي له من الحياة. فراشات لم يكتمل نضجها بعد، ولم تكن ترغب في ترك شرنقتها. فكرت في عصابة الرأس، في صفحة الجريدة. لمستُ القوقعة حول معصمي. ثم - كما لو أنه وحيٌ - فكرت في العودة، والركض نحو المنزل، وتمزيق الرسالة التي كنت قد تركتها على المنضدة، والتظاهر بأن شيئاً لم يكن. فعاجلاً أم آجلاً كانت المستندات سوف تصل، كان يجب عليّ التحلي بالصبر فقط.

اقترب المهرّبون لتمزيق حقائب أولئك الذين كانوا في المقدمة، وكانوا لا يريدون تركها. حاول بعضهم إبداء مقاومة، لكن الجواب كان أنه من الممكن أن يبقى هناك، إذا لم يكن يناسبه الموضوع.

هل كنت - فعلاً - أرغب في البقاء، في أديس أبابا؟ وكم من الوقت؟ الحياة بأكملها؟ كم من الوقت كان عليّ أن أعدو تحت ضوء القمر كالصرصار؟ فتحت الحقيبة، وأخذت عصابة الرأس التي كان قد أهداني إياها أبي، وصورة محمد فرح، وقمر و*جارباسار*، وتركت الباقي في الركن.

وعلى الفور، غمرتْ حقيبتي آلاف الحقائب الأخرى.

وسط صندوق العربة الجيب، قام الستة رجال - في صمتٍ - بوضع دكَّتَيْن، بما يسمح بتكوين أربعة صفوف للجلوس. كان يبدو من المستحيل أن نتمكن جميعنا من الجلوس. إلا أنهم - ببطءٍ، وبدقة الجراحين التي ذكرتني بمهارة بعض الحرفيين - تمكنوا من تعشيقنا كقطع البازل.

كان عليك إبقاء ركبتيك مفتوحتين؛ كي تدخل بينهما ساق شخص آخر، لا تعرفه.

كنا ملتصقين بعضنا ببعض، لدرجة جعلتني أتنفّس بصعوبة شديدة. كنت أريد الفرار من جديد. ثم بدأ الطفل يصرخ في أذني، فعدت إلى وعيي.

حاولت أن أتذكّر السبب الذي أتى بي إلى ذلك المكان. كان يجب عليّ مواصلة المسير.

كانت الرحلة ستستغرق ثلاثة أيام، ومن الأفضل ألا تكون لدينا أيّ أمتعة أخرى سوى ذلك الكيس الصغير: كان ذلك سيكون مكان معيشتنا لمدة اثنين وسبعين ساعة، هكذا أخبرونا. لم يكن بإمكاننا حتى أن نحمل معنا الماء. كان لديهم صفائح للجميع.

قاموا بالتحقّق من الأمور مرةً أخرى، وأخذوا بعض الأشياء من بعض الأشخاص الذين حاولوا أن يتحايلوا عليهم.

بعد نصف ساعة، ونحن متلاصقين كأسماك السردين، وقد باتت أنفاسنا محبوسةً داخل حناجرنا، رحلنا أخيراً. سائق ومساعده في قمرة القيادة، واثنان وسبعون شخصاً في الصندوق. الرجال الأربعة الآخرون بقوا في الأسفل، لإعادة تنسيق حقائبنا.

بمجرد أن تحرّكنا، أدركنا الأمر: كنا سنترك حقائبنا هناك إلى الأبد. هكذا كما تركت هناك - أيضاً - حياتي، بكل ما جرى فيها حتى تلك اللحظة. فَطِنْتُ إلى ذلك منذ الأمتار الأولى، وأنا مضغوطة وسط تلك الأجسام الغريبة. لا شيء سيكون مماثلاً لما سبق. كنت تاركةً ورائي أفريقيا، عائلتي، أرضي. شرنقتي، سواء كانت كبيرةً، أو صغيرةً. كل ما بقي لي من قصتي تم إلقاؤه داخل كيس صغير من البلاستيك الأبيض.

وهل كانت حياتي تعني شيئاً حتى تلك اللحظة؟ كان قلبي يقول لي

شيئاً آخر، بقدر ما كان يخفق في صدري. حبستُ دموعي، وأنا أعض - بقوةٍ - على شفتي. أغمضتُ عينيَّ وسط كل تلك الأذرع والأكتاف والمرافق، وتوسلت إلى أبي وإلى الله بأن يساعداني على إيجاد السبيل.

سبيلي.

كان الجزء الأول من الطريق داخل المدينة. شعرت بالخجل أثناء تلك العشرين دقيقة داخل أديس أبابا. شعرت، بأنني لا شيء. توقفنا عند إحدى إشارات المرور، تلك التي كانت تؤدي إلى الطريق الرئيس. العيون التي كانت تنظر إلينا كانت مليئةً بالشفقة والريبة معاً.

لماذا كنا قد قبلنا أن تنتهي بنا الأمور إلى هذا الحد، كانوا يتساءلون؟

ثم خرجنا، وأخيراً وصلنا إلى بداية الطريق الصحراوي، كما يسمّيه الكثيرون: الطريق العظيم المؤدي إلى الشمال. في كل حفرة، كنت أشعر وكأن كبدي أو طحالي سينفجر بفعل عشرات المرافق التي كانت تضغط على جسدي، من كل جانب. لم يصمد أسفلت المدينة طويلاً أمام مياه الأمطار وحرارة الشمس المحرقة، لذلك كان مليئاً بالحفر العميقة.

كان الطريق مستقيماً، وكنا نسير على سرعة ثابتة، تقترب من ثمانين كيلومتراً في الساعة، ولكنْ؛ بعد مرور قليل من الوقت وسط تلك الظروف، بدأت حالة أحد الأشخاص تسوء. فقدتُ أنفاسي، وكنت أشعر بين الحين والآخر أنني سأفقد وعيي، واضطررت إلى بذل جهد فوق طاقة البشر، معتمدةً على الآخرين، كي أرتفع، لسنتيمترين، أو ثلاثة؛ كي ألتقط هواءً نقيّاً. كانت الرياح تجول في ذهني دائماً، تلك الرياح التي كان عليّ يطلب مني أن أمتطيها. مساحات خضراء ترويها الرياح والفراشات الصفراء. كان هذا ما يجول في رأسي. وكانت عيناي تمتلئان بهذا المشهد. هذا ما كنت أجبر نفسي على تخيّله؛ كي لا أفكر في الواقع المرير الذي كنت أعيشه في تلك اللحظات.

في البداية، لا أحد كان لديه الشجاعة الكافية؛ كي يشتكي، فكان

الأمر يقتصر على مجرد همهمة خفيضة، ثم علا صوت النواح، إلى أن أدى إلى القَيء.

ونظراً لأننا كنا عاجزين عن تحريك أذرعنا، فقد كان المرفق ينتهي به الحال فوق أكتاف الآخرين. لم يكن هناك ما نحتمي به، فقد كانت النوافذ مفتوحةً على مصراعيها أمام العالم وأمام أشكال التقلبات الجوية كافة.

مررنا بين قريتين، يقطنهما عدد قليل من السكان.

قبل أن نصل إلى تلك المراكز، كنا قد رأينا لافتتين إعلانيتين كبيرتين ملونتين. أسدان كبيران ذوا لِبْدتين كبيرتين مكتوبٌ تحتهما اسم وكالة سفريات، كانت تعلن عن تنظيمها لرحلات سفاري: سيارة دفع رباعي كبيرة مصقولة ومشرقة مكتوبٌ عليها "اقتنِصْ أحلامك".

على جوانب الطريق، كان هناك بعض البائعين الذين يعرضون أمام غازات عوادم السيارات الخضروات أو الفاكهة التي تم حصادها في الصباح، أو أكواخ خشبية، يبيعون داخلها رقائق البطاطس المقلية والمياه والبسكويت الحلو والمُمَلَّح والعصائر والعلكة.

أثناء مرورنا، ظل الأشخاص القليلون الموجودون في الطريق يتابعونا بنظراتهم. ربما كان منظرنا مضحكاً، أو مثيراً للسخرية. أو ربما كانوا قد تعوّدوا على ذلك، فكانوا ينظرون إلينا بالفضول نفسه الذي يُنظَر به إلى إحدى أوراق الشجر المتطايرة في الهواء، تحملها الرياح، ثم تسقط. في البداية، خلال الساعات الأولى، لم أكن أرغب في الشعور بأنني جزء من هذا المجتمع، فبذلتُ قصارى جهدي؛ كي أفكر في الأمر، باعتباره وضعاً مؤقتاً. كنت أفكر في دورة الألعاب الأولمبية في لندن عام ٢٠١٢، وكنت أقول لنفسي إنه لم تكن لي أي علاقة بهؤلاء الأشخاص. لكنني استسلمتُ بعد ذلك. قبلتُ بذلك الوضع في ذلك الوقت. كنت قد تحولتُ إلى مسافرة. لم يكن لدي خيارٌ آخر، إذا كنت أريد البقاء على قيد الحياة.

على أي حال، كنا قد أصبحنا جسداً واحداً.

كان يجب عليّ أن أوائم كل حركة، أقوم بها مع الخمسة أو الستة أشخاص الذين كانوا بجانبي.

بين الحين والآخر، وعلى طول الطريق، كنا نرى نساءً عائداتٍ من الحقول، يحملن سلالاً كبيرةً فوق رؤوسهنّ، أو مجموعات من الأطفال الحفاة، يركضون وراء لا شيء، ثم يتوقفون مذهولين، وهم يراقبوننا نمرّ من أمامهم، سيارة جييب تعجّ بالناس.

حوالي الحادية عشر ليلاً، وبعد مرور عشر ساعات، توقفنا أخيراً. وسط الخلاء. كنا قد سلكنا طريقاً جانبيّاً ضيقاً، وظللنا فيه لمدة ثلاثين دقيقة. كان الظلام دامساً. لم يكن هناك أي شيء حولنا، اللهم إلا مجرد كشك كبير.

النزول كان أصعب بكثير من الصعود.

كانت مفاصلي قد تصلّبت، فقد وجدتُ صعوبةً شديدةً في ثنيها، والمشي. الركض. جال الركض في خاطري كالبرق، استنارة مفاجئة. لم يكن كبار السن قادرين على إقامة ظهورهم. فقد أطبق لساعاتٍ طويلةٍ حملٌ ثقيلٌ فوق عظمة العجز، وبعضهم لم يعد قادراً على وضع قدميه فوق أرضية صندوق السيارة.

بعد بذل الكثير من الجهد، استطاعوا أن يساعدونا في النزول من الصندوق واحداً تلو الآخر. وإذ بامرأة - كانت في أديس أبابا قد ابتسمت لي؛ كي تشد من أزري - تنظر إلي في سخط. لم تتعرّف عليّ. بدت قاسية. كان الجميع يبدون أكثر قسوةً. منغلقين داخل دروعهم.

كان علينا النوم داخل ذلك الكشك الكبير المضاء بلمبة نيون وحيدة في المنتصف. كان الضوء بارداً وطيفيّاً. لم تكن على الأرض أي فُرُش. أَدْخَلوا السيارة الجيب - أيضاً - إلى الكشك الكبير، ثم أغلقوا البوابة مجدداً.

عندئذٍ أدركت أنني عشتُ حتى تلك اللحظة وأنفاسي متوقفة، كما لو أنني كنتُ قد حبستُ أنفاسي منذ أن جاءني ذلك الصبي لاستدعائي

من شقتي في أديس أبابا. وعندما أغلقوا البوابة من الداخل، بقفلٍ كبيرٍ، ووجدتُ نفسي على الأرض في ركنٍ دون حتى حصيرة، فإذا بي أستيقظ.

كانت تلك هي "الرحلة". وهودان قد اجتازتها، بالفعل.

في لحظةٍ، طغت فوق كل شيءٍ، بجانب إثارة القَيء. كان الجسد قد تعود على الحفر والحركات الحادة، بل إن التوقف عن الحركة بات يجعل أحشائي تغلي. كان الجميع يتقيؤون على الأرض، أينما اتفق. نظرتُ إلى أعين الناس عند إشارة مرور أديس أبابا. كانوا ينظرون إلينا، باعتبارنا، لا شيء، كما لو كنا مجرد أشياء تُنْقَل، من مكانٍ إلى آخر.

لم يكن أحدٌ منا قد قال شيئاً، أو اشتكى من شيءٍ. خلال ساعتين - بينما كنا محبوسين داخل موقف أديس أبابا الذي تنتشر فيه رائحة البنزين والعرق - تمكنا من محو كرامتنا.

قبل إطفاء الضوء، قاموا بتوزيع أشرطة من الحبوب علينا، وأوصونا بأخذ قسطٍ من الراحة. كنا سوف نستأنف الرحلة بعد ست ساعات، مع بزوغ الفجر، في الخامسة صباحاً.

كان اليوم الثاني أسوأ بكثير. الآلام - التي كان كل واحدٍ منا قد تحملها على مضض - إذا بها تخرج كلها دفعة واحدة. كان كتفي الأيمن يعاني من آلامٍ مبرحةٍ. البقاء جالسين، مضغوطين، دون القدرة على الحركة، كان ذلك يجعلك توشك على الإصابة بالجنون. بعد قليلٍ، بدأتُ أشعر في الحاجة إلى التحرك. حاولت، وحاولت، إلا أن الشيء الوحيد الذي تمكنتُ من القيام به كان صعودي لهذين السنتيمترين أو ثلاثة التي أنقذت حياتي. كنتُ مكتوفةً داخل قميص التقييد.

بين الحين والآخر، كان البعض يصرخ في الهواء. وبعد قليل، كانوا يهدؤون.

مررنا على إحدى القرى التي كانت أكبر من القريتين الأخرتين. ربما كان يوم السوق؛ إذ كان الطريق مليئاً بالطاولات التي تُباع عليها الملابس

والأحذية والقبعات المصنوعة من القش والنظارات والجينز الأميركي وزيوت المحركات ومَسَّاحات زجاج السيارات وأحجبة النساء وعمائم الرجال والخيار والخوخ والخس والطماطم والبسكويت والحليب والكوكاكولا. كان كل شيءٍ قد مر أمامنا سريعاً كالسراب.

صرخ أحد الأشخاص؛ كي يتوقف السائق الذي واصل قيادته، وكأن شيئاً لم يكن.

ثم بدأ الغطاء النباتي في التقلص، اختفت الأشجار تماماً لإفساح المجال أمام الشجيرات التي كانت منتشرةً في كل مكانٍ. كذلك كان الغبار الذي ارتفع أثناء مرورنا، وخلال دقائق معدودة، غطى السيارة ورؤوسنا. ذلك الغبار الناعم. كنت أحبه. كان نفس الغبار الذي كنا نثير حركته أنا وعليّ، فكان ينتهي داخل أكواب *الشعت* لكبار السن. تفاجأتُ بأنني كنت أضحك. فإذا بالمرأة التي بجواري تنظر إليَّ، وكأنها قد جُنَّت. لم تكن تطيقني. كانت قد طقطقت لسانها في إشارةٍ إلى أنني كنت أثير الشعور بالقرف لديها. تجاهلتها. واصلت الضحك، وحدي، تغمرني ذكرياتي المُخَلِّصَة.

في تلك الليلة، قبيل منتصف الليل، أخبرونا قبل يومٍ من الموعد المحدد بأننا كنا قد وصلنا.

خارج أحد المراكز الحضرية بقليل، كانت تُرى بعض الأضواء من بعيدٍ. أوقفوا السيارة، وأمرونا أن نبقى في أماكننا. على الفور، تهلل أحد الأشخاص فرحاً، وبدأ يُحدِث ضوضاء، فقد كان يعتقد أننا نجونا. إلا أنه كان مخطئاً.

سرعان ما أعاد أحد الرجال الأمور إلى نصابها. كان من الأفضل محاولة فهم ما يريد المهرّبون أن يبلغونا به، بلغةٍ كنا نجهلها، مزيج من العربية والسودانية. لحسن الحظ كان بيننا شخص، يفهم العربية، فيترجم لنا.

"نحن لسنا في الخرطوم"، قال المهرّب. "نحن على بعد كيلومترين من

القضارِف، بعد الحدود مع السودان. إذا كان يوجد بينكم مَن لا يناسبه هذا الأمر، بإمكانه مواصلة الطريق على قدميه".

القضارف هي مدينة صغيرة في الصحراء. الخبر السيئ هو أننا لم نكن موجودين في المكان الذي دفعنا الأموال، من أجل الوصول إليه. أما الخبر الجيد؛ فهو أننا لم نعد في إثيوبيا. ودون أن يمنحونا الوقت للرد، عاد الرجلان إلى قمرة القيادة، واستأنفا الطريق.

أخذونا مجدداً إلى موقف آخر، ودون أن يقولوا لنا كلمةً واحدةً، قاموا بتسليمنا إلى مجموعةٍ أخرى من المهرّبين، كانوا - بالفعل - في انتظارنا. عندما دخلنا، وجدنا أنفسنا أمام نفس مشهد أديس أبابا. سيارات دفع رباعي، وستة رجال، كانوا يتحرّكون في غضب. كانوا يدخّنون، ويبصقون على الأرض، ويشتمون، بلغةٍ، لا أحد منا يفهمها.

كنا قد خُدِعْنا.

كان النزول أكثر صعوبةً من اليوم السابق.

كانت أجسادنا قد اعتادت على عدم الاستجابة للحركة، وعلى الاضطرار للبقاء في أوضاع غير طبيعية ومؤلمة، وعلى حركاتٍ مستمرةٍ وفائقة السرعة.

حاول البعض أن يقول شيئاً. كانوا اثنين من الإثيوبيين، قاما برفع صوتهما. كان أحدهما بمفرده، أما الآخر؛ فكان مسافراً برفقة زوجته وثلاثة أطفال صغار. كانوا قد ظلوا لساعاتٍ جالسين جنباً إلى جنب. كانوا يضربون صدورهم، ثم رؤوسهم بأيديهم، وكانوا يقولون أشياء، لم أكن أفهمها، لكنها لم تَبْدُ أشياءً لطيفةً بحق المهرّبين الأولين. هؤلاء - وكأن شيئاً لم يكن - أداروا المحرك مجدداً، وقالوا إن مَن كان مستاءً بإمكانه العودة معهم. على الفور. كان بإمكانهم أن يعيدوا له أمواله، هكذا قالوا. لم أفهم إذا كانوا يمزحون أم لا. عموماً، لم يحرك أحدٌ ساكناً.

وفي لحظةٍ، استأنفوا الرحلة بالسيارة التي أصبحت منزلنا ليومين كاملين.

ظللنا هناك ينظر كلٌّ منا في وجه الآخر دون أن ندري ماذا علينا فعله. ولكنْ؛ سرعان ما أدركتُ أن هذه كانت أحد سمات "الرحلة" التي ستغيّرك إلى الأبد: لا أحد مطلقاً بإمكانه أن يعرف في أي وقت ما الذي سيقع في الدقيقة التالية.

بينما كنا لا نزال واقفين على أقدامنا، حاولت أن أتحدث إلى فتاةٍ صوماليةٍ، كانت مسافرةً مع شقيقتها؛ كي يواسيني صوتها. صوتٌ يتحدث لغتي. كان كل شيءٍ قد حدث، بسرعةٍ كبيرةٍ. في غضون يومين، كنت قد تمكنتُ من نسيان مَن أنا.

"من أين أنتما؟" سألتهما: "هل أنتما من مقديشو؟". لم تجبني تلك الفتاة. كانت تحدّق نظرها صوب شقيقتها الصغرى، التي كانت تجلس القرفصاء على الأرض؛ كي تتمكن من تحريك ركبتيها، وتتقيأ.

"هل أنتما صوماليتان؟"، حاولت أن أسألها مرةً أخرى.

التفتت الفتاة، وجهها مغطًّى بالغبار الأبيض - حتى داخل حجابها - إلى منبت شعرها. كانت تبدو شبحاً، قناعاً أبيض ذا عينين مقفولتين.

"نعم"، أجابتني، بصوتٍ خافتٍ. ثم انحنت على شقيقتها، مُدَاعِبَةً رأسها.

سرعان ما أدركنا أنه كان علينا دفع مائتي دولار أخرى؛ كي نصل إلى الخرطوم.

ومن جديد، سيارة لاند روفر قديمة وصدئة.

كنا سوف نرحل من هناك في غضون أسبوع.

مَن كان لديه المال كان بإمكانه الدفع على الفور، أما الآخرون؛ فعليهم العثور على عمل، أو الاتصال بأحد الأقارب؛ كي يرسلوا لهم المال لدى إحدى منافذ تحويل الأموال التي كانوا قد حددوها لنا، بالقرب من هناك.

كان لدى المهرّبين هاتف، يعمل بالأقمار الصناعية، وبإمكاننا استخدامه للاتصال بأقاربنا في أوطاننا. مَن لم يكن لديه مائتي دولار على الفور، كان سيضطر لدفعها مائتينِ وخمسين.

لم أفكر للحظةٍ واحدةٍ، ودفعت إليهمَ المبلغ.

نمتُ لمدة أسبوع داخل تلك الغرفة على فراش مبلل ببول الكلاب، أو الماعز.

هناك في الخارج، كان المكان مليئاً بالماعز التي كانت تمُأمئ، في أي وقتٍ من النهار، أو الليل، كالجن، كالظمآن، كالجائع، كالمجنون مثلنا. فليسقط فوق رؤوسهم ألف لتر من المياه ذات رائحةٍ كريهةٍ، وغير صالحةٍ للشرب.

-٢٥-

بعد مرور أسبوع، استأنفتُ الرحلة. كان كل شيءٍ قد تغيّر خلال تلك الأيام. كالنبات الذي يؤتي ثماره فجأةً، من ذلك الفراش النتن كانت قد نبتت فيه البذرة الأولى لأنانيتي. كنت قد بدأت في التفكير في نفسي فقط. كل شيءٍ كان يأتي في المرتبة الثانية بعد بقائي على قيد الحياة. أصبحت أكثر وحشيةً، وأكثر وِحدَةً. كان هدفي الوحيد هو الوصول إلى نهاية "الرحلة". كنت قد وضعت نفسي بنفسي في هذا الوضع، وكان هذا الوضع قد غيّرني. إلى الأبد. في غضون أيامٍ قليلةٍ. لم يعد بإمكاني الخروج من هذا الوضع، إلا إذا كنت أرغب في الرجوع سيراً على الأقدام. لم يكن بوسعي سوى مواصلة "الرحلة" وقبول تلك الحالة. كان يجب أن أنجح في هذا الأمر، مهما كان الثمن. أصبح هدفي الحقيقي البقاء على قيد الحياة.

أصبح عددنا أقل، هذه المرة، ثمانٍ وأربعين. زادت المساحة لدينا داخل الصندوق، ولم يعد لدي الشعور بالإغماء عند كل حفرة.

كان الكل يعلم أن أسوأ ما في "الرحلة" لم يأت بعد: عبور الصحراء. كان كل شخص قد عاش على مدار حياته عشرات القصص، ومع ذلك كنا نعلم أن الصحراء كانت هي الاختبار الأصعب. لذلك كنا نحاول بشتى الطرق ألا نفكر في ذلك الأمر. علاوةً على ذلك، فقد كنا قد أخذنا قسطاً من الراحة خلال ذلك الأسبوع، كما أنه أصبح لدينا مساحة أكبر، نتحرك فيها. منحنا هذا إحساساً بالنشوة.

كنا نغني. أثناء تلك المرحلة الثانية، كنا نغني. كي نجعل الوقت يمر،

وكي نسجل تلك الساعات بأصواتنا. كانت المساحة حولنا لا تكفي. لم يكن هناك شيء. فضاء لا ينتهي من اللاشيء. أرض، أرض في كل مكان، غبار ناعم يتطاير ويخترق حلقك، أو يغلق فمك بجانب الحجاب. أرض وشجيرات جافة. ودرب، ذاك الذي كنا نسير فيه، مستقيم مثل الخط المتعامد، متجهاً صوب الشمال.

بالتناوب، كنا ننشد أغاني تتحدث عن بلادنا. بدأت امرأة إثيوبية كانت تحمل على ذراعها طفلها البالغ من العمر أحد عشر شهراً. حذا أبناء بلدها حذوها في صورةٍ متصلةٍ. ثم قمنا نحن الصوماليين بالشيء نفسه، وأخيراً السودانيون.

أنشدنا كل شيءٍ، كي لا نفكر في الأمر. لو كانت هودان موجودة بيننا، لكانت سعيدةً. مَن يدري؟! ربما قامت بالشيء نفسه في أثناء "رحلتها". ربما حظيت، بنجاحٍ كبيرٍ. يوماً ما كانت ستحكي لي ما جرى. ليس الآن. لا معنى للتفكير في أي شيءٍ آخرٍ سوى ما كان أمام أعيننا، في تلك اللحظة. المستقبل لا وجود له.

بعد عشرين ساعة بالسيارة، توقفنا مرةً أخرى.

أمام مبنى من الطوب محاط - فقط - بتلك الصحراء الغبراء.

لا شيء، في كل مكان، لا شيء.

كان الليل قد أسدل ستائره، ولكننا ظللنا لما لا يقل عن ست ساعات لا نرى سوى الأرض والصخور. الصخور والأرض. ثم - فجأةً - يختلط الغطاء النباتي المنخفض بالتربة، ليتحول كل شيءٍ إلى رمال. رمال ناعمة، بالمعنى الحقيقي للكلمة.

كنا قد دخلنا في الصحراء دون أن ندرك ذلك.

ها هي الأغاني مجدداً. هنا كانت تكمن أهميتها.

سرعان ما أدركنا مجدداً أننا لم نكن في الخرطوم، ولكنْ؛ في مكان قدموه لنا على أنه يدعى شريف الأمين. حتى ذلك السائق ورفيقه كانا لا يتحدثان سوى السودانية وقليل من العربية. من جديد، كان بعضنا يقوم بالترجمة.

قالوا لنا إن السيارة حدث بها عطل، وإننا كنا مضطرين للتوقف.

أثناء "الرحلة" تدرك أن الحقيقة ليست شيئاً ينتمي إلى مَن يفر ويحتاج إلى ملاذ. تلك السيارة لم تكن قد تعطلت، بل إنها كانت تعمل، بصورة ممتازة. لكننا أردنا أن نصدّقهم، فقط لأننا كنا نحتاج إلى أن ننزل، وأن نحرك سيقاننا وظهورنا قليلاً. تتم مقايضة الحقيقة بالبقاء على قيد الحياة. مقابل القليل. مقابل لا شيء.

إلا أن أحد الصوماليين استشاط غضباً. كان نحيفاً، ويبدو من هيئته أنه مثقف. كان يرتدي نظّارة صغيرة ذات إطارٍ رقيق، وقد غطّت عدساتها طبقةٌ من الغبار، ربما يكون قد اعتاد عليها.

"يا لكم من محتالين أقذار"، هكذا قال باللغة العربية. "لصوص وأبناء سِفَاح! محتالين، لا تساوون شيئاً"، هكذا انبرى في الحديث، إلى أن علا فمه رغوة من ريقه.

اقترب منه مساعد السائق، ولطمه صفعةً مدويةً. سقط الرجل على الأرض. تحطّمت نظارته، كُسِرَت في منتصفها. بصعوبة - وقد التقط بقايا نظارته المهشمة - نهض، وأصر: "أنتم مقرّزون. أنتم محتالون، لا تساوون شيئاً". سدّد المهرّب ركلة إلى أعلى عضلة ساقه، فأرداه أرضاً مجدداً. ثم قال: "اخرس، هوايان". حيوان.

ثم انتهى المشهد.

كنا تحت رحمتهم.

كانوا يعرفون ذلك، فقد تعلّموا فهم متى يتحول الإنسان إلى محتاج

لمأوى. يستطيعون قراءة ذلك في الأعين. إنه أمرٌ واضحٌ. واضحٌ كالشمس المشرقة، كالمياه المتدفقة. إنه شيءٌ، تحمله مكتوباً في عينيك. يمكنك القيام بكل شيءٍ؛ كي تخفي ذلك، لكنك لن تفلح في ذلك أبداً. إنها رائحة الحيوان المقهور.

هناك، للمرة الأولى، نادونا بـ "حيوانات". عندما تدخل إلى الصحراء، تَفْقِد إنسانيتك. كنت في السابق تهريب في أديس أبابا، لكني - الآن - أصبحت تهريب تحتاج لمأوى. مهاجرة غير شرعية هشة. حيوان يربطه بالحياة خيطٌ رفيعٌ للغاية.

يوسعونك ضرباً.

إن كنت لا تملك المال: يوسعوك ضرباً.

إن لا تنفّذ الأوامر: يوسعوك ضرباً.

إن تجرأت على الرد: يوسعوك ضرباً.

إن طلبت مزيداً من المياه: يوسعوك ضرباً. لا يهمهم إن كنت رجلاً، أو امرأة، كنت راشداً، أو طفلاً: يوسعونك ضرباً.

إن بالغت في إزعاجهم: يحضروا لك الشرطة.

وعندئذٍ يكون أمامك طريقان: إما أن ترشي رجال الشرطة؛ كي يسلموك إلى مهرّبين آخرين، أو تتركهم يعودون بك إلى الخلف عند الحدود مع إثيوبيا.

سرعان ما يتعلم المرء أثناء "الرحلة" الصمت والصلاة.

سرعان ما يتعلم المرء أثناء "الرحلة" أن ينسى السبب الذي حمله إلى هناك، وأن يلجأ إلى الصمت والصلاة.

في شريف الأمين، في ذلك البيت المبني من الطوب الذي كان بمثابة سجن، توجد قضبان على نوافذه، قضيتُ عشرة أيام. لتران من المياه كل

أربعٍ وعشرين ساعة، إضافة إلى جبتين من الطعام. فراش على الأرض، في عنبر للنوم، يسع لثلاثين فرداً.

للوصول إلى الخرطوم، كان على الواحد منا أن يدفع مائتي دولار أخرى.

كان المال الذي لديّ قد قارب على النفاد.

في اليوم الثالث، اتصلت بهودان في فنلندا، واعترفت لها بأنني كنت قد رحلت. كانت تعتقد أنني كنت لا أزال في أديس أبابا، فلم أكن أرغب في إبلاغ أحد بهذا الأمر. كان لديّ فقط دقيقة من الوقت، لا أكثر. كانت تعرف ذلك. يمنحك ذلك المهرّبون، بهواتفهم التي تعمل بالأقمار الصناعية. تبدو الدقيقة غير كافية، لكنْ؛ في تلك الظروف تصبح وقتاً طويلاً للغاية. خلال تلك الدقيقة يمكنك أن تقول ما تشاء. تتعلم أن دقيقة من الوقت قد تنقذ حياتك. لا تحتاج لأكثر من ذلك.

لم تكن هودان تتوقع ذلك، فأثناء ما كانت تتحدث دون توقف، طلبت مني أن أنتبه إلى حالي، وأن أحاول أن أصادق الصوماليين، وأن أبقى - دائماً - في مجموعات، وألا أبتعد أبداً، وأن أحاكي تصرفات الآخرين، لا يلحظ أحدٌ وجودي قدر الإمكان. وفجأةً، بدأ عقلي يعمل، فكنت أسجّل كل ما كانت تقوله لي.

سألتني أين كنت، فأخبرتها.

لم تكن هودان قد ذهبت إلى ذلك المكان، لم تكن تعرفه، فقد كانت "رحلتها" قد اتخذت مساراً آخر.

قلت لها إني كنت في حاجة إلى المال لمواصلة "الرحلة"، فلقد نفد المال الذي كان لدي، ولم أكن أرغب في الاتصال بأمي أو سعيد؛ كي لا يقلقوا. كنت أنوي الاتصال بهم من إيطاليا، بعد أن أصل.

أبلغتها بالمكان الذي كان بإمكانها تحويل الأموال إليه.

قبل أن تنهي المكالمة ذكّرتني بألا أخشى شيئاً.

"لا تقولي - أبداً - إنك خائفة، يا سامية".

"حسناً، *أبايو*".

أبداً.

كان هذا ما قلته لها أثناء "رحلتها".

ولكنْ؛ حينها كان كل شيءٍ مختلفاً. كنت خائفةً، كنت خائفةً، بشدة. مُشَتَّتَة. كنت أشعر أنني مُشَتَّتَة. مثل صورة محمد فرح التي تم سحقها داخل الكيس الصغير، كنت أشعر بأنني ضعيفة مثل أجنحة فراشة. نفس درجة تماسك سحابة.

كم من الأشياء يمكن قولها في دقيقةٍ واحدةٍ! كم!!

بعد ثمانية أيام، وصلت الأموال. وبعدها، بليلتين، استأنفتُ "الرحلة".

-٢٦-

لدى وصولي إلى الخرطوم، كنت أعرف أنني يجب عليّ أن آخذ قسطاً من الراحة، وأستعيد قليلاً من الطاقة لمواجهة الجزء الأصعب في "الرحلة": عبور الصحراء.

خارت قواي. كنت ذكرى لنفسي، دون حاضر، مجرد خيط رفيع من الذكريات والصور المتناثرة. كان هذا حالي.

بقيت ستة أسابيع داخل شقة صغيرة في إحدى الضواحي الجنوبية للمدينة مع ثلاثين امرأة أخرى. شهر ونصف. كل ما كنا نقوم به هو النوم والخروج بالتناوب لشراء المواد الغذائية من السوق، أو من إحدى المحال على بعد ما يقرب من مائة متر من المنزل. كنا تهريب، كان علينا أن نكون حذرات. كنا نتنقل باعتبارنا تهريب. كان لدينا أعين تهريب. كنا نبدو فئران صغيرة كثيرة على أهبة الاستعداد، يسيطر عليهم جنون العظمة، مسعورة. كان الخطر يكمن في العودة إلى نقطة الصفر.

اضطررت إلى إعادة الاتصال بهودان، وطلبت منها أن ترسل إلي خمسمائة دولاراً أخرى لرحلة كان من المفترض أن توصلنا إلى طرابلس. عن غير قصد، كنت أستعيد أموال عليّ التي كنت قد أرسلتها لها، من أجل منار. ولكن كل شيءٍ كان قد تغيّر. كانت منار تأتي في أحلامي، ولم تعد تخطر ببالي أثناء يقظتي. فعندما كنت مستيقظةً، كنت أفكر فقط في أن أبقى على قيد الحياة.

ولم يكن أحد قد أبلغني بأن "الرحلة" ستكون مكلفةً إلى هذا الحد.

كنت أعرف أنهم لن يأخذونا إلى طرابلس، وأنهم كانوا سيتركوننا في مكانٍ ما. لكنني كنت قد تعلمتُ الدرس جيداً. كان يكفي ألا أفكر في الأمر؛ كي لا أسمح للخوف بأن يسيطر عليّ.

قضيت أربعين يوماً محبوسةً داخل تلك الشقة في مبنى مكوّن من ستة طوابق في أسوأ ضواحي الخرطوم. كانت هناك نافذتان فقط، وفي الأفق، كان يظهر - فقط - إسمنت المباني المتهالكة الأخرى مثل ذلك المبني. جدران مُقَشَّرة، وشرفات متهاوية. بين مبنيين، من بعيدٍ، على مرمى البصر، كانت تظهر قطعة من الصحراء.

ذهبٌ.

كانت حرارة الجو حارقةً. وكنا إحدى وثلاثين امرأة، وثلاثة أطفال، نقبع داخل أربعين متراً مربعاً. قضيت الأيام العشرة الأولى على الأرض، على حصيرة.

كان ينقصني الهواء، حتى في أحلامي.

ثم ارتكبت خطأً.

بالرغم من كل شيءٍ، ربما كنت أشعر أنني لا أزال بعيدة عن الخطر، لا أُقْهَرْ، سامية كما عهدتها دائماً. كنتُ قد فقدتُ هويتي، كما كنتُ أجد صعوبة في أن أتذكر مَن أنا، وكانت الذكريات تطفو على السطح كالبرق الخاطف عندما كانت تريد ذلك. ولكنْ؛ ربما ما كنا عليه في أعماقنا لا يُمحَى. ربما الأمر كذلك، فنجد أنفسنا - في نهاية المطاف - نتعرف على هويتنا، من خلال أفعالنا، فحسب. كانت أيانا - إحدى الفتيات الصوماليات - قد حذرتني ألا أقوم بذلك. لكن المياه كانت قد نفدت، وكنا ننتظر غروب الشمس؛ كي نخرج، ونتمكن من شراء صفائح المياه. كنت أشعر بالعطش. في تلك الليلة، كان عرقي قد أغرق ثيابي، إلى أن بلل الحصيرة الصلبة. شربتُ من ماء صنبور الحمام. وبعد مرور ثلاث

ساعاتٍ، بدأت أشعر برعشةٍ قويةٍ، في ظهري وذراعيَّ وساقيَّ، وفي كل أنحاء جسدي. عرقٌ باردٌ. ثم شعرت بالغثيان والهلوسة. أصابتني حمّى، لم أُصَب بها من قبل. أصبتُ بالزُّحار. منذ بدء "الرحلة"، لم أكن قد تناولت الكثير من الطعام. العضلات التي كانت قد بدأت تتكون في جسدي إثر التدريبات التي كان يطلبها مني إشيتو بدأت في التلاشي تدريجيّاً. أدركت ذلك بمفردي. جاءني الزُّحار كالضربة القاضية. قضيتُ عشرين يوماً فوق الحصيرة في حالةِ غيبوبة. كانت أيانا تحاول مواساتي. لم تُصَب بشيءٍ، إلا أن هناك أخريات قد مَرِضْنَ مثلي. وإن ليس بسبب الماء، فمن الممكن أن يكون بسبب فاكهة غير مغسولة، أو مغسولة بنفس ذلك الماء، أو ربما بسبب سمك فاسد.

كنت سأرحل قريباً، لكنني انتظرت أن أستعيد قواي. لم تكن أيانا تعرف أحداً في أوروبا؛ لتتصل به كي يرسل الأموال، لذلك كانت ستضطر لأن تبقى في ذلك المنزل لفترةٍ أطول بكثيرٍ مني. كانت قد بدأت - بالفعل - في اعتباره منزلاً لها.

ثم تعافين، وأخيراً. استعدتُ قواي. تلك التي كانت تكفيني.

قاموا بإلقائنا جميعاً بالداخل، كان عددنا هذه المرة أكثر من المرة السابقة. ستة وثمانون. كنا متلاصقين، بشدة، لدرجة أننا كنا نتقيأ، بسبب قلة الهواء. مرة أخرى سيارة جييب.

بعد بضعة كيلومترات، لم يكن أحد يتحدث، لم يعد هناك مَن يشتكي، لم يعد أحد يرغب في الغناء. الرحلة عبر الصحراء قاسية للغاية. كانت حرارة الجو تكاد تقتلنا، إضافةً إلى أن السيارة كانت تسير، ببطء. كانت تحافظ على سرعة أربعين كيلومتراً في الساعة. لا تُبْطِئ، ولا تُسْرِع، كي لا تتعثّر في الرمال. كان كل شيءٍ قد أصبح مثيراً للأعصاب، حتى التنفّس. كان الأمر يشبه السير في طريق، لا نهاية له، وبخطى القوقع. بعد كل متر، كان يُرَى أن الطريق يزداد بدلاً من أن يتناقص.

كان من المفترض أن يستغرق ذلك الطريق أربعة أيام. كنا ننتظر - فقط - لحظة توقف السيارة، مرتين في اليوم. إحداهما أثناء النهار لقضاء الحاجة، وشرب المياه. الثانية ليلاً للنوم فوق الرمال. باتت الأيام متشابهة، انتظارٌ متزايدٌ، لا نهاية له. منذ اللحظة التي كنتَ تستأنفَ فيها الرحلة، كنتَ تبدأ في حساب الوقت الذي كان يفصلك عن الوقفة التالية.

كان المشهد المحيط بنا يسيطر عليه ضوء القمر، تتساوى فيه السماء والأرض. لا توجد نقاط استرشادية. مثل القفز في المرآة. امتداد لا نهائي من الرمال. متجانس؛ بحيث يستحيل المرء في نهاية المطاف رمالاً هو أيضاً. لأنه يتخلل كل مكانٍ، وبعد فترةٍ قصيرةٍ للغاية، يملأ العينين والحلق والرئتين، فتضطر إلى ابتلاعه؛ كي لا يجفّف فكّيكَ. وسرعان ما تكف عن المقاومة، وتغلق عينيك، ببساطة، تضغط على فكيك، ثم تقوم بالعد. تقوم بالعد إلى ألف، وبعد كل مائة، تبتلع ما بقي لك من لعاب، بينما تحافظ على العدد بأصابعك. ثم تواصل العد، إلى أن تَصِل إلى عشرة آلاف. تعرف أنه عندما تَصِل إلى ألف، سيكون قد مضت عشرون دقيقة. هذا ما علمني إياه أمير، صومالي، تعرفت عليه في الرحلة الأولى من أديس أبابا، إلى القضارِف." إذاً تُواصِلين العد إلى أن تَصِلِي إلى عشرة آلاف. ثلاث ساعات. عندما تنتهين من العد إلى عشرة آلاف ثلاث مرات، تكون قد حانت تقريباً لحظة التوقف. الاستمرار في ذلك يجعلك تصبحين رمالاً أنتِ أيضاً، لأنك تشعرين أنك صغيرةً مثل إحدى حبات تلك الرمال البيضاء الشاسعة، أو مثل واحدة من الثواني التي تجول بخاطرك باستمرار، كالمجنونة".

ظللتُ محتفظةً بالكيس البلاستيكي الصغير تحت قميصي.

كان لدينا عشرة لترات من المياه لكل شخص لمدة أربعة أيام. لتران ونصف في اليوم - في ظل درجة حرارة الصحراء التي كانت تبلغ خمسين درجة - لم يكونا كافيين لمجرد بضع ساعات.

بين الحين والآخر، كان النعاس يغلب البعض، بينما يسقط البعض

الآخر مغشيّاً عليه، بسبب نقص الهواء. حدث ذلك لي أيضاً. أدركت ذلك السيدة التي كانت بالقرب مني - عجوز صومالية - فحاولت أن توقظني ببعض الحركات في كتفيَّ، لكنني لم أستجب. عندئذٍ أخرج أحد الأشخاص زجاجة مياه كان قد تمكن من إخفائها. ذاع الأمر بيننا، وسرعان ما وصلت زجاجة المياه إلى السيدة. سكبتْ بعضاً منها فوق رأسي، فاستردتُ وعيي. أين ذهبت قوتي؟ أين اختفت محاربة الأولمبياد؟ هل كنت - حقاً - قد ذهبتُ إلى بكين؟ أم أن ذلك كان مجرد حلم؟ حفل الافتتاح، وأنا نجمة ساطعة في السماء؟ ومحمد فرح في وسط الميدان الذي كان يضحك مطمئناً، هل كانت هلوسة أخرى؟

في المساء، تتواصل الرحلة، إلى أن يصبح السائق غير قادر على القيادة. كان المهرّبون يُبقون مصابيح السيارة مطفأةً، ويستخدمونها، بأقل قدرٍ ممكنٍ، كي لا تراهم مروحيات الشرطة التي كانت تجوب الصحراء. وبحلول الليل، تجد نفسك داخل الصحراء، وسط الظلام، مندس وسط عشرات الأجساد داخل سيارة متهالكة، تسير - ببطء - كالقوقع.

فور غروب الشمس، كان يبدو وكأنك تسافر داخل كابوس. كان العدّ يبعث على نفسي الطمأنينة، ويغذي مخيلتي. بين الحين والآخر، كان يُهَيَّأ لي، وكأنني على متن طائرةٍ، كما حدث عندما ذهبت إلى بكين، وتناولت الحبوب المنومة. مثلما حدث في تلك المرة، كان الضجيج المستمر للمحرك، يجعلني أحلم بأنني داخل نفق مظلم، لا نهاية له. كنت أفتح عينيَّ فجأةً، فيتلاشى كل شيءٍ. كنت ذاهبةً إلى الصين، للمشاركة في دورة الألعاب الأولمبية. كنت أتخيل كم سيكون الفندق رائعاً. تمنيت أن أصافح فيرونيكا كامبل - براون التي كانت ستتطلع في وجهي، بفضول، ثم بإعجاب. تخيلتُ أنني سأعدو في ملعبٍ ضخمٍ، أمام كاميرات من جميع أنحاء العالم. كنت أنوي تقديم أفضل أداء عندي. وفي النهاية، تخيلتُ كيف سيقف الجميع، ويصفقون لي، وكيف كان صحافيو العالم، بأسره، سيُجرون لقاءاتٍ صحافيةً معي، وكيف كان وجهي سيجوب كل ركنٍ من أركان المعمورة.

ثم اصطدامٌ أقوى، انحرافٌ مفاجئٌ، أو غَوْرٌ عميقٌ، قيءُ أحد الأشخاص. كنت أعود حيث كنتُ. داخل نفق أسود، كان موجوداً بالفعل. كيلومترات وكيلومترات دون مصابيح مضاءة، نهتدي بنظام تحديد المواقع (GPS) فقط.

كان عددنا ستة وثمانين شخصاً، تتوقف مصائرنا على تكنولوجيا نظام تحديد المواقع (GPS).

لا يوجد طرق في الصحراء. لا توجد مسارات. كان كل مُهَرِّبٍ، في كل "رحلة"، يسلك طريقه الخاص. في الصباح تغطي الرمال علامات الإطارات التي تُمحى إلى الأبد. لا توجد "رحلة" مماثلة للأخرى.

يبقى المرء لأيامٍ في أيدي مهربي البشر الذين كانوا - بدورهم - يتركون أنفسهم تحت رحمة علبة صغيرة متصلة بالأقمار الصناعية.

قُرْب حلول الثالثة صباحاً، كنا نتوقف في نقطةٍ ما وسط تلك المساحة الشاسعة من الحَدَب الرملي، نأكل موفًّا، وهو عبارة عن هريس من الحبوب ودقيق الذرة، وكنا نحاول النوم في أوضاعنا تلك، الكل حول تلك السيارة الصَّدِئَة التي تبدو من الخارج أصغر حجماً.

كانت العائلات تبقى معاً، والأطفال يبكون، وكبار السن يشتكون.

كنت قد صادقتُ إحدى الفتيات الصوماليات، زينا، تَكْبُرُني سناً بقليل، كانت تريد أن تصبح طبيبةً. كان لديها حلم الوصول إلى أوروبا، ودخول الجامعة. أي جامعة، في أي مدينةٍ أوروبيةٍ، بالنسبة لها، لم يكن هناك فرقٌ كبير. كانت تسافر مع جدتها العجوز، التي كانت تلازمها دائماً.

على الرغم من كل شيءٍ، لم تكن لدينا رغبة في النوم. كان من الصعب الخلود إلى النوم. الكثيرون كانوا يُصَلُّون. كانوا يُصَلُّون، بصوتٍ عالٍ. لم يكن الأطفال يكفون عن الحركة مطلقاً، ولم يكن الآباء يعرفون كيف يتصرفون. كان هناك طفل يبلغ من العمر أربع سنوات برفقة أمه وأبيه. كان سعيد

يبدو متشيطناً. كان يبكي طوال ساعات النهار، ولم يكن يتوقف حتى في الليل. لم يكن يتوقف أبداً. من كثرة بكائه، وبسبب كثرة احتكاك أحباله الصوتية داخل حلقه، بات صوته مبحوحاً، خفيضاً مثل صوت عجوز مختل، أو كلب ضال مقيَّد في أحد الأعمدة منذ أسابيع. كان والداه يبذلان قصارى جهدهما لإسكاته. كل مساء، يضطران إلى الابتعاد به، بالتناوب؛ كي لا يزعجوا المجموعة.

في مساء تلك الأيام - وأنا مستلقية فوق الرمال، وسط صراصير وخنافس الصحراء، كرات سوداء صغيرة الحجم، لا هدف لها - كنت أفكر في أبي وأمي. كنت أبكي طالبةً المساعدة من والدي، في صمت. أو كنت أتحدث إلى هودان، قائلةً لها إنني سآتي إليها قريباً. كنت أفكر في بكين، في الأيام السعيدة، في صباح ذلك اليوم الأول في الفندق أمام هيئة الإذاعة البريطانية (BBC). كنت أفكر في التصفيق، والناس الواقفين الذين يهتفون باسمي.

كنت أركّز في أولمبياد لندن المقبلة، وكنت أشجّع نفسي.

بهذه الطريقة فقط، كنت أستطيع أن أنام.

بعد يومين من السير، عند منتصف اليوم، تعطّلت سيارة اللاند روفر، ولكنْ؛ هذه المرة تعطلت حقاً.

بدأتْ بإحداث اهتزازاتٍ عنيفةً لقليلٍ من الوقت، ثم تعثرتْ في الرمال. كنا في وسط الصحراء، ودرجة الحرارة تبلغ خمسين درجة مئوية، ولم يكن لدينا أي وسيلة من وسائل الحماية.

نزلنا جميعاً من السيارة. حاول المهرّبون أن يفكّوا بعض أجزاء السيارة دون السماح لأحدٍ بالاقتراب من المحرك. بعد ثلاث ساعات، أدركوا أنه لم يكن بإمكانهم القيام بشيء، فطلبوا المساعدة، وأبلغوا إحداثيات جهاز تحديد المواقع (GPS) الخاص بهم.

كان الأطفال يبكون، أما كبار السن؛ فكانوا يحاولون الاحتماء بالظل الضيق الموجود أسفل السيارة. ظللنا هكذا لمدة أربع وعشرين ساعة. كانت المياه قد نفدت منذ قليل. كنا نعتقد أننا سنموت جميعاً، وبات هذا الاعتقاد جماعياً بعد أن كان فرديّاً. لا أعرف كيف، ولكنْ؛ فجأةً بدأ الجميع في الاستسلام تحت وطأة نفْس الثقل، كما لو أن مطرقةً ضخمةً قد ظهرت، وبدأت تضغط فوق رؤوسِ الجميع في وقتٍ واحدٍ. ساعات طويلة تحولت إلى هلوسة، بينما كنا جالسين فوق الرمال دون مأوى، تحولتْ تلك المشاهد إلى شيء مشترك بيننا.

ثم جاء من بعيد دَوِيّ المحرك. لم نكن نعرف إذا كان حقيقيّاً أم وهميّاً. ولكن وراء إحدى الكثبان الرملية ظهر شكل سيارة. كانوا قد عثروا علينا. وكان لديهم الماء أيضاً. كانت هناك صفائح كثيرة معلقة خارج السيارة.

مساء ذلك اليوم نفسه، استأنفنا الرحلة.

سرعان ما يصبح الأشخاص أكثر شراً. كل شخص يفكر في نفسه فقط.

لا أحد يشرح لك ذلك الأمر مسبقاً، تدركين بمفردك أنك مسؤولةٌ على عدم وقوعك من السيارة. إذا وقعت، لن يتوقف المهرّبون. يخبرونك بهذا الأمر منذ البداية، قبل بداية كل رحلة.

هناك ثلاث قواعد فقط، متشابهة لكل رحلة، يتم تطبيقها، في كل مرة.

القاعدة الأولى. لا يمكنك أن تأخذ معك أي شيء سوى الكيس الصغير.

القاعدة الثانية. إذا تمردت في أي لحظةٍ على ظروف الرحلة، وحاولت إجبار السيارة على التوقف، ستُترَك حيثما كنت.

القاعدة الثالثة. إذا وقعت من السيارة، لن يتوقف السائق.

فائدة هذه القاعدة الأخيرة هي تجنّب وقوع المشاكل. لن يتم إهدار كثير من الوقت. يكفي - فقط - التوقف، واستعادة مَن سقط، الزّجّ به من

جديد داخل صندوق السيارة، ثم استئناف الطريق. إلا أن ذلك لا يحدث. إذا سقطت، لن يتم إنقاذك. إذا فكرت في احتمال سقوطك، سيسقط - بالفعل - الكثيرون. وفي غضون ساعاتٍ قليلةٍ، يولد اليأس. وبعد بضعة أيام في حرارة الجو، سيظهر النمل الذي هو نحن. من الأفضل تحريض الجميع ضد الجميع، وتجنّب خطر غَوْر الإطارات داخل الرمال.

ثم إنك مجرد *هوايان*، حيوان يدفع المال؛ كي يتم نقله من نقطة إلى أخرى، لا أكثر. بل أنت دليل جريمة المهرّبين إذا أوقفتهم الشرطة. كل عرقلةٍ، كانت بمثابة مضيعة للوقت.

صباح آخر يوم، زينا وَجَدَّتُها كانتا قد وجدتا نفسيهما في نهاية صندوق السيارة. كنا قد نمنا بعيداً عن السيارة لتجنّب الطفل سعيد الذي لم يكن يريد التوقف عن البكاء. عندما نادوا علينا، وقت الفجر، أدركنا أنه كان يتعيّن علينا الإسراع، وإلا كنا سنصعد أخيراً. كانت الجدة تجد صعوبةً في السير، كان لديها التواء، ربما تكون قد أبقت قدميها في وضعية سيئة لساعاتٍ طويلةٍ متواصلةٍ. ركضت إلى الأمام؛ كي أحجز مكاناً لهما أيضاً. لكنْ؛ بدأ أحد الأشخاص في رفع صوته، لم يكن من حقّي حجز أماكن لأي شخص، فقد كان كل شخصٍ مسؤولاً عن نفسه. قلتُ شيئاً بخصوص السيدة العجوز، فإذا بإحدى السيدات الإثيوبيات تصرخن، وهمّتْ بتوجيه صفعةً إلى وجهي، إلا أنني تفاديتها. جَلَسَتْ بجواري. حاولت أن أتزحزح إلى الخلف، لكنْ؛ لم يكن هناك سبيل لهذا، فقد كانت الكتلة البشرية قوية، للغاية. اضطررت إلى البقاء؛ حيث كنت. ناديتُ على زينا، بصوتٍ عالٍ، فأخبرتني من نهاية الصندوق ألا أقلق: كانتا جالستين.

بعد بضع ساعات، وفجأةً، صاح أحد الأشخاص، بلغة، لم أكن أعرفها. ربما العربية، ربما الإثيوبية، ربما السودانية، أو الإنجليزية، ثم آخرون، في المقدمة، أخذوا يطرقون بأيديهم فوق سقف قمرة القيادة.

"توقفوا! توقفوا!"

ظننت أن أحدهم كان مريضاً، فقد كان يحدث ذلك بين الحين والآخر. واصل السائق طريقه، وكأن شيئاً لم يكن. إلا أن ذلك الشخص كان مصرّاً في الطرق على سقف قمرة القيادة. وبعد قليل، قام المهرّب بفتح نافذة السيارة، وأخرج ذراعه، ويده مفتوحةً تجاه الصندوق في إشارة باللغة العربية تعني "الجحيم" يقصد بها "توقفوا عن ذلك"!

ثم سُمِعَ صوت، مَرَّ من أذنٍ إلى أخرى.

كان قد سقط أحد الأشخاص. سقطت جدة زينا.

-٢٧-

تركونا عند الحدود مع ليبيا. كان ذلك يوم ١٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١١.

توقفت اللاند روفر، وانتظرنا.

لست أدري كيف كانوا يعرفون أن هناك تنتهي الأراضي السودانية، فقد كنا محاطين بالرمال - فقط - في كل مكان. لكن الأراضي السودانية كانت قد انتهت هناك، بالفعل. انتظرنا، لساعاتٍ.

ثم أتوا، لأخذنا.

مهرّبون ليبيون.

أسوأ بكثير من السودانيين، كما كان يُشاع عنهم. فالقانون في ليبيا كان أشد قسوةً.

لقد وصلوا، حملونا على حافلة صغيرة، وأوصلونا إلى سجن كفرة.

هناك كان ينتظرنا الكابوس الأسوأ.

كلنا كان يعلم ماذا كان سجن كفرة. قد تبقى في ذلك المكان إلى الأبد، إن لم يكن لديك المال الذي يطلبونه منك، وقد كان المبلغ الذي يطلبونه باهظاً. أو عندما تبدأ رائحة جثتك في الظهور، كان يتم نقلك إلى الحدود مع السودان، قبل أن تموت، بقليل. يتركونك وسط الصحراء؛ كي تموت هناك.

هذا ما كان يُشَاع.

بالرغم من ذلك، لم يكن الانطباع الأول صادماً. كان أفضل من سجن شريف الأمين، فقد كان أكبر حجماً، وأكثر رحابةً. يتألف البناء من كتل الخرسانة الخام، وهو قائم وسط الصحراء. تمتد حوله كثبان الرمل الذهبية، بلا نهاية، وتنتشر رائحة الغبار الذي تحركه رياحٌ خفيفةٌ، تَنْسَلُّ من البوابة التي يتركها الحراس مفتوحةً أثناء النهار.

عندما وصلنا، حظينا، بمعاملةٍ حسنةٍ. قاموا بفصل النساء عن الرجال، وأحضروا لنا الماء والغذاء وفقاً لرغبة كل شخص. نظّفوني. وارتديت ملابس جديدة. قالوا لي "مرحباً بك، في ليبيا". وضعوني على فراش، أثار داخلي شعوراً طيباً، بعد أن أمضيتُ أسابيع ممددة على ظهري.

لكن هذا كله استمر ليومين فقط.

في نهاية اليوم الثاني، عادوا، وطلبوا منا المال.

ألف دولاراً لنقلي إلى طرابلس.

كالعادة، إن لم يكن لدينا المال، كان بإمكاننا إجراء اتصال هاتفيّ. لا تتعدى مدته الدقيقة.

جاءوا خمس مرات في اليوم لتذكيري بدفع الأموال. خمس مرات، بالعصي و*الهافتا* الخاصة بهم، *هاوايان*، "ادفعي، أيتها الحيوانة". إلى أن دفعت لهم. قد يستغرق الأمر أسابيع، أو شهوراً. لا يهمهم ذلك، فهم لا يسأمون. هذا - فقط - إذا كنت قادرةً على أن تجعليهم يعتقدون أنك سوف تدفعين لهم عاجلاً أم آجلاً.

عندما يدركون أنك لن تقوم بالدفع، فهناك احتمالان.

إذا كنت رجلاً، يعيدونك - مرةً أخرى - إلى الحدود.

إذا كنت امرأة، يقومون باغتصابك مقابل إعطائك تذكرة ذهاب فقط. هذا ما حكته لي تاليا، فتاة صومالية، في اليوم الثالث بعد وصولي. كنت

قد أدركت أنها من بلدي، وكنت في حاجة إلى التحدث إلى شخصٍ ما، والشعور بمواساة صوتٍ ما، كنت أحتاج إلى حوار مجاني وإنساني. كنا ننام قريبين من بعضنا البعض، وذلك اليوم كنت قد التقيتها في الفناء المشترك، وتحدثت معها. "ما اسمك؟ أنت صومالية؟"، سألتها، وأنا جالسةً بجانبها على إحدى الأرائك المتكئة إلى الجدار الطيني. كانت تنظر إلى الأرض، لا أحد يعلم أي مرحلة في "الرحلة" كانت قد أفقدتها الشجاعة على النظر في عيون الأشخاص.

كرّرت عليها السؤال: "ما اسمك؟".

لم تكن تتحدث. لكنني أصررتُ.

بعد قليلٍ، قالت "تاليا"، ثم عاودتْ النظر إلى الأرض. بدأتُ أطرح عليها أكثر الأسئلة حماقةً، فقد كانت لدي رغبة في الحديث. لم تعد تاليا تجيب عن أسئلتي. ظللت أطرح عليها أسئلتي كالمجنونة لنصف ساعة، ربما لساعة. كنت أريد أن تجيبني. في النهاية، اكتفت بقولها: "تركتهم يضاجعونني كالعاهرة؛ كي أرحل، أنا هنا منذ أربعة أشهر".

احتاجت هودان ثمانية وعشرين يوماً قبل أن ترسل لي المال إلى كوخٍ خشبيٍّ لتحويل الأموال، يوجد عند مدخل السجن من قبيل الصدفة. ثمانية وعشرون يوماً، بدت بلا نهاية، لم أتناول خلالها سوى المياه والفول السوداني. بعد الثمانية والأربعين ساعة الأولى، لم يعطونا أي شيء آخر، فقط المياه والفول السوداني. كما يفعلون مع القردة. إذا كان لديك المال، بإمكانك شراء كل ما تريد من الحرّاس، وكان المهرّبون يأتون إليك، ويأخذونه منك كمقدَّم للألف دولار.

كان السجن مقسماً إلى قسمين، قسم للذكور، وآخر للنساء. كما كان يوجد فناء مشترك، يمكننا التجول فيه، واستنشاق رياح الصحراء المتّسخة. لم يكن يحدث شيء. كانت قوانا قد خارت، وأصبحنا مساوين لظلالنا. لم يكن أحد يتحدث، كان البعض يتحدث، بشكلٍ طائش، بسبب حرارة الجو،

أو الوحدة، أو الحنين إلى الماضي. كنت أحاول الحفاظ على هدوئي، والبقاء بمنأى عن المتاعب.

ذات يوم، اتفق أربعة رجال إثيوبيين كانوا في الكفرة منذ خمسة أشهر على تلقين الحرّاس الذين كانوا قد قاموا بضربهم في السابق درساً. كانوا يعلمون أن الغلبة لن تكون لهم، لكنهم كانوا قد فقدوا عقولهم، فأرادوا أن ينفّثوا عما كان بدواخلهم، وتذوُّق طعم الاعتداء بالضرب، وإلحاق الأذى بالغير. ذاع بين الناس ما كان سوف يحدث، وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي كنا نتحدث فيه. كان ذلك بمثابة عرض مسرحي لنا، حياتنا التي كنا نعيشها على حافة النجاة. في الساعة الثانية بعد الظهر، تجمعنا في الفناء؛ كي نشهد الانتقام. كان الحراس الأكثر قسوة اثنين، يضربان بالعصا حباً بالأذى، وتهشيم الوجوه. بعد اختلاق أحد الأعذار، قام إثيوبيان، بالنداء عليهما. وصل الحارسان، ينفخان في زيهما الأخضر ذي الأكمام القصيرة، ويمسكان بهراوة ومسدس في حزاميهما. وعلى الفور لحق بهم الإثيوبيان الآخران، وأحاطوهما، وأوسعوهما ضرباً، بالركلات واللكمات دون أن ينظروا إلى أي شيء، إلى أن سقط الرجلان. أشفوا غليلهم في هذين الحارسين، وعبروا عن كل الكراهية التي تشكّلت بدواخلهم، على مدار عدة أشهر. إلا أنه بعد فترة قصيرة، أتى ستة حراس آخرين. كان أحد الرجلين اللذين سقطا أرضاً يتحرك، بصعوبة، مضرجاً بدمائه. أما الآخر؛ فكان يبدو ميتاً، لا يتحرك، وعيناه جاحظتين. كنت أنظر كالمدمنين، كالمخدَّرة. كانت الشمس الحارقة قد جفّفت دماغي. لم يكن يدهشني شيء. انحنى أحد الرجال الستة، وأخذ يتلمّس زميله. كان يبدو أنه مات. سألوا مَن الذي قتله؟ لم ينطق أحدٌ، بكلمةٍ واحدةٍ. سألوا مرةً أخرى. لا شيء. أخرج قائدهم البندقية، وكان أقلهم بنيةً، وأطلق النار في الهواء. سأل مرةً أخرى. تقدم أحد الإثيوبيين، أقواهم بنيةً. "أنا مَن قام بقتله"، أجاب باللغة العربية. فأمره القائد صغير البنية بأن يجثو على ركبتيه، هناك، أمام الجميع. ثم طلب منه تأكيداً على ما قاله. "أنا مَن قام بقتله"، كرّر الإثيوبي. كان الكل يعلم

ما كان سوف يحدث. لم يغمض أحدٌ عينيه، أو يدر نظره. حتى الإثيوبي كان يعرف، لكنه لم يتراجع عما قال. أخفض الرجل صغير البنية ذراعه. طلقة واحدة، جافة. فلحق الإثيوبي بالرجل الآخر فوق الأرضية.

كانت ثمانية وعشرين يوماً لا نهاية لها، أتجول مثل شبح وسط أشباح. لم أكن أستطع النوم ليلاً، بسبب حرارة الجو، وأثناء النهار، كنت أتعذب وقد خارت قواي بحثاً عن ركنٍ، فيه شيء من الظل، آوي إليه. وددت لو أتمكن من التدريب، القيام ببعض التمارين الرياضية، إطالة العضلات، وأنا متّكئةً على الجدار. لكن حبات الفول السوداني لم تكن كافيةً، لم تكن لدي القوة الكافية للقيام بذلك. لم أعد قادرةً على الرؤية، بوضوح. عندما كانت الشمس في ذروتها، كنت أدخل في مرحلة من الهلوسة. بينما كنت أجلس على الأرض، ساندةً ظهري إلى إحدى الجدران، كنت أرى أبي، الفناء، شجرة الكافور. كنت أتخيل أنني هناك فوقها مع عليّ، مختبئين بين فروعها الرطبة. أو في الفراش، مساءً، ممسكةً بيد هودان، بقوة. لم يكن لدي المال كي أتمكن من الاتصال بها، أو بأمي. لم يكن بوسعي فعل شيء سوى البقاء هناك، والانتظار. وبما تبقى لي من قدرة على التفكير ظللتُ يقظةً، كنت أشعر أنني أفقد الاتصال مع نفسي تدريجيّاً. كنت أترك نفسي تتصرف كيف تشاء، فلم تعد لدي القوة. بين الحين والآخر، كنت أفكر أنه لم يعد يهمّني شيء، فقد كنت سأظل هناك على الأرض إلى الأبد.

وكنت أحلم، ليلاً ونهاراً، بوجبات غداء لذيذة. بوفيه الإفطار في الفندق الواقع في بكين. كان هناك كل شيءٍ، عصائر الفاكهة والبيض المسلوق والمقلي والنقانق والفاصوليا والمشروم والطماطم والقهوة والشاي والكابتشينو والشوكولاتة والكرواسان والبسكويت مع العسل والخبز المحمص واللحوم المُقَدَّدَة والجبن. وكان هناك شخص ما يقدم لي الطعام. كل يوم كنت أستحضر في ذهني تلك الأطعمة. وأتخيل أنني لم أكن قد تذوّقتها جميعاً. وأنني كنت قد ظللت هناك خمسة عشر يوماً كاملةً. مجنونة. كنت قد أصبحت مجنونةً.

إلى أن وصلت أموال هودان، فدفعتُ إلى المهرّبين.

أخيراً كان بإمكاني الذهاب، كان بإمكاني ترك الكفرة.

ثم أروني ما كان سيمثل منزلي أثناء الرحلة التي كانت ستستغرق أسبوعاً.

حاوية مظلمة، فيها شقّ صغير - فقط - في الجزء العلوي للسماح بدخول الهواء. كنت سأقبع داخلها، برفقة مائتي وعشرين شخصاً. دون أن أنطق بكلمةٍ - وقد أصبحنا كالخِرَق الممزَّقة التي كنا نرتديها - صعدنا إلى داخل الحاوية.

إن العيش داخل حاوية يشبه العيش داخل غرفة غاز. تقوم الشمس بتسخين الجدران المعدنية، بشدة، مما يجعل كل شيءٍ يتبخّر بعد بضع ساعاتٍ. تنفُّس، بول، براز، قيء، عرق. كل شيءٍ يتبخّر مكوّناً سحابةً سامةً خانقةً.

أثناء الكيلومترات الأولى، ربما لنصف ساعة، كنا واقفين على أقدامنا، كما لو أننا نتأهّب للنزول، في أي لحظة: لم نكن نعرف كيف نتحرك، ماذا نفعل. ثم جلسنا في مؤخرة الحاوية، وسرعان ما أدركنا أن الطريقة الوحيدة لسند الظهر كان جسد شخص آخر. الألواح المعدنية لجدران الحاوية كانت تحرق كالنيران، لذلك كنا نحاول البقاء في وسط الحاوية قدر المستطاع، للهروب من الحرارة التي تنتشر في كل مكان، والتي كانت تسلب الأنفاس، وتمحو الأفكار. عندما كنا نمرض - ونحن صغار - كانت أمي تقوم بإحضار وعاء مليء بالماء، يحتوي على أوراق النعناع وإكليل الجبل، ثم كانت تتركه يغلي. كانت تجبرنا على أن نُبقي رأسنا لساعاتٍ فوق الإناء، وأجسامنا مغطّاة بالقماش، كي نتنفّس البخار، فيتعافى الأنف والدماغ. في النهاية، كنا نتبلل، وتنفتح مسامنا. لكن البقاء داخل حاوية كان أسوأ من ذلك، بألف مرة، كان أشبه بالبقاء داخل إناء يغلي. الجزء الأعمق من الحاوية كان يحرق مثل النار. كنا نحاول الإبقاء على ركبنا مرفوعةً، ونسند أحذيتنا - لمن كان لا يزال لديه حذائه - على المعدن. لم يكن ممكناً البقاء في

تلك الوضعية لساعاتٍ، لذلك كنا نتناوب في القيام بإطالة سيقاننا. كان ذلك أهون بكثير من أن تحترق أفخاذنا. لحم حي مثل الدم.

كانت الطريقة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة هي محاولة التسلق بالتناوب واحداً فوق الآخر، وتقريب الأنف لبضع ثوانٍ من الفتحة. بعد ساعتين بدون أكسجين، قبل أن نفقد وعينا، تأتي الهلوسة. البصرية والسمعية. نحن تهريب محتاجون لمأوى، ومحبوسون داخل حاوية، كنا نتحدث إلى أشخاص كانت تراهم أعيننا، نحن فقط، كنا نصرخ في وجه أناسٍ، كانوا يصرخون في آذاننا، نحن فقط.

الرحلة داخل الحاوية تجعل الأعين قادرة على رؤية حماقة البشر. بعد ساعات قليلة، لا يعود هناك تمييز بين الجنسين. الرجال والنساء متساوون، ويبلغ الأمر أدنى درجات المسمّى المشترك. لا يبقى منك سوى ظل، يطلب البقاء على قيد الحياة. لا تعود تذكر إذا كنت امرأةً، أو رجلاً. ربما كان يوجد داخل تلك الحاوية بعض المسيحيين الإثيوبيين، لكن الأغلبية كانوا من المسلمين. ومع ذلك، لم تكن هناك امرأة واحدة تغطّي ساقيها، أو رأسها. كل شيءٍ يخرج، كل شيءٍ مكشوف، فلم يعد يبقى شيء سوى ذلك الجسد الذي تذكر أنه ملك لك في بعض تفاصيله فقط. الشامة التي فوق فخذك. أصابع الأقدام الملتوية. نَدْبة فوق البطن. إنه أنت. لكنك لم تعد هكذا، فقد أصبحت مشتتاً وسط أبخرة الأجساد الأخرى. عندما لا يقدر الشخص الغريب الذي يجلس بجوارك على احتجاز البراز، أو عندما لا تستطيع أن تحتجزها أنت، وتستمر في التنفّس وركوب الأمواج لعدة أيام وسط تلك الرائحة النتنة، بلا طعامٍ، ولا شرابٍ، لا تعود قادراً على تذكّر مَن كنت قبل أن تدخل إلى هناك. صورة أمي يوم زفاف هودان تقول لي، وهي تضع وجهي بين يديها، وعيناها منتفخة بالدموع: "كم أنت جميلة، يا ابنتي! أجمل فتاة في العائلة!". الشعور بالارتباك، وأنا أرتدي كل تلك الأحجبة الملونة، وذلك *الحجاب* الأبيض الذي يلفّ رأسي وكتفي. المرة الأولى التي رأيت نفسي فيها، كأنثى، وشعرت أنني متميّزة.

في ثالث أيام الرحلة، مات رجل صومالي، يبلغ من العمر اثنين وأربعين عاماً. بعد وفاته بوقتٍ غير محددٍ، لاحظت ذلك امرأة، بجواره. منذ يومين، وكان الآخرون يحاولون أن يجعلوه يشرب من زجاجة، لا أحد يدري أين عثروا عليها، لكنه لم يعد قادراً على البلع.

كان قد ظل في الكفرة فترة ما بعد الظهر فقط، كان لديه المال اللازم للذهاب إلى طرابلس، من المؤكد أنه كان يشعر أنه بحالةٍ غير جيدة، وأنه قرر أن يصل إلى المدينة في أقرب وقتٍ ممكنٍ. كان حلقه قد جفّ، بسبب الرمال الكثيرة التي استنشقها عندما كان داخل سيارة الجييب في الصحراء. كانت الرمال قد شكّلت سِدادة صلبة، لم تعد المياه قادرة على اختراقها.

مات مختنقاً. عندما ذاع الخبر داخل الحاوية - من أذنٍ إلى أخرى كالعادة - دون أن يتحدث أحد، قمنا بأداء صلاة الجنازة. كل واحد بلغته. اصطحبنا ذلك الرجل - الذي لم أكن أعرف ما اسمه - أثناء "رحلته" الخاصة.

في تلك الليلة، عندما توقفنا للنوم، قمنا بإحداث حفرة في الرمال، ثم دفنّا الجثة في أرض، تتوق لاستعادتها.

بين الحين والآخر، كان يجول في خاطري أولمبياد لندن، بينما كنتُ قابعةً كالزكيبة متّكئةً على أحد الأشخاص، في أعمق أجزاء الحاوية التي كان معدنها الساخن يحرق كالنيران. هذا ما جعلني أبقى على قيد الحياة، الرغبة في تحريك ساقي، وتفجير طاقات عضلاتي. كانت هذه الطريقة الوحيدة التي مكّنتني من البقاء على قيد الحياة. كنت أفكر في المدرّب الذي كنت سأتدرّب معه فور وصولي إلى أوروبا. لست أدري لماذا، لكنني كنت أتخيل أنه سيكون نفس المدرّب الخاص بمحمد فرح. كنت أرى نفسي في إنجلترا، قبل الوصول إلى هلسنكي. كنت أرى نفسي، وأنا أقوم بقياس سرعتي، وهي تتحسن أسبوعاً بعد أسبوع، ويوماً بعد يوم.

كنت أرى نفسي في السباق النهائي.

كنت أرى الناس واقفةً، وهي تصفق. هذه المرة؛ لأنني كنت قد وصلتُ في المرتبة الأولى.

بدلاً من أن ينقلونا إلى طرابلس، زجّوا بنا داخل سجنٍ جديدٍ، بمجرد خروجنا من بلدة أجدابيا.

عملية احتيال أخرى ضمن سلسلة لا تنتهي من الخداع.

للرحيل من هناك، كان يلزم دفع ألف وخمسمائة دولار أخرى، وكان هذا المبلغ كبيراً بالنسبة لهودان وعمر. بقيت هناك لما يقرب من شهرين.

كنت بحاجة للوصول. وفي النهاية، رضختُ. اتصلت بأمي؛ كي أطلب منها ومن إخوتي المال، معترفةً لهم بأنني كنت قد رحلت لخوض "الرحلة"، لكني كذبتُ عليهم بأن أخبرتهم أن كل شيءٍ كان على ما يرام. قلت لها إنه كانت لدينا دقيقة واحدة من الوقت، طالبةً منها ألا تبكي، فقد كانت الأمور تسير على ما يرام، وكنت سعيدةً، وكنت أجد الوقت اللازم للتدريبات. كنت قد أوشكت على الوصول إلى هودان. كانت قد مرت خمسة أشهر منذ رحيلي من أديس أبابا، وكان كل شيءٍ يبدو لي مستحيلاً.

في سجن أجدابيا، عاملونا بشكل أفضل من الكفرة، ولكنْ؛ قام اثنان من رجال الشرطة في السجن، بسرقة سبعمائة وخمسين دولاراً مني. في الواقع، أنت تدفع للشرطة، وليس للمهرّبين. هم نفس رجال الشرطة الذين سوف يبيعونك إلى مَن سيأخذك إلى وجهتك المقبلة. في حالتي، طلبوا مني ألف وخمسمائة دولار، في الوقت الذي طلبوا فيه من آخرين سبعمائة وخمسين. كانوا متمسّكين بما طلبوه. لو لم أرضخ إلى مطالبهم، كانوا سيفعلون معي مثلما فعلوا مع فتيات أخريات، كانوا سوف يغتصبونني. مثل تاليا.

لم يكن بوسعي سوى الانتظار.

الصلاة والانتظار والقراءة. في ذلك السجن، كانت توجد خطابات.

بالعربية والصومالية والإثيوبية والإنجليزية، بقيتْ هناك، لا أحد يدري كيف، لا أحد يدري لماذا، ملقاة في أحد الأركان، متراكمة على مدى سنواتٍ وسنواتٍ. خطابات من سجناء، أو من أقاربهم. ربما كانت شهادات الموتى التي لم يكن لدى الحراس القدر الكافي من الشجاعة؛ كي يتخلصوا منها. هناك بالداخل كانت توجد حيوات. وهكذا، من خلال القراءة، عثرتُ على ما لم يعد موجوداً داخلي. الحياة. ذكريات. حب. وعود. شجاعة. أمل. كانت توجد خطابات خاصة برجل، كان يكتبها لزوجته كل يوم. صباح كل يوم، عند بزوغ الشمس. امرأة شابة، كانت توجه كلماتٍ حالمةً إلى الابن البالغ من العمر سنتين الذي كان قد بقي في الصومال. صبي صغير، كان يطلب من أبيه وأمه أن يتحلّيا بالشجاعة، في رسائل، لم تُسَلَّم إليهما أبداً. كانت كلمات يتيمة، لم تبلغ وجهتها أبداً. أحببت أن تلك الخطابات كانت قد بقيت هناك من أجلي.

في هذين الشهرين، كنت أقرأ، وأنام فقط. منذ وقتٍ طويل، وأنا لم يعد لدي الطاقة اللازمة للتدريب. إذا كانت لدى مَن قام بكتابة تلك الخطابات المُصْفَرَّة القوة التي جعلته يكتب ما كان قد كتب، فقد كان بإمكاني أنا - أيضاً - القيام بذلك. كنت أعاود قراءة تلك الخطابات، باستمرار، وكنت أقوم بحفظ الأجزاء المفضّلة لي في تلك الخطابات.

كما كان يوجد اتصال بالإنترنت. كنت أقترض بعض النقود من فتى صومالي، وأكتب إلى هودان، من حينٍ لآخر. كنت أعيش الأيام التالية في انتظار ردّها. كانت تقول لي إنها بحالٍ جيدةٍ، وإنها متشوقةٌ لوصولي. كانت تشجّعني، وتطلب مني أن أذكر - دائماً - أن كل شيء سوف ينتهي قريباً.

فوق الحصيرة الصلبة والمليئة بالقُراد، كنت أتساءل إذا كان الأمر يستحق كل ذلك. كنت أجيب على نفسي بلا. كل ما كنت أريده هو أن أصبح بطلةً في سباقات المائتي متر. لم يكن يجب أن يتم السماح لأي شخص في العالم - نظراً لقصر مدة الحياة - أن يمر بهذا الجحيم.

مساء إحدى الأيام، فرّت مجموعة من الصوماليين من السجن. كان حراس السجن قد نسوا قفل بوابة السجن. كنت قد تعرّفتُ على أحد هؤلاء الرجال الثلاث، عبد الله، قبل أسبوعين، وكان يقرضني المال، من أجل الاتصال بهودان، عن طريق الإنترنت. كنت قد قصصتُ عليه ما جرى في حياتي. كان يتذكر منافسات بكين. قال إن زوجته حدثته عني. كانت قد بقيت في مقديشو، وكان ينوي أن يرسل لها أموالاً كل شهر، بمجرد وصوله إيطاليا؛ كي تقوى على احتياجات الحياة. كنا قد أصبحنا صديقين. كنا نتحدث، كنا نثق في بعضنا البعض، كنا نأكل معاً بين الحين والآخر. في البداية، لم يكن يصدق أنني كنت تلك الفتاة التي حدّثته عنها زوجته، وكان يعتقد أنني اختلقت كل ذلك الحديث. كان من المستحيل أن تنتهي بي الأمور بأن أنام وسط البراغيث داخل أحد السجون في صحراء ليبية.

كان الحراس يحضرون لنا طعام العشاء، أرز وخضروات ونصف لتر من الماء، ثم يذهبون. مساء ذلك اليوم، لم يكونوا قد أغلقوا البوابة، وكان عبد الله قد أتي عندي؛ كي يسألني عما إذا كنت أرغب في الانضمام إليهم. كانوا سوف يهربون ليلاً إلى بلدة أجدابيا سيراً على الأقدام. من هناك، في صباح اليوم التالي، كان من المقرر أن يجدوا وسيلةً؛ كي يصلوا إلى طرابلس. لم يكن الأمر معقداً، ولكنْ؛ إذا كشفهم أحد، كان سوف يقتلهم.

كان يجب عليّ أن أقرر، في أقل من ساعتين. ولم يكن بإمكاني الحديث في هذا الأمر مع أحد.

لو تلقّيت هذا العرض قبل خمسة أشهر، لقبلت. مساء ذلك اليوم، أخبرت عبد الله برفضي. أعتقد أن أبي كان مسروراً لقراري. كنت سأظل هناك، أنتظر أموال هودان وأمي.

بعد ساعتين، خرجوا، ولم نسمع عنهم أي شيءٍ بعد ذلك.

ثم وصلت الأموال أخيراً. تركتُ الخطابات إلى فتاة صومالية رقيقة، كانت قد وصلت، لتوها، منهكةً وباكيةً. أخبرتها أن قراءة هذه الخطابات

كان سينقذ حياتها. ظلت تلك الخطابات هناك، ولم يكن يعبأ بها أحدٌ. إلا أنه - بفضل هذه الخطابات - استطعت أن أبقى على قيد الحياة داخل ذلك السجن.

كنت حيةً، وأخيراً حرةً. كنت سأسافر برفقة تسعة أشخاص آخرين، في مقطورة شاحنة، كانت تنقل زكائب دقيق الذرة. أكثر مراحل "الرحلة" راحةً.

توقفنا ليومين في مدينة سرت، ننتظر تهريب آخرين، وظللنا ننام في المقطورة.

ثم غادرنا مجدداً.

وبعد أسبوع، وأخيراً، كنت في طرابلس.

يوم ١٥ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١١. بعد خمسة أشهر - بالضبط - من رحيلي من أديس أبابا. بعد عام من مغادرتي لمقديشو.

كنت حرةً.

عندما سمعنا من داخل المقطورة ضوضاء المدينة، أخذنا نبكي. عشرة ظلال كانت تبكي بهدوء في مقطورة شاحنة. عشرة ظلال كانت تخجل من دموعها. لكن ذلك البكاء جعلنا متّحدين. هذا يحدث عندما تبكي مع الآخرين. سوف أحمل معي - دائماً - تلك الوجوه التسعة الباكية. سيكونون إخوتي إلى الأبد، وأنا سأكون أختهم. أدركت أنني لم أكن أبكي منذ أشهر. كانت الصحراء قد جفّفت كل شيءٍ، حتى الدموع واللعاب. شَرِبَتْ كل شيءٍ.

عندما توقفنا في ساحةٍ كبيرةٍ، وطلبوا منا أن ننزل، شعرت أنني خفيفةٌ كالهواء. تمكنت - بالكاد - أن أقف على قدمي، لكن عقلي استعاد عافيته، وكأنها معجزة.

تركونا في تلك الساحة الكبيرة، وكانت الشمس قد قاربت على

الغروب، وكان بعض الباعة المتجولون الذين يبيعون الحلويات والكباب يهمّون بالرحيل. عشرة أشباح تغطيهم الرمال متّسخين، وروائحتهم كريهة مثل الخنازير.

عشرة أشباح وسط مواطنين ليبيين.

فتح المهرّبون المقطورة، وقالوا: "أنتم أحرار".

ثم صعدوا مرةً أخرى إلى الشاحنة، ورحلوا، مخلّفين وراءهم سحابةً كبيرةً من الغبار بعد أن تركونا هناك نستنشق دخان الديزل الذي أضحى جزءاً، لا يُجتزأ، من رئاتنا.

وجدنا أنفسنا مفقودين. جياع.

كلا، لقد عثرنا على أنفسنا.

كنت حرةً.

كالهواء، حرةً كأمواج البحر.

-٢٨-

عشت في طرابلس ما يقارب الشهر في حي الصوماليين. كلنا تهريب، صوماليون وإثيوبيون، في انتظار الإبحار إلى إيطاليا، كنا نعيش داخل عشرات المباني التي يميل بعضها على بعض، في الحي نفسه، شرق المدينة. حيٌّ قبيحٌ وقذرٌ، يعجّ بأناسٍ، وضْعهم غير قانوني، وجرذان المصارف، كما كان حالنا. ولكن الوصول إلى طرابلس كان منذ اللحظة الأولى بمثابة تحرير لنا. ما كنت لأرى الصَحراء مجدداً لبقية حياتي، كنتُ على يقينٍ من هذا.

لم أكن قد كرهتُ شيئاً في حياتي أكثر من الصحراء. لو أمضيت شهوراً في الصحراء، فإنها تدخل إلى عظامك، تجري في دمائك، وتختلط بلعابك، ولا تعود قادراً على التخلص منها، تحمل معك الغبار، في كل مكان، حتى وإن اغتسلت بالمياه الجارية، تبقى ملازمةً لك دائماً. ولكن الشيء الأسوأ هو أن الصحراء تمحو روحك، وتزيل أفكارك. يجب أن تغمض عينيك، وتتخيل أشياء غير موجودةٍ. شهورٌ وشهورٌ وسط مساحاتٍ شاسعةٍ من الرمال. في كل مكانٍ، تلتفت إليه، وفي أي ساعةٍ من النهار، أو الليل. لا شيء سوى الرمال. وهذا ما يصيبك، بالجنون.

بمجرد وصولي إلى طرابلس، أدركت أن هذا كان بمثابة معجزة. بفضل تلك الخطابات المُصْفَرَّة، وبفضل دورة الألعاب الأولمبية، كنت بصحةٍ جيدةٍ، ولم أكن قد أُصِبْتُ بالجنون، لدرجة تدفعني إلى الانغلاق على نفسي. حالما تَرِينَ النور، بعد أن تكوني قد أمضيتِ وقتاً طويلاً في الظلام، تتذكرين ألوان الأشياء.

هذا ما حدث لي. تذكرت ما كان عليه العالم. وراق لي ذلك كثيراً.

كنا نعيش في بيوتٍ صغيرةٍ. داخل كل شقة ثلاثون، أو أربعون شخصاً. كنت أسكن مع أربعين امرأة، من جميع أنحاء أفريقيا، فطرابلس هي ملتقى الأشخاص كافة ذي الأوضاع غير القانونية. كانت هناك نيجيريات، كونغوليات، صوماليات، إثيوبيات، سودانيات، ونساء أخرى من ناميبيا، غانا، توغو، ساحل العاج، بيافرا، ليبيريا. بالغات، مراهقات، فتيات، أطفال، كبار سن. كلهن مجتمعات، وأخيراً ناجيات.

كنا نشعر بأننا قد نجونا. كنا في المدينة، وكان هناك كل ما نحتاجه للعيش، كان كل شيءٍ متوفراً، ولم يعد بإمكان أحد أن ينتزعه من أيدينا، أو أن يتعدى علينا بالضرب. الماء والفواكه والمواد الغذائية. وددت لو أبقى في طرابلس بقية حياتي - وهذا ما كانت تفكر فيه الكثيرات، بمجرد وصولهنّ - لو لم نكن تهريب، ولو لم تكن الشرطة تمقتنا، بموجب الاتفاقيات التي كانت الحكومة الليبية قد أبرمتها مع نظيرتها الإيطالية، كان سيتم ترحيلنا إلى بلداننا. كنا ندرك ذلك.

على أي حال، لم يكن يهمّنا كثيراً إذا كنا نعيش في ظروفٍ سيئةٍ، في تلك الأيام. إذا كنا قد وصلنا إلى هناك - مَن وصل في شهرين، ومَن وصل في سنتين، ومَن في خمسة أشهر، كما حدث معي - إذا كنا قد عبرنا الصحراء، إذا كنا قد بقينا على قيد الحياة، كل ما كان يجول بخاطرنا في تلك اللحظة كانت وجهتنا. وجهتنا فقط. كان كل شيءٍ آخر قد تلاشى. كانت طرابلس - بالنسبة لنا - مجرد ممرّ، نفخة بسيطة من الرياح، حفيف إحدى أوراق الأشجار، غمضة عين.

ثم إن في طرابلس يوجد البحر. تشيع في المدينة - كما في مقديشو - رائحة البحر. هذا هو السبب الذي من أجله عادت لي طاقاتي، والرغبة في العيش، بصورةٍ كريمةٍ. لكنْ؛ هناك - كما في مقديشو - لم يكن بإمكاني الذهاب إلى البحر، فإن وجدوني، كانوا سوف يلقون القبض عليّ. كان يجب عليّ الانتظار، كان يجب عليّ أن أنتظر إيطاليا.

وهكذا، عادت مع الغذاء الرغبة في البقاء معاً، تناول الطعام، أن يحكي كل منا قصصه التي عاشها، ونتحدث فيما سوف نفعله في المستقبل. التحدث. الكلمات تنقذ الأرواح. الكلمات الأكثر استخداماً في المطلق، كلٌّ بلهجته العرجاء، كانت "إيطاليا" و"لامبيدوزا".

لم يسبق لي في حياتي مطلقاً أن أحببت التحدث مع الآخرين، كما أحببت أثناء تلك الفترة التي قضيتها في طرابلس. شكّلنا فِرَقاً حسب الجنسية، وأخذنا نتحدى بعضنا بعضاً في لعب الورق، وأوضحتْ كلُّ واحدةٍ منا إلى الأخرى طرقها في اللعب، ثم اختلفنا حول قواعد اللعب. تعلّمنا كلماتٍ، بلغاتنا المختلفة. تحدثنا عن عائلاتنا، عن بيوتنا، عن آبائنا، عن أشقّائنا، عن قصص الحب التي عشناها. عن الأطباق المفضلة لدينا. تساءلنا كيف كنا سنتناول أطعمة أوروبا المقزّزة. تساءلنا كيف يكون الناس هناك. أخذنا نتخيل المنازل التي كنا سنسكنها. المطابخ. الحمّامات المزوّدة بحوض استحمام ودشّ. الموكيت على الأرض، أو الباركيه. ثم العمل. بالنسبة لي، كنت سأصبح رياضيةً. كانت هناك مَن تريد أن تصبح محاميةً، ومَن تريد أن تصبح مُعَلِّمَةً، ومَن تريد أن تصبح ممرضةً، ومَن تريد أن تصبح طبيبة أطفال. كما كانت هناك مَن تريد - فقط - أن تُكوِّن أسرةً. كنا نتشارك مشاريعنا المستقبلية. ثم نفكر - أيضاً - في الأمور العملية. في كيفية الرحيل. للمرة الأخيرة.

كانت عملية عبور البحر لا تختلف عن سابقاتها. تقوم بإحضار المال، من أجل الرحيل، ثم تنتظر. تنتظر إلى أن يأتوا لاستدعائك، وإبلاغك - دون أن يعطوك الوقت الكافي كي تستعد - بأنك سترحل خلال ساعة.

تعلم أن وسط البحر يمكن أن يحدث كل شيءٍ، لكنك لا تفكر في ذلك. تفكر - فقط - في وجهتك. إذا سارت الأمور على ما يرام، ستصل إلى لامبيدوزا بعد يومين، أو بعد يومين ونصف، على أقصى تقدير. لكنْ: من الممكن أن يحدث أي شيء. فالبحر يمثل عائقاً أكبر بكثيرٍ من الصحراء، هذا ما يقوله لك المهرّبون عندما تتصل بهم.

كنت قد ذهبتُ إلى هناك مع فتاتين صوماليتين.

"استعد للأسوأ"، هكذا يقولون لك. "ما لاقيته حتى الآن لا يمثل شيئاً. الصحراء - مقارنةً بالبحر - تُعَدُّ نزهة"، هكذا يقولون لك. وأنت لا تصدّق كلامهم. لا يمكن أن يكون صحيحاً. كل ما قد لاقيته حتى تلك اللحظة كان جحيماً، ولم أكن أعتقد أنه من الممكن أن يوجد أسوأ من ذلك. ثم إن البحر، بحري، لم يكن ليُلحق بي الأذى. كان لدينا موعد استمر لما يقرب من عقدين من الزمن. كنت أعرف ذلك، وكان البحر - أيضاً - يعرف ذلك. أخيراً كنا سنلتقي في إيطاليا. إحدى أولى الأشياء التي كنت سأقوم بها فور وصولي هناك هي أن ألقي بنفسي في البحر؛ لأستمتع بذلك الاتساع الرحب والمضياف.

لم تكن القوارب سوى قطع قديمة غير صالحة للاستخدام. بإمكان قوة البحر أن تقلبها، في أي لحظة. إلا أنها بالنسبة لنا تهريب، كانت بمثابة ذهب خالص، يخوت فاخرة للقيام بجولات بحرية سياحية. علاوة على احتمالية تعطّل تلك القوارب، كان من الممكن أن يضلّ المهرّب الطريق، وأن تتلف، أو تخطئ أجهزة الـ (GPS) الملعونة تلك. أو أن ينفد البنزين، يبدو الأمر مستحيلاً، ولكنْ: هكذا تسير الأمور، فأحياناً يخطئون في حساب الوقود، أو يطيلون الطريق دون قصد، ويبقون دون وقود. تَعْلمين أنه يمكن أن يحدث أي شيء، لكنك تحاولين ألا تفكري في الأمر، ما تفكرين فيه هي وجهتك فقط.

أنتِ هناك تنتظرين تلك اللحظة منذ أسابيع أو أشهر، وعندما تحين تلك اللحظة، تأخذك على حين غرة. دائماً. ليس هناك طريقة؛ كي تتأهّبي، لا أعرف أحداً استطاع أن يستعد عندما حانت تلك اللحظة. ليس بسبب الأشياء التي يجب أن تأخذيها معك، فتلك ليست سوى ثلاثة أشياء، وهي دائماً لديك. لا، تكونين مستعدةً ذهنيّاً. مستعدةً لبلوغ نهاية "الرحلة".

لا تعرفين إذا كانت تلك اللحظة ستحين صباحاً، أو مساءً، أو ليلاً، ولكنْ؛ لا يمكن - أبداً - قول ذلك، فالأمر يعتمد على استراتيجية المهرّب. هناك مَن يقرر الانطلاق في منتصف الليل، هروباً من الضوء. وهناك مَن يقرر الانطلاق مساءً؛ كي يكون قد ابتعد بحلول الفجر. وهناك مَن يفضّل الانطلاق في الصباح الباكر؛ كي يتمكن من الإبحار لفترةٍ طويلةٍ، والابتعاد عن أفريقيا، بحلول الظلام، ومن ثم؛ لا يراهم أحد.

كنت آمل أن تنطلق رحلتي في المساء، فقد كانت تبدو لي لحظةً مطمئنةً للرحيل.

كنت أرتجف، كانت هودان قد أخبرتني أنها سوف ترسل الأموال اللازمة خلال وقتٍ قصيرٍ، ألف ومائتي دولاراً، على العنوان الذي كنت قد أبلغتها به. كنت أنتظر على أحرّ من الجمر.

لم يمر الشهر. لا أعرف أين وجدت هودان المال، لكنْ؛ لم يكن يهمني، فقد كانت تلك إحدى الأشياء التي كنت سوف أسألها عنها عندما أبلغ وجهتي. بعد بضعة أيام، في ١٢ كانون الثاني/يناير ٢٠١٢، حان دوري. لم يكن وقت المساء. كان في الصباح، في الساعة الرابعة. كانوا قد أيقظوني، وطلبوا مني الخروج.

لكن رحلتي استغرقت ثلاث ساعات فقط. فرحتي بقربي من البحر لم تدم طويلاً. كنا قد صعدنا للتو على متن القارب - كنا حوالي سبعين شخصاً داخل زورق مطاطي، لا يتعدى طوله عشرة أمتاراً - ثم عدنا أدراجنا. صباح ذلك اليوم، كانت حركة الهواء مضطربةً، وكانت الشمس سوف تشرق بعد ساعتين، فكان ذلك بمثابة طعنة سكين لحماسنا. في صمتٍ، كنا قد أخذنا مواقعنا على متن الزورق، كلٌّ في مكانه، مَن في المؤخرة، ومَن في المنتصف. بالنسبة لي، كان قد استقر بي الحال عند الكَوْثل، بالقرب من المهرّبين، عند مؤخرة الزورق؛ لأني كنت نحيفةً. كنت قد انسليتُ بين فَتَيَين نيجيريين ذوي بنيةٍ قويةٍ وأذرعٍ عريضةٍ.

إلا أننا لم نرحل.

تعطّل الزورق، وبدأت المياه تتسلّل إلى داخله على الفور. بدأ المهرّبون يطلقون اللعنات، باللغة العربية، واستمروا في الإبحار، لمسافةٍ قصيرةٍ. ثم توقفوا. سنعود إلى الوراء، هكذا قالوا. نهاية السباق، نهاية الأحلام والآمال.

"كنا محظوظين لاكتشافنا ذلك الأمر مبكراً، ونحن لا نزال بالقرب من الساحل"، هكذا قالوا. "لو كنا قد وصلنا إلى منتصف الطريق، لغرقنا".

لكننا أبحرنا، لمدة ثلاث ساعات.

ثم عدنا من جديدٍ إلى طرابلس.

ولا أحد سيعيد لك أموالك.

-٢٩-

الآن أنا - هنا - في طرابلس، أنتظر، مر شهران ونصف منذ أن عدنا بالزورق. اليوم ٣١ آذار/مارس ٢٠١٢. أربعة أشهر تفصلني على حفل افتتاح دورة الألعاب الأولمبية، في لندن، وأنا أعلم أنني لا أزال قادرة على القيام بهذا الأمر.

بعد ثلاثة أيام من عودتي إلى الشقة في الضاحية الشرقية، وصلت فتاةٌ جديدةٌ، نيجيست، إثيوبية. كانت مرعوبة، مثل باقي الفتيات التي وصلن للتوّ، لكنها كانت - أيضاً - مبتهجةً، فقد كانت قد هزمت وحش الصحراء، ولم يكن لديها خوف. أصبحنا صديقتين. إنها مثلي، لديها عمري نفسه، و بنيتي الجسمانية نفسها. أعتقد أننا متشابهتان، حتى وإن كانت تقول إنني أفوقها جمالاً. ليس صحيحاً، فمن وجهة نظري هي أكثر جمالاً مني. وجدتُ لها مكاناً بجواري فوق حصيرتي. لم أكن أريد أن ينتهي بها المطاف في براثن إحدى السيدات الشريرة التي كانت الرحلة قد ألحقت بها الأذى، ودمرت قلبها.

حكيت إلى نيجيست قصتي أكثر من مرة. تعرفت عليّ. كانت قد رأتني في شاشة التلفزيون منذ ما يقرب من أربع سنوات، في دورة الألعاب الأولمبية في الصين، و تقول إنها لم تنسَ وجهي أبداً منذ ذلك الحين، ابتسامتي الهادئة والبرّاقة، كما تقول.

في البداية، لم تستطع أن تصدق الأمر، مثل عبد الله. أنني كنت هناك مثلها، تهريب مثل الجميع. أحتاج لمأوى. في اليوم التالي، سألتني عن ذلك. لم أكن ممتنة لشخصٍ في حياتي أكثر من امتناني لها. أعادتني

نيجيست إلى الحياة، لهذا السبب، قررت حمايتها. لو لم تكن قد أدركت ذلك، ما كنتُ لأذكر مَن أنا. كان قد مضى وقت طويل منذ آخر مرةٍ نظرت فيها إلى نفسي في المرآة. في الحقيقة، كان ذلك شيئاً، لم أعد راغبةً في القيام به. عندما كنت أجد نفسي بالقرب من سطحٍ عاكسٍ، كنتُ أدير رأسي. لم أنظر إلى وجهي منذ ثمانية أشهر ونصف، اللهم إلا من خلال ردود أفعال الآخرين الذين كانوا ينظرون إليَّ.

هذا هو السبب الذي سيجعلني ممتنةً إلى نيجيست إلى الأبد. ولهذا السبب يروق لي أن أحكي لها قصتي، كل يوم تقريباً. كم مرة - تقريباً - تحدثنا في الأمور نفسها؟ عشرون، ثلاثون مرة؟ ربما أكثر. في كل مرةٍ تطرح عليّ الأسئلة نفسها، أو تطرح عليّ أسئلةً جديدةً، ونفاجأ بأننا نضحك عند المواضع نفسها. عندما كان عليّ قد سرق من أبي الحلوى التي كان أبي قد أخرجها من أجل العيد، وكي يعاقبه، جعله يأكلها كلها، مما أصابه بالإسهال. عندما كنت أركض ليلاً في استاد كونز، وكنت أحاكي ضجيج الجمهور بصوتي. *آآآآآررغغغغ*، بنَفَسٍ عميقٍ، مقلدةً ذلك الصوت الذي يصدره العديد من الأشخاص معاً. عندما كان عليّ قد سقط في بركةٍ كبيرةٍ مليئةٍ بالبراز عقب أول سباق كنت قد فزت به. عندما كنت قد قلتُ إلى أحد الصحافيين بعد سباق بكين إنني سأكون سعيدةً لو صفقت لي الجماهير لحصولي على المرتبة الأولى، وليس الأخيرة، وكيف أن ذلك الصحافي قد انفجر في الضحك، ولم يستطع التوقف أمام الكاميرا التلفزيونية. عندما كان عبدي يعتقد حقاً أن حوض الأسماك سحراً، وكيف أنني أكدتُ له ذلك، فصدقني. ثم شجرة الكافور التي كان عليّ يصعد إلى قمتها، ويظل هناك، إلى أن يتضوّر جوعاً. يا له من قرد!

ثلاثة أشهر أخرى هنا في طرابلس دون أن أتمكن من مغادرة المنزل خوفاً من ملاحقة الشرطة. كانت الأوضاع تبدو هادئة في أثناء الصدامات وإبان مقتل الدكتاتور القذافي، أواخر عام ٢٠١١. غياب الحكومة يعني غياب القانون. وفي ظل غياب القانون، لا يعبأ أحد كثيراً، بمهاجر غير شرعي؛

لأنه لم يكن هناك مَن يلاحقنا. كان المهرّبون، بلا عمل، ولم يكن العبور إلى إيطاليا يكلّف الكثير.

أما الآن - على العكس - أعادوا تنظيم أنفسهم.

يقال إنهم إذا عثروا على مهاجر غير شرعي في الشوارع، أعادوه فوراً إلى الصحراء.

بعد أن عدتُ من البحر، اضطررت إلى معاودة الاتصال بهودان وأمي. ولكنها الأموال الأخيرة التي أطلبها. هذه المرة، أخيراً، كنت سوف أتمكن من القيام بهذا.

دفعتُ مرةً أخرى، وأنا هنا مع نيجيست أنتظر أن يستدعوني للرحيل. بعد أن تدفع من الأفضل أن تبقى حبيس بيتك؛ لأنهم يمكن أن يصلوا في أي وقت.

لكنهم أخبروني، بالفعل، سأرحل هذا المساء. هذه المرة أخبروني قبيل الرحيل، ثلاث ساعات، وذلك لأن القارب كبير، هكذا قالوا، وعددنا كبير. آخر ثلاث ساعات لي، وأنا تهريب مهاجرة غير شرعية.

اعتدت على الترحال، خلال ثمانية أشهر، سافرت - على الأقل - ست، أو سبع مرات. لم يعد لدي حتى الحقائب؛ كي أجهّزها. إنها الثلاثة أشياء المعتادة: عصابة الرأس التي أهداني إياها أبي، منديل أمي، وبداخله القوقعة، وصورة محمد فرح.

أنا ونيجيست سوف نودّع بعضنا البعض عندما تحين اللحظة، وليس قبل ذلك. أثناء "الرحلة" لا يتم فعل شيء قبل أن يحين موعده. ليس هناك وقت للماضي، ليس هناك وقت للمستقبل، اللهم إلا في لحظاتٍ محددةٍ، تحتاجها؛ كي تنجو، كي تبقى على قيد الحياة. الأمور العملية، مثل التحيات، لا تندرج تحت هذه الفئة، ويتم القيام بها - فقط - عندما يحين الوقت.

ثم إننا سوف نلتقي، قلنا لبعضنا البعض.

كما أنها سوف تأتي للعيش في هلسنكي، مثلي. نريد أن نكوِّن هناك جالية من نساء القرن الأفريقي. نعيد إنتاج - في مكانٍ بعيدٍ وباردٍ مثل هذا - ألوان بلادنا.

أحبّ نيجيست، للغاية، سأفتقدها كثيراً، إلى أن نلتقي مرةً أخرى.

مساء أمس، تحدثت عبر سكايب مع هودان، ومع منار أيضاً. أصبح عمرها أربع سنوات، والآن تأكدت أنها تشبهني. هناك وقت ينمو فيه الأطفال، في أول سنتين، أو ثلاث سنوات، من الممكن أن يطرأ على مظهرهم تغيّرات عديدة. إلا أنهم عندما يتمّون ربيعهم الرابع، يحدث ما كان يجب أن يكون، ويكتسب الطفل الشكل الذي سيرافقه طيلة حياته. منار تشبه خالتها سامية تماماً، إنها تشبهني أكثر من أمها.

قامت هودان بتسجيلها في إحدى صالات الألعاب الرياضية قبل عام.

والآن تعدو منذ أكثر من عشرة أشهر. كانت على حق، بإمكان الأمهات - بالطبع - فهم التفاصيل المتعلقة بأطفالهن كافة، حتى قبل أن يولدوا. منار لديها موهبة في العدو، هي أسرع واحدة في مجموعتها. فازت - بالفعل - في أول سباقين. مَن يدري كم هما ساقاها قصيرتان؟!. وهي - بالفعل - سريعة إلى هذا الحد.

أنا قدوتها، هكذا قالت لي هودان. واحدة من أولى الكلمات التي كانت قد قالتها لي "تسيي أميا"، خالتي سامية. تمسك، بصورتي، إحدى صفحات الجرائد منذ أيام بكين، بجانب الفراش، كما كنت أحتفظ، بصورة محمد فرح.

في كل مرة أراها عبر سكايب، أفكر كم كان التشابه الشديد بيننا مدهشاً. تشابه جسدي، تماماً مثل قطرتين من الماء. ولكنْ؛ ليس هذا فقط. عندما تتحرك، وتتحدث، يبدو لي أنني أرى صورةً مصغّرةً عن نفسي.

"تعالي سريعاً"، هكذا قالت لي منار مساء أمس. "خالتي سامية.."، ثم توقفت قليلاً، ".. لا تجعلي الوحوش يأتون .. لا تقولي لي إنك خائفة".

انفجرت أنا وهودان في الضحك معاً.

"لا، يا صغيرتي منار، لست خائفةً. أبداً"، أجبتها.

هذا المساء سوف أرحل، أخيراً.

حانت لحظة الرحيل، حانت لحظة الوصول. سئمت من هذا الانتظار. ومساء اليوم سترحل معي - أيضاً - عمّتي مريم، إحدى أخوات أبي كبيرة السن التي كنت قد قابلتها هنا في طرابلس بالصدفة يوم خرجت لأخذ صفائح المياه. عاشت - تقريباً - شهراً في شقة، بالقرب من هنا دون أن أعرف ذلك.

هي - أيضاً - كان قد تم اعتقالها ثلاث مرات خلال الرحلة، هي - أيضاً - باتت متعبة، وتحتاج إلى مكانٍ، يخلو من الحروب، مكانٍ لا تضطر للهرب منه.

مساء اليوم سوف نرحل، وقريباً سوف نجد السلام.

سوف نجد السلام.

-٣٠-

قاربٌ كبيرٌ، أكبر بكثيرٍ مما كنت أتصور. هذا قاربٌ حقيقيٌّ، أما الآخر؛ فكان زورقاً مطاطيّاً.

عددنا كبير، رجال ونساء وأطفال ورضع وكبار سن، مرة أخرى، كنا نبدو، وكأننا ظلالٌ كثيرةٌ مفعمةٌ بالحماس والأملَ. ليس هناك خوفٌ في أعيننا، ونظراتنا مليئة بالخطط المستقبلية، تنظر - بالفعل - إلى ما وراء البحر.

وجدنا أنفسنا في الميناء، في حوالي الحادية عشر مساءً.

هناك - أيضاً - العمة مريم. إنها متعَبة. جاءت برفقة إحدى صديقاتها التي كانت قد رحلت برفقتها من مقديشو. صعدت على متن القارب، وجلست بالداخل، أما أنا؛ ففضّلت أن أبقى بالخارج؛ كي أستنشق عبير البحر، الذي بدا لي كعبير الحرية، عبير إيطاليا، أوروبا.

البحر، أخيراً البحر، للمرة الثانية أراه قريباً هكذا. يتحرك، ببطء، متمهّلاً، ينتظرنا.

يبلغ إجمالي عددنا ثلاثمائة شخصاً تقريباً. نحن - في الحقيقة - كثيرون. مَن يرانا يشعر بالشفقة تجاهنا. ظلالٌ صامتةٌ. توجد داخل أجسادنا رجفة، تشكل مزيجاً من الحذر والأمل. لا أحد يتحدث؛ لأن الحديث يعني أن تُسَمِّي هذه، وتلك. وتسمية الأشياء تجعلها موجودة، لذلك من الأفضل تجنّب ذلك في هذه الليلة. من الأفضل أن يبقى الحذر محبوساً داخل كل واحدٍ منا، وأن يتزايد الأمل، ربما ببطء، أثناء الرحلة. فقط عندئذٍ، فقط عند النهاية، بإمكاننا أن نبتهج، وسنقوم بذلك جميعاً. سوف نبكي،

وسوف نضحك معاً، وسيكون ذلك جميلاً. كما عندما كنا داخل المقطورة.

ليس الآن، الآن هي لحظة الصمت. والتضرّع.

طلبوا منا أن نصعد، فصعدنا.

ثم رحلنا.

هذه المرة تجاوزنا الساعات الثلاث الأولى.

الملاحة رشيقة وسلسة وثابتة. يتركنا البحر المطيع نخترقه بقاربنا. البعض نائم، والبعض الآخر لا يستطيع. بالنسبة لي، لست نائمةً، ظللت قدر استطاعتي ممسكةً بالدفة واستغلال حركة الرياح في تحريك القارب، حتى أصبح البرد شديداً، والليل حالكاً. ظللت ممسكةً بالدفة، وأنا أنظر إلى الشمال، في انتظار أرض الحرية.

ثم مرّ اليوم الأول.

ليس لدينا طعام كثير، اللهم إلا قليل من *أنجيرو* و*موفًا*. كالمعتاد، لم يسمحوا لنا بأن نأخذ معنا شيئاً على متن القارب، لتخفيف الحمولة. ولا حتى الماء.

بعد يومٍ ونصف، نفد كل ما كان لدينا. حاول البعض أن يقول شيئاً، وأخذ البعض الآخر يصرخ في وجه المهرّبين، لكن هذا لم يكن سوى أفعال، لا تأثير لها، لم يكن لها أي فائدة، فقط تسجيل بعض الدقائق، بإشاراتٍ إجباريةٍ، تحتّم على البعض القيام بها.

بعد يومين، اضطررنا لشرب الماء من قاع براميل القارب. لم أكن لأقوم بمثل هذا الأمر أبداً، بعد الحمى التي كانت قد أصابتني في الخرطوم. لكنني رأيت الآخرين يشربون دون أن يمرضوا، لذلك شربتُ أنا أيضاً. كانت المياه مقزّزةً، وكانت تشوبها رائحة الحديد والبول. وجدت وعاءً صغيراً، وجلبتُ بعضاً منها إلى العمة مريم، التي كان من المؤكد أنها تشعر بالعطش.

"إنها مقزّزة"، قلت لها. "لكن هذا هو المتاح هنا".

كانت تشعر، بعطشٍ شديدٍ، فقد كان توتُّر الرحلة قد جفّف فمها، مما جعلها تشرب الماء في رشفةٍ واحدةٍ.

"شكراً، يا عزيزتي"، أجابتني، بصوتٍ خافتٍ. منذ صعودهما - هي وصديقتها - على متن القارب، لم يتحركا من فوق تلك المقاعد الصغيرة. لا تتحركان، تنامان، تُصَلِّيَان وتأكلان ذلك القليل الذي يوفّره لنا المهرّبون. تقفان هناك، ثابتتين، تحدقان نظريهما في ذلك الامتداد اللانهائي أمامهما من الأمواج التي تفصلنا عن الحرية. أعود إلى الداخل لجلب مزيد من الماء لصديقتها.

ثم أحاول النوم في الخارج، تحت أشعة الشمس، نهاراً، لأنني أثناء الليل أفضل النظر إلى النجوم بدلاً من النوم. أخذت قسطاً من الراحة - ربما - دام لساعتين، في مجمله، أرتجف، بشدة، يمنحني البحر طاقةً، لم أشعر بمثلها من قبل، أنتظره منذ صغري حينما كنت أذهب لرؤيته من بعيدٍ، برفقة عليّ وهودان. أنتظره منذ وقتٍ طويلٍ.

أجلس وحدي، لا أتحدث مع أحدٍ. فجأةً، تقترب مني إحدى الفتيات، ترغب في الحديث معي.

"أنت صومالية؟"، تسألني. كما كنت قد فعلت مع تاليا. أتظاهر بأنني لم أسمع. "أنت صومالية؟"، تكرّر. فألتفت إليها، وأومئ برأسي إيجاباً، وأشير لها أنني ليس لدي رغبة في الحديث. أريد أن أبقى برفقة البحر والمستقبل فقط. نحن الثلاثة فقط، مثلي وهودان وعليّ، منذ نعومة أظافرنا.

ثم وقع الأمر.

مجدداً. لم أكن أصدق أن هذا كان يحدث حقاً، ولكنه حدث.

من المؤكد أن إبليس - الشيطان - له يد في هذا الأمر، فقد تعطّل

القارب. في منتصف اليوم الثالث. فليسقط فوق رؤوسكم ألف كيلو من البراز ذي الرائحة الكريهة حتى لا تتمكنوا من التخلص منها أبداً.

كنا قد خفضنا السرعة، ثم توقفنا.

لم أستطع أن أصدّق ما حدث، لم يكن يبقى لنا الكثير كي نصل إلى السواحل الإيطالية. ومع ذلك كنا متوقّفين. ظللنا هكذا لما يقرب من خمسة عشر ساعة.

خمسة عشر ساعة هي وقت لا نهاية له، إذا علمتَ أنك على بعد خطوة واحدة من وجهتك. إذا كنت في رحلة مثلي منذ عامٍ ونصف، إذا وضعنا في اعتبارنا - أيضاً - أديس أبابا. خمس عشرة ساعة من التوقف - والأدرينالين يتزايد داخلي - هي وقت، لا تستطيع مجرد التفكير فيه. الأمر أشبه بك عندما تكون في منافسة، عندما تنقصك خطوةٌ واحدةٌ، الخطوة الأخيرة قبل أن تترك بصمتك عند خط النهاية، وتجد نفسك تصطدم، بجدارٍ شفّافٍ.

بدأ البعض يتحدث، بشكلٍ طائشٍ. وبدأ البعض الآخر في ذكر الله. نزل المهرّبون إلى سطح القارب، كانوا ستة رجال، وباستخدام عصيهم تمكنوا من استعادة الهدوء على متن القارب. *هاوايان*، اخرسوا.

"إذا صرختم، بالتأكيد إننا لن لنصل إلى إيطاليا"، هكذا يقولون.

بعد خمس عشرة ساعة، يصل القارب الإيطالي أخيراً.

نبدأ جميعاً في التلويح بأذرعنا، والقفز، والغناء، والابتهاج، والقفز، ثم القفز مراراً وتكراراً، واتجهنا جميعاً إلى إحدى جوانب القارب؛ حيث اقترب قارب الإيطاليين، وقد أضحينا فريسةً في قبضة النشوة الجماعية غير المسيطَر عليها.

البعض يتعلق بمؤخرة القارب، يرغبون في الإلقاء بأنفسهم في المياه والسباحة نحو القارب الإيطالي. كاد ثقل الوزن المركز عند أحد جوانب

القارب أن يقلبه في البحر. صرخ أحد المهرّبين في مكبر الصوت طالباً منا العودة إلى أماكننا.

رويداً رويداً، بدأ الجميع - تقريباً - في العودة إلى الخلف، باستثناء البعض الذين ظلوا متعلّقين بحواف القارب. اثنان منهم كانت سيقانهم معلقة - بالفعل - في الهواء، مستعدّين للقفز.

ثم أدركنا ما كان يجري. اتضح كل شيءٍ.

لن يقطرونا إلى سواحلهم، لا.

يقول بعضنا إنهم لن يأخذونا معهم - أبداً - إلى إيطاليا. قضينا ساعةً في هذا الوضع، القاربان يتواجهان، بينهما مسافة، تبلغ خمسين متراً تقريباً، يتأرجحان فوق مياه البحر، بينما يقوم الربّان الإيطالي بالتحدث إلى مهرّبنا عن طريق أجهزة الراديو.

على متن قاربنا، شاع بين الآذان خبر أنهم سيجبروننا على العودة من حيث أتينا. سيقومون باستدعاء الشرطة الإيطالية، وسيعيدوننا إلى طرابلس. أو ربما إلى كفرة. أصيب بعضنا بالرعب. بينما خارت قوى البعض الآخر.

أخذ أحدنا يصرخ بأعلى صوته "لاااا، أنتم أبناء سفاح!"، كما لو كان بإمكان صوته أن يصل إلى القارب الإيطالي. لكنه تلاشى عند نقطةٍ ما وسط الأمواج التي كانت تعلو في غضبٍ متزايدٍ.

اقترب آخرون مجدداً، من حافة القارب، مهدّدين بصرخاتٍ مدويةٍ أن يلقوا بأنفسهم في البحر، لا يريدون العودة.

ثم اتخذ القارب الإيطالي قراراً. أمر الكابتن بإلقاء الحبال في البحر، تأهباً لأن يلقي أحدٌ بنفسه.

وصلت الحبال إلى المياه دون أن يُحدِث وقوعها في الماء صوتاً، لتقطع الأمواج المتلاطمة، الهائلة، التي تتفتت فور اصطدامها بجانب القارب.

كان عدد الحبال ما يقرب من عشرة. ما يقرب من عشرة حبال، لم يُحدِث وقوعها في الماء صوتاً، بطول القارب.

بعد ذلك، وقع الأمر. وقع، ولم يعد من الممكن التظاهر بأن شيئاً لم يكن.

فجأةً قام رجل بإلقاء نفسه في البحر من على متن قاربنا المتهالك. دون سابق إنذار، دون أن يتمكن أحدٌ من توقّع ذلك. صوت وقوعه في الماء هذه المرة كان مدوياً، كما لو كانت ثلاجة تسقط في البحر.

بات كل شيءٍ معلّقاً، لم يعد يجرؤ أحدٌ على التفوّه بكلمةٍ واحدةٍ. الوقت يتزايد وسط ذلك الصمت الممتد. إنه الترقّب. ترقّبٌ خالصٌ. ربما يحدث شيء. أي شيء.

بعده مباشرةً، لحق به آخرٌ.

صرخ أحد الأشخاص طالباً منه ألا يفعل. "البحر هائج، سوف تبتلعك الأمواج"، صرخ فيه أحدهم.

وبأعدادٍ كبيرةٍ، فقط عند هذه اللحظة، استيقظنا، اقتربنا من الحافة، فإذا بالقارب المتهالك يميل مجدداً.

ثم ألقى شخصٌ آخرٌ بنفسه من جديد.

لا أحد يستطيع أن يعرف من أين سوف يقوم التالي بإلقاء نفسه، الكل ينظر حوله ليرى ما إذا كان هناك آخرٌ. الكل يبدو كالأسماك التي أبهرها ضوءٌ قويٌّ، تبلغ شدته مليون وات، فأخذت تحرك رؤوسها - وهي تقفز - يميناً ويساراً.

وفجأةً إذا بامرأة - هذه المرة - تلقي بنفسها.

لا أحد يصدق ما يرى، وبالرغم من ذلك يوجد في الماء أربعة أشخاص، يبذلون قصارى جهدهم؛ كي يصلوا إلى الحبال. اثنان يسبحان، بجنون،

بضرباتٍ كبيرةٍ وصاخبةٍ. أما الاثنان الآخران - بما في ذلك السيدة المغطّاة بالأحجبة التي تُفتَح وتُقفَل مع غوصها داخل الماء، ثم خروجها منه - فيتحركان، في تشنّج، ويصدران إيماءاتٍ عصبيةً، فاتضح للجميع أنهما لا يجيدان السباحة.

الأمواج عالية، والبحر هائج.

"عودا للخلف!"، صرخ شخص ما.

"لقد فقدتما عقليكما، عودا إلى هنا!"، صاح شخصٌ آخر.

منذ أن ألقت الأربع جثث بنفسها في البحر، بدت الأمواج أكثر ارتفاعاً وقوةً. أصبحتُ قريبةً من الحافة، كالباقين، فنظرت للعمة، التي توجد - الآن - على سطح القارب.

ثم أنظر إلى البحر.

بحْري.

فَهِمَتْ على الفور، فجاءت نحوي.

ربما كان مكتوباً داخل عينيَّ، أو لا أدري أين، لكنها فهمت ذلك.

"لا!"، قالت لي.

"*لاااا!*"، كررت.

هكذا قالت، لكني لا أسمع صوتها، أستطيع - فقط - أن أرى شفتيها، وهما تتحركان.

ربما أجيبها بشيءٍ، ربما أقول "لن أعود إلى الوراء أبداً"، لكني لستُ متأكدةً إذا كان صوتي يخرج حقاً.

وإذا بقوةٍ أكبر مني تدفعني نحو حافة القارب. لست أدري من أين

جاءتني، لست أدري أي شيء. إنها هي مَن تجذبني، وتجعلني أتسلّق الحافة. لست أنا، إنها هي.

حاولت العمة مريم أن تشدني للخلف، أن تَعْلَقَ بقميصي، "لا! سامية، لا!".

أدرتُ إحدى ساقيّ.

ثم الأخرى.

البحر أمامي، أخيراً البحر، وبإمكاني الدخول إليه، دون أن يقول لي أحدٌ شيئاً. للمرة الأولى في حياتي يمكنني أن أشعر بأنني محاطةٌ، بكل تلك المياه، بإمكاني السباحة داخلها، كما وددت أن أفعل دائماً.

الآن أجلس فوق أحد جوانب قاربنا المتهالك والصدئ، أنظر إلى الفضاء اللانهائي، أنظر إلى البحر. أنظر إلى الحبال. أنظر إلى البحر.

أستدير.

لم أدرك شيئاً. العمة مريم ورائي، لا تتوقف عن شد قميصي، وهي تبكي، أنظر إلى شفتيها اللتين تصدران صوتاً، لا أقدر على سماعه.

ثم يقع الأمر. من جديد، يقع الأمر.

إنه وجود تلك القوة التي تحملني، ممسكةً بي بقوةٍ، عازمةً على الاعتناء بي.

القفزة مرتفعة، كما هو الحال في كل قفزة إلى الحرية.

المياه متجمّدة، وهائجة، بدرجة أكبر مما كانت تبدو عليها من الأعلى.

أثقب سطح الماء، وأصل إلى أدنى نقطة قبل الصعود مرة أخرى. أفتح عينيَّ. أرى عالماً من الفقاعات الصغيرة فوقي. هناك تلك الفقاعات الأكبر حجماً، بالقرب من رأسي، بطيئة، وتلك الفقاعات الصغيرة والمتناهية

الصغر التي تعدو سريعاً نحو الضوء، نحو السطح. تررر تررر تررر ترررر ترررررر. يميناً ويساراً، الأشكال المظلمة للقاربين.

أُعطي ضربةً بقدميَّ، فأصعد مجدداً إلى السطح. أخرج إلى الهواء باحثةً بعينيَّ عن الحبال.

لست أدري أيّ القاربين قاربنا، وأيهما الخاص بالإيطاليين. أحاول أن أهدأ، بينما كل شيءٍ محيط بالبحر يغمرني داخله وسط أمواجٍ متلاحقةٍ.

قارب الإيطاليين على اليسار.

أصعد وأهبط، أصعد وأهبط. تهدهدني المياه، وتأخذني. أقوم بتحريك ذراعي بقوةٍ، بكل ما أملك من قوة. أحاول أن أسبح في شكلٍ مستقيمٍ، وأن أتجه صوب الحبال مباشرةً.

الحبال. الحبال هي وجهتي، هدفي.

بينما أقوم بتحريك ذراعيَّ ضد الأمواج أنشد - في رأسي - أغنية هودان، أغنيتنا عن الحرية. أنشدها بينما أصعد وأهبط، أحاول أن أنشدها بفمي، لكني لا أستطيع، فأكررها في ذهني.

طيري، يا سامية، طيري، كما يطير الجواد المجنّح في الهواء ..

احلمي، يا سامية، احلمي، كما لو كنتِ ريحاً، تعبث بين أوراق الأشجار ..

اركضي، يا سامية، اركضي، كما لو كنتِ لا ترغبين في الوصول إلى أي مكان ..

عيشي، يا سامية، عيشي، كما لو أن كل شيءٍ مستحيل ..

..

..

..

ثم يحدث شيء ما أخيراً.

شخصٌ ما يمسك بيدي، بقوة، ويسحبني نحو الحبل. لست أدري كيف، ولكنْ؛ بفضل هذا الشخص - الذي لا أعرفه، ولكني شعرت أنني أحبه حباً، لا حدود له - تمكنتُ من الإمساك بها. أصبح الاحتكاك بالماء أكثر نعومةً، أفقيّاً، الآن.

إني أَسْبَحُ.

كلا، بل إن أحدهم يشدّني، للأعلى. إنهم يرفعونني على متن القارب الإيطالي.

.. طيري، يا سامية، طيري، كما يطير الجواد المجنّح في الهواء ..

الآن أتنفّس، أخيراً. أتنفّس جيداً.

فور صعودي على متن القارب، قاموا بمداواتي.

جفّفوني، وأجلسوني في مكانٍ دافئ.

ما أجمل الدفء، وما أشد برودة البحر.

بعد فترةٍ قصيرةٍ، قصيرةٍ جداً، لا تتعدى بضعة ساعات من الإبحار، نصل لامبيدوزا. إيطاليا.

لا يمكن أن يكون هذا حقيقيّاً، أخيراً أنا في إيطاليا.

حققتُ حلمي، لقد فعلتها.

.. احلمي، يا سامية، احلمي، كما لو كنتِ ريحاً، تعبث بين أوراق الأشجار ..

تلقيت علاجاً في لامبيدوزا.

احتجَزوني داخل إحدى المستشفيات لمدة يومين. أبلغتهم أنني يجب

أن ألتقي مدرّبي في إنجلترا، ومن ثم؛ تركوني أذهب، واصطحبوني إلى المطار.

من لامبيدوزا أخذت طائرةً إلى روما.

ومن روما طائرة أخرى إلى لندن.

في لندن، في ستانستد، كان ينتظرني محمد فرح شخصيّاً، برفقة مدرّبه.

أول شيء فعلاه هو استغرابهما لكثرة الوقت الذي أمضيته قبل الوصول.

اعتذرت لهما، ثم ضحكنا، ثم اتجهنا نحن الثلاثة مباشرةً إلى ملعب التدريب. عليّ أن أعوض الكثير من الوقت الذي تم إهداره، أعرف ذلك، أنا مدركةً لذلك. يجب أن أعمل، بجدّ.

أستعيد مستواي، بشكلٍ جيدٍ، أستجيب، بشكلٍ جيدٍ.

في غضون أسابيع قليلة، أصبحت قويةً، كما كنتُ من قبل، بل وأكثر.

اركضي، يا سامية، اركضي، كما لو كنتِ لا ترغبين في الوصول، إلى أي مكان..

تمكنتُ - بمعجزةٍ - من التأهل إلى أولمبياد لندن ٢٠١٢.

كدتُ ألمس السماء بيدي، من شدة فرحي. لم أشعر بسعادة مماثلة، من قبل.

تخطيت المراحل الأولية كافة، بالرغم من كل الصعاب، وصلت إلى السباق النهائي.

الجمهور يساندني.

عند مساند الأقدام، وعلى مرأى ومسمع من العالم، بأسره، أقف في الحارة الرابعة.

على يميني، تقف فيرونيكا كامبل - براون، وعلى يساري فلورنسا جريفيث - جوينر، أسرع امرأة في العالم.

.. عيشي، يا سامية، عيشي، كما لو أن كل شيءٍ مستحيل ..

بوووم.

هذه هي البداية.

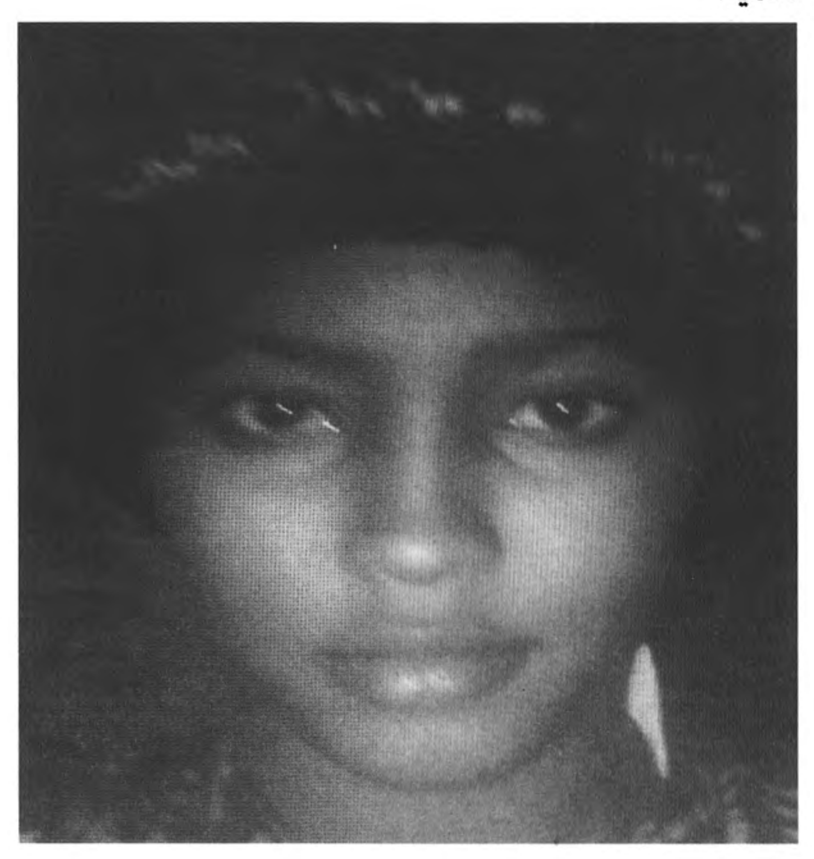
الآن أركض.

توفّيت سامية يوسف عمر في البحر المتوسط في ٢ نيسان/أبريل ٢٠١٢ أثناء محاولتها الوصول إلى الحبال الملقاة من إحدى القوارب الإيطالية.

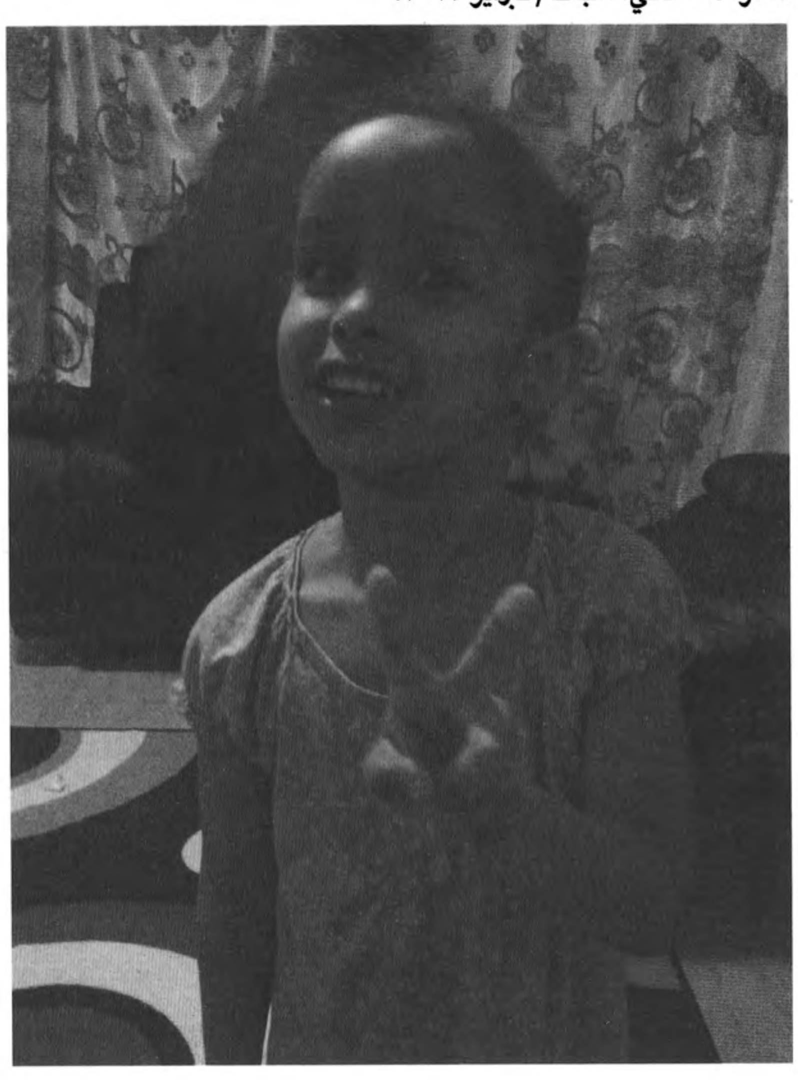
في أولمبياد لندن ٢٠١٢، فاز محمد فرح بسباقي ٥٠٠٠ متراً، و ١٠٠٠٠ متراً؛ ليصبح بطلاً قوميّاً، في إنجلترا والصومال. الصورة التي تم التقاطها له، تجمعه بيوسين بولت، انتشرت في أنحاء العالم جميعه: في لقطةٍ واحدةٍ، أسرع وأقوى عداءين في العالم.

أتمّت منار ربيعها الخامس، وما تزال تشبه خالتها، إلى حدٍّ كبيرٍ. يبدو أنها ستكون واحدة من أسرع فتيات سنّها.

سامية.



منار. هلسنكي، شباط/فبراير ٢٠١٣.



ملاحظات المؤلف

تعرفت - بالصدفة - على قصة سامية يوسف عمر في ١٩ آب/أغسطس ٢٠١٢ في لامو، في كينيا. كان ذلك في الصباح، عندما كانت قناة الجزيرة الإخبارية تقدم تقريراً موجزاً عنها عقب اختتام أولمبياد لندن. صُعِقْتُ عند سماع تلك القصة. بعد بضعة أيام عدتُ إلى إيطاليا؛ حيث كانت الكاتبة إيجابا شيجو قد كتبت في هذا الشأن في صحيفة "بوبليكو". وبفضل إيجابا شيجو وزهرة عمر، اللتين هما أكثر بكثير من مجرد وسيطتين ثقافية ومترجمة، تمكنت من التقاء هودان ومنار، في هلسنكي، أثناء البرد القارس، لشهر شباط/فبراير عام ٢٠١٣. وبفضل زهرة، تمكنت أنا وهودان من التواصِل، بلغةٍ، بدت لي - على الفور - اللغة نفسها. ولولا إيجابا وزهرة لما وُجِدَ هذا الكتاب.

لن أستطيع - أبداً - أن أشكر هودان بالقدر الكافي للمناقشات الطويلة التي أجريناها معاً، في كل تلك الأيام الطويلة، ولدموعها، ونحيبها، وابتساماتها، وأغانيها، ونحن داخل غرفة صغيرة لأحد الفنادق، وأيضاً لأنها منحتني الشجاعة والقوة؛ كي أحكي قصة شقيقتها. شكراً لك؛ لأنك أفصحتِ لي عن تلك القصة التي آمل أن أكون قد تمكّنت - ولو بجزءٍ بسيطٍ - من إعادة تقديمها للقرّاء. كما أشكرك على الطعام الصومالي اللذيذ الذي كنتِ تجلبينه معكِ إلى الفندق عندما كانت المطاعم المحيطة بالفندق كافة تكون مغلقةً.

كما أتوجه بالشكر - أيضاً - إلى منار التي ملأتني بالطاقة والحيوية خلال تلك الساعات التي قضيناها معاً.

أود أن أشكر - أيضاً - مَن سمّيتها في الرواية نيجيست، التي ترغب ألا تذكر اسمها الحقيقي؛ حيث إنها لا تزال خائفة مما يمكن أن تقوم به الشرطة الليبية، إذا وجدتها. أشكرها لما قصته عليّ، فيما يتعلق بأحاديثها مع سامية خلال الثلاثين يوماً التي قضياها في طرابلس داخل البيت الصغير نفسه، بصحبة أربعين امرأةً أخرى.

شكر

هذا الكتاب هو نتاج عمل الكثير من الأشخاص الذين ساعدوني، بطرقٍ مختلفةٍ، في كتابته، أو ساهموا في جعله أفضل بعد الانتهاء من كتابته؛ أو أولئك الذين - قبل الانتهاء من كتابته - قد وفّروا لي الأجواء المناسبة لإيجاد الطاقة اللازمة لإنجازه.

قبل كل شيءٍ، أتوجّه بالشكر إلى والديَّ، اللذين لطالما وقفا إلى جواري، واللذين لا يزالان يمثلان لي أهميةً كبيرةً، في أحلك اللحظات، تلك اللحظات التي لا يعرف المرء خلالها أيّ الطرق يسلك.

شكراً إلى جدتي ميكيلينا التي أعرف أنها في مكانٍ ما تبتسم، وهي تنظر إليَّ، بينما أكتب على لوحة المفاتيح هذه.

شكر خاصّ إلى أعضاء دار فلترينيللي للنشر كافة.

شكراً إلى كارلو فيلترينيلي؛ لأنه أحبّ المشروع منذ اللحظة الأولى.

شكراً إلى جانلوكا فوليا، لرغبته في إنجاز هذا العمل، واعتنائه الشديد به.

شكراً إلى ألبرتو رولو، لمساهمته في تنمية مساحة الإحساس داخلي؛ كي تستوعب صوت سامية، ولأنه كان أول مَن قال لي "إنها روايةٌ جميلةٌ".

شكراً إلى أليساندرو مونتي، لكلماته المتأنّية وقراءته العميقة.

شكراً إلى جوفانا سالفيا، لمساهمتها القيّمة في هذا النص.

شكراً إلى كيارا كارديلّي وبيتّينا كريستياني لاكتشافهما الكثير من الأمور التي لم تكن تسير على ما يرام.

شكراً إلى ثيو كولير وبيانكا دينابولي، لقيامهما بالحديث عن هذه الرواية مع العديد من الأشخاص في أنحاء العالم جميعه.

شكراً إلى ألبرتو سكيافوني؛ لأنه من أوائل الأشخاص الذين قرأتُ عليهم هذا الكتاب.

شكرٌ جماعيٌّ إلى كلٍّ من فرانشيسكا كابينَّاني، أناليزا لابوراي، سيلفيا كاسُّوني، بندِتَّا بيليزاريو، روسِّيلا فانكولي، فرانشيسكو لوبيز، ولودوفيكا بيكَّاردو، وأنييزي رادايلِّي، من مؤسسة "العنصرية أمرٌ قبيحٌ"، لرغبتهم في قراءة المسودة الأولى لهذا الكتاب، ولحماسهم الذي نقلوه إليَّ.

شكراً إلى أندريا فيدجينتيني، وسالفاتوري باناتشوني، لكلماتهما، في مناسباتٍ عديدةٍ.

شكراً إلى رودولفو مونتوورو، لدعمه وحماسه الذي لا ينقطع.

شكراً إلى روزي فيكوتشيلِّي، لدقّتها، في مراجعة كل مسودة.

شكراً إلى راف شيلسي الذي كان قادراً على الإنصات إليَّ، في لحظات التيه.

شكراً إلى جوليا رومانو التي تحدثت معي كثيراً.

شكراً إلى جومَّا، لتشجيعها المستمر لي عن بعد.

شكراً إلى أنَّا دياز راميريز للصورة.

شكراً إلى كريستيانو جويرِّي، ودوتشو بوسكولي، لكل ما قاما به من عملٍ - أجبرتهما عليه - فيما يتعلق، بالغلاف.

شكراً جزيلاً إلى وكيلي روبرتو سانتاكيارا - العمود الأساسي والشخص الثاني على الإطلاق الذي أفصحتُ له عن هذه القصة - لتشجيعه لي - على الفور - للقيام، بكتابتها.

شكراً إلى روبرتو سافيانو الذي قال لي في إحدى اللحظات الدقيقة التي مررتُ بها: "أتوسل إليك، اكتب".

شكراً - مرةً أخرى - لإيجابا شيجو التي بفضلها، بدأ كل شيءٍ.

شكراً إلى فرانشيسكو بوليمانتي، لحساسيته وانفتاحه أثناء المحاضرة التي ألقيتها عن تاريخ سامية في جامعة UM في ميامي في تشرين الأول/ أكتوبر من عام ٢٠١٣.

وشكراً إلى مَن تساندني دوماً: أختي نيكوليتّا.

وأخيراً شكراً إلى كيارا: لست بحاجةٍ إلى الكشف عن الكثير من الأمور - في هذا المقام - المتعلّقة بمساعدتك الكبيرة لي قبل وأثناء وبعد إنجاز هذا العمل.


https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكتبة بغداد

صدرت هذه الرواية عام ٢٠١٤ عن دار النشر الإيطالية فلترينيللي وهي أحدى أكبر دور النشر الإيطالية وأعرقها. وفي غضون شهور قليلة باعت أكثر من مائة ألف نسخة في ظاهرة غريبة عن حركة بيع الكتاب في إيطالية.

ثم حازت الرواية على جوائز أدبية قيّمة من أهمها جائزة «كارلو ليفي» الأدبية وجائزة «لوستريغا»، أهم وأعرق جائزة أدبية في إيطالية، للأدباء الشباب. وسريعاً تُرجمت الرواية إلى كل اللغات الأوروبية، وحصلت على ثناء ملحوظ في الأوساط الثقافية الأمريكية. وحالياً جاري العمل لتحويلها إلى فيلم سينمائي.

الناشر

«نجح كاتوتسيلا في دعوتنا إلى مشاركة هذه المشاعر الحميمة بشروط قاسية ومجهولة. أثار في ضمائرنا أهمية السرد في اقتسام الحلم والكابوس. هذا هو النمط الأدبي الذي أرى أنه قادر على قصّ الملحمة الكبرى التي نعيش يومياتها المعاصرة: اللجوء والهجرة والبحر المتوسط».

الروائي الإيطالي الشهير إرّي دي لوكا

«استطاع الكاتب أن يوثّق قصة حقيقية ليس بوسع الخيال أن يبدع مثلها. وأرغمنا التشويق في صفحاتها على حبس أنفاسنا والشعور بأننا نتحمل جزءا من المسؤولية لما يقع من كوارث في الجانب الآخر من العالم».

الروائي الإيطالي روبرتو سافيانو مؤلف رواية غومورا


ISBN 978-88-99687-05-2

المتوسط